مسرحية :سقوط القلعة الأخيرة

بقلم :محمد عزيز لوتري

تصدير: صرخة في أروقة التاريخ

المقدمة

بين جدران قصر "يلدز" الصامد ونقوش قصر "بكلر بكي" الحزين، تجري أحداث هذه الملحمة الدرامية التي توثق الساعات الأخيرة في عمر الخلافة العثمانية. **"سقوط**

القلعة الأخيرة" ليست مجرد مسرحية تاريخية، بل هي تشريح سياسي وفكري لواحدة من أصعب فترات التاريخ الحديث.

يغوص المؤلف في أعماق شخصية السلطان **عبد الحميد الثاني**، لا كحاكمٍ فوق العرش فحسب، بل كإنسانٍ يواجه العاصفة وحيداً، محاصراً بين ديونٍ تنخر جسد الدولة، وثوارٍ يطرقون الأبواب، ومؤامراتٍ دولية تستهدف "القدس".

لماذا تقرأ هذه المسرحية؟

- **بناء درامي محكم:** تلتزم بأصول التراجيديا الكلاسيكية وتنفذ إلى أعماق النفس البشرية بأسلوب يذكرنا بروائع **شكسبير**.
- **موقف فكري صارم:** تطرح أسئلة السيادة والكرامة في زمن الانهيار، مما يجعلها مرآةً للواقع المعاصر.
- **توثيق تاريخي حي:** تعيد إحياء الوثائق والمذكرات (كشهادة الأميرة عائشة والشيخ أبي الشامات) في قالب حواري آسر ومثير.

لم يكن السلطان عبد الحميد الثاني مجرد حاكمٍ لآخر إمبراطوريات الشرق، بل كان "البرزخ" الذي فُصل بين زمنين، والقلعة التي تكسرت عند أسوارها أمواج التحولات الكبرى. في هذه المسرحية، لا نستدعي التاريخ لنقرأه، بل ننبشه لنعيشه. إنها محاكمة درامية لا للماضي فحسب، بل للحاضر الذي تشكلت ملامحه يوم سقطت تلك القلعة. نحن أمام نصٍّ يرفض الانصياع للرواية الجافة، ليمنح الشخوص دماً ولحماً ودموعاً، محولاً "الوثيقة" إلى "وجع إنساني" و"موقف سياسي" عابر للعصور.

التقييم الفكري والسياسي: صراع الوجود

تتجلى عبقرية العمل في كونه **مانيفستو سياسي** بامتياز، يطرح إشكالية "السيادة في مواجهة المؤامرة" و"المبدأ في مواجهة الانكسار". فكرياً، المسرحية تشرح سيكولوجية الحاكم المظلوم الذي يرى العالم يتداعى من حوله، لكنه يظل متمسكاً بالخيط الرفيع

للخلافة. سياسياً، العمل يسلط الضوء على "قضية فلسطين" ليس كحدث عارض، بل كعمود فقري للعمل، مما يجعل المسرحية ذات ثقل معاصر يلامس وعي القارئ العربي والمسلم اليوم.

المقارنة الأدبية: بين شكسبير وبريشت

تقف هذه المسرحية في منطقة وسطى بين **تراجيديات شكسبير** (مثل لير وهاملت) من حيث سقوط العظمة البشرية والصراع الداخلي الممزق، وبين **ملحمية بريشت** التي تدفع المشاهد للتفكير والتحليل السياسي. هي تشبه في زخمها وعمقها مسرحية **"الفتى مهران"** لعبد الرحمن الشرقاوي، أو **"السلطان الحائر"** لتوفيق الحكيم، حيث الصراع بين القوة والحق، وبين بريق التاج وظلمة الزنزانة.

المميزات الدرامية وتطبيق الأصول الفنية

اعتمد العمل في بنائه على أصول الدراما الكلاسيكية والحديثة ببراعة:

1. **الوحدة الموضوعية:** رغم تنوع المشاهد، إلا أن "وحدة المصير" كانت الخيط الناظم لكل الفصول.
2. **بناء الشخصية:** نجحت المسرحية في إظهار "الهيبة المنكسرة"، فالسلطان هنا ليس بطلاً خارقاً، بل إنسان يعاني، يمرض، يذرف الدموع، ويواجه الفناء بكرامة، وهو ما يحقق شرط **"التطهير" (Catharsis)** عند أرسطو.
3. **الصراع (Conflict):** تم تفعيل الصراع على مستويين؛ **خارجي** (مع الاتحاديين والقوى الدولية) و**داخلي** (بين مشاعره كأب ومسؤولياته كخليفة).
4. **اللغة والتدفق:** الحوار مشحون بطاقة شعورية عالية، واللغة فخمة تناسب جلالة الحدث، مع توظيف ذكي "للمونولوغ" الذي يكشف خبايا النفس.

الخلاصة

إن **"سقوط القلعة الأخيرة"** ليست مجرد سرد لموت سلطان، بل هي تجسيد لموت مرحلة وولادة شتات. إنه عمل أدبي يمتلك مقومات "البقاء"، لأنه لم يكتفِ بتوثيق التاريخ، بل "أنسنه" وجعله مرآةً كاشفة لكل من يبحث عن الحقيقة في ركام الزيف.

مسرحية :سقوط القلعة الأخيرة

بقلم :محمد عزيزلوتري

الفصل الأول عنوان الفصل :سقوط التاج

أشخاص هذا الفصل:

حسين عوني باشا: سر العسكر – وزير الحربية

مدحت باشا

رشدي باشا

نامق كمال باشا

ضياء باشا

البواب

سفير بريطانيا في إسطنبول

سفير فرنسا

السلطان مراد

خادمان مع السلطان مراد

يُرفع الستار

المكان: مكتب سر العسكر (وزير الحربية) حسين عوني باشا – ترتيبات المكتب متروكة للمخرج ويستفيد من كتب التاريخ والوثائق لتلك الفترة.

الزمان: 3 حزيران (يونيو) 1876م، بعد العصر.

(يظهر حسين عوني باشا بزي عسكري ويبدو أنه متوتر، يتمشى في المكتب واضعًا يديه خلفه ويحرك أصابعه، وأحيانًا يضرب بحذائه الخشبة ويهز رأسه)

(يدخل مدحت باشا وينظر إلى عوني)

مدحت: لِمَ كل هذا القلق يا رأس الانقلاب؟ لعلك تفكر في منصبك الجديد بعد هذا اليوم؟

عوني: (يستمر على مشيته) كيف استقبلت دولة بريطانيا العظمى خطتنا يا مدحت؟

مدحت: (بعد أن ييأس من أن يقول له عوني "تفضل بالجلوس"، يجلس) قبل خلع السلطان كنت على اتصال دائم بـ"هنري إليوت" السفير البريطاني هنا لضمان مساعدتهم وتأييدهم لانقلابنا.

عوني: وفعلاً، وفوا بوعودهم، وهذا موضع شكر وتقدير.

مدحت: وما قصتكم مع الفرنسيين؟ كيف توصلتم إلى اتفاق؟

عوني: سامحني إن لم أخبرك، لأنك تُفشي كل الأسرار عندما تكون سكرانًا.

مدحت: (يضحك بقهقهة ويسند ظهره إلى الأريكة جيدًا، ويضرب برجله الأرض ويقول متعجبًا) أنت أسندت إليَّ جانب البريطانيين فيما يتعلق بالانقلاب وهم أكبر دولة في

العالم! فإذا أفشيتُ ما عندي من أسرار وقلت إن عوني مشترك معي وهو يتفاوض، لكنه يتفاوض مع دولة أقل شأنًا من بريطانيا وهي فرنسا، أهذا لا يكفي لافتضاح أمرك و...

عوني: (يقاطعه) أما بخصوص أن تكون فرنسا أقل شأنًا، فأرجو أن يكون هذا آخر مرة أسمع منك هذا الكلام، فالخلاف ليس في صالحنا في بداية هذا العمل العظيم.

مدحت: حسنًا، وها أنت تثير الخلاف ولا تأبه إن كان ما يتعلق بالجانب البريطاني من هذا الانقلاب يُكتشف أمره أم لا، في حين يهمك الجانب الفرنسي. وليكن معلومًا عندك أنا أعرف عيبي، ولذا لا أشرب إلا عند من أثق بهم من رجالي.

عوني: (يتوقف لبرهة) ثقة! رجل موثوق! وهل تؤمن فعلاً بخرافة وجود رجل موثوق؟! كلنا كنا أهل الثقة للسلطان. (يضحك لنفسه ويتنفس نفسًا عميقًا ويجلس ويضع ساقًا على ركبته وينظر إلى وجه مدحت بدقة، ويقول) هل تعرف لماذا قمت بهذا العمل يا مدحت؟

مدحت: بالطبع من منطلق شعوركم بالمسؤولية تجاه الوطن و...

عوني: (يشير بيده إلى مدحت بالتوقف ويقاطعه) الوطنية والمسؤولية، كل هذه المصطلحات البراقة سخافات ليس لها حقيقة، مجرد خدعة للبسطاء.

(بعد برهة من السكوت) تعرف يا مدحت أنني على مدى ثلاثين عامًا شاركت في كل المعارك التي خاضتها الدولة العثمانية وأبديت بطولات أسطورية حتى وصلت إلى رتبة سر العسكر، ولكن... (يأخذ نفسًا عميقًا وتبدو في وجهه علامات الحزن) فجأة عزلني هذا السلطان المستبد المخلوع في سنة 1871م عن منصبي، وأخذ مني جميع أوسمتي التي نلتها بجدارة في ساحات القتال، وصادر كل ما أملكه وأخرجني من قصري وأمر بنفيي إلى إسبارطة. وفي تلك الليلة التي بُلِّغت فيها أمر النفي كنت مريضًا جدًا، وكانت الأطعمة السائلة تُعطى لي بواسطة أنبوب مطاطي، فشفع لي الأطباء بأن أبقى تلك

الليلة. وفي تلك الليلة أرسلت أحد رجالي إلى أحد الضباط الفرنسيين الذي كان زميلي في حرب القرم وهو شارل ميسمر ليساعدني. (ينظر إلى الأرض ويسكت لدقائق ثم يرفع رأسه ويقول) فهذه الحادثة يا مدحت علمتني مدى أهمية النقود، فقررت آنذاك بأنه إذا تيسر لي أن أصل إلى السلطة مرة أخرى فإنني أعرف ما يجب عمله.

مدحت: وما مناسبة كل هذه القصص المأساوية مع سؤالي؟ عرفنا أنك ونديم باشا الصدر الأعظم السابق كان بينكما تخاصم لكونه صديقًا لروسيا وكونك صديقًا لفرنسا، ولكن الشيء الوحيد الذي فهمته من هذه القصة هو ترجمة الجملة الأخيرة إلى العمل بعد عودتكم إلى القصر. وهذا المكتب الأنيق والمرتب بالأشياء الفاخرة والتحف النادرة دليل على ذلك.

عوني: (مبتسمًا) طبعًا، وهذا الذي تراه قليل جدًا من الكثير الذي لم تره بعد!

مدحت: (يضحك) لِمَ انقلبت إذن؟ إذا لم يكن لسداد الديون وترفيه الناس وتوفير الخدمات؟ أم لتستمر في قرارك الحاسم في تلك الليلة التعيسة؟ وبذلك تزداد الديون وتكون حال السلطنة أسوأ! ولكن ما أجبت على سؤالي حتى الآن، وتركت قصة تعاستك وما أكملتها.

عوني: نعم، وأنت قاطعتني بمبادئك الوطنية! بعد أن بقيت في منفاي أحد عشر شهرًا، ثم عفا عني السلطان وتقلبت في المناصب إلى أن أصبحت وزير الحربية مرة أخرى. السلطان بسطحيته وحماقته عفا عني، ولكن أنا ما عفوت عنه وقررت أن أنتقم منه.

مدحت: هم، الآن علمت منك درسًا.

عوني: ألا وهو؟

مدحت: إذا نحيت أحدًا من منصبه بتهمة ما ثم اتضحت لك الحقيقة وأنه كان بريئًا، ينبغي ألا ترجعه إلى أحد المناصب في إدارتك لأنه مهما أكرمته، فإنه لا ينسى تلك الإهانة.

عوني: بالضبط، لأن النفس عزيزة. ثم كيف نسي بطولات ثلاثين سنة بنميمة أحد الخصوم؟ ولِمَ أرجعني إن كنت خائنًا لوطني؟ ولهذا قررت أن أكون كما ظنوا. فقبل سنة من الآن، أي في سنة 1875م، أخذت إجازة بحجة العلاج وسافرت إلى باريس، واجتمعت في فرساي مع رئيس الجمهورية المارشال "ماك ماهون" على انفراد طبعًا!

مدحت: يا سلام! أي إمبراطورية هذه؟! كيف يمكن لمارشال في الإمبراطورية العثمانية أن يزور رئيس الجمهورية الفرنسية دون أن يأخذ موعدًا للزيارة عن طريق السفير العثماني في باريس؟ ودون أن يحضر السفير ذلك الاجتماع؟!

عوني: كان همي الوحيد أن أضمن اعتراف فرنسا بحكومتنا الجديدة بعد الانقلاب، ولذا كنت أذكر على الدوام حرصي على دفع الأقساط وفائدة الديون لفرنسا في وقتها المحدد.

مدحت: لأن الخزينة مليئة ولا ديون علينا إلا ديونهم! وماذا بعد؟

عوني: كان زميلي الجنرال ميسمر يستغرب أن سر هذا الانقلاب بين 62 عضوًا من القصر الإمبراطوري، ولكن قلت بأنني أعرف رجالي، ثم إنني أتحرك وحدي وهم يستفيدون من الأمر الواقع فقط. وكل ما أعرفه عنهم أنهم ساخطون وغير راضين عن الوضع.

مدحت: وفي النهاية؟

عوني: بعد أن صرفت مبلغًا طائلاً في أفخم فنادق باريس وتجولت مع ميسمر كثيرًا، واشتريت زوجًا من الشمعدانات الذهبية بثمن غالٍ هدية للسلطان عبد العزيز، و...

مدحت: هدية؟! وبأي مناسبة؟!

عوني: بمناسبة أنهم إذا أرادوا أن يعزلوا شخصًا أو ينالوا منه، في بادئ الأمر يُغرقونه بالهدايا كي لا يحس بكيدهم، وأنا أيضًا اقتفيت أثرهم!

(يضحكان بصوت عالٍ)

عوني: وعند الوداع قال لي ميسمر: هل أنت مدرك مدى الخطورة التي تُقحم نفسك فيها؟ فقلت له: ما قيمة الحياة بالنسبة لشخص عسكري؟ فإذا انفجرت أي حرب أخرى فإن حياتي ستكون معلقة برصاصة من أي جندي قوزاقي. أما هذا الهدف فإنه يستحق الخطر، إن غايتي أن أقلب نظامًا فاسدًا يدير البلد تحت حكم خدام القصر والأجانب...

مدحت: كفى، كفى، وكأنك تلقي كلمة نارية أمام جيش في ساحة المعركة! ثم إن كلامك هذا متناقض تمامًا مع مبدئك الذي خططته لحياتك في ليلتك التعيسة، وإن صرفك لمبلغ هائل وحرصك على دفع الفوائد لفرنسا مخالف لغايتك هذه. ويبدو أن زميلك كان غبيًا إن لم يدرك تناقضاتك هذه.

عوني: لا بد من الشعارات اللامعة، وليس لدى كل الناس ذوق ربط التصريحات ببعضها واستخراج التناقضات، اللهم إلا الخصوم، فإنهم يهمهم أن يعرفوا عيوب خصومهم.

(يأتي ضابط ويلقي التحية)

الضابط: سعادة سفيري بريطانيا وفرنسا يا سيدي.

مدحت وعوني: (يقومان من مكانهما ويقول عوني) ليتفضلوا.

(يدخل السفيران ويتعانقان مع مدحت وعوني ويهنئانهما بمناسبة فوز الانقلاب)

(بعد الترحيب والجلوس)

سفير فرنسا: أرجو أن تراعوا مبادئ حقوق الإنسان بحق ذلك المستبد المخلوع، فمع كونه ظالمًا لا ننسى بأننا حاملو رسالة الحرية وحقوق الإنسان.

عوني: اطمئنوا يا أعزائي بأن السلطان المخلوع نُقل في تاريخ 30 مايو 1876 إلى قصر أورطة كوي باحترام وما لحقه أدنى أذى.

سفير بريطانيا: نعم، ولا ننتظر منكم سوى هذا.

(يدخل أحد الضباط ويلقي التحية أمام عوني ويعطيه ورقة صغيرة، ويلقي التحية ويريد أن يخرج، ولكن عوني يطلب الإذن من السفيرين ويتبعه إلى زاوية المسرح ويقول له مرتبكًا)

عوني: ما المشكلة أيها الضابط؟

الضابط: ها هو مكتوب أمامكم سيدي، بأن قائد قوة روملي أحمد مختار باشا لم يرسل برقية التأييد للانقلاب وهو من محبي السلطان.

عوني: وطالما بقي عبد العزيز على قيد الحياة فإن أي قوة تستطيع أن تُخرجه من السجن وتنصبه من جديد.

الضابط: (يهز رأسه ويقول) وهذا يعني فشل الانقلاب!

عوني: إذن أسرعوا في قتله وأذيعوا بين الناس بأنه انتحر.

الضابط: وكيف نقتله؟

عوني: (ينظر إليه بعنجهية ويدفعه بيده قائلاً له) اقطع شريان يديه بالمقص، أما زلت تخاف منه؟!

الضابط: حاضر سيدي. (يلقي التحية ويخرج، ويرجع عوني إلى مجلس السفيرين ويقول) معذرة يا سادة.

(يدخل السلطان مراد على خشبة المسرح ومعه اثنان من الخدم يمسكان يديه لئلا يسقط، وبيده قنينة الخمر وهو في غاية الثمل. يقوم الجالسون احترامًا له)

مراد: (بصوت متلعثم) أسرعوا لنخلي هذا القصر قبل أن ينهار! (ينظر إلى عوني ويقول) الفئران يا عوني هي أشد خطرًا من جيش مدرب! تقولون لي بأنني أصبحت سلطانًا وتريدون بهذه الكذبة أن تسلموني إلى عمي عبد العزيز فيقطع رأسي!

(ينظر إلى سفير بريطانيا ويقول) من هذا؟

عوني: هذا سفير بريطانيا العظمى يا مولاي.

مراد: كم أنا مسرور بحضوره هنا لأنني مع ولي عهد بريطانيا العظمى تجمعنا الأخوة الماسونية، فعلى الأقل ألجأ إليه.

عوني: (يتقاطر منه العرق من الخجل ويشير بيده إلى الخادمين لكي يخرجا السلطان ويقول موجهًا كلامه إلى السفيرين) لا تحتاجون إلى أي ملاجئ يا مولاي، أنتم سلطان الإمبراطورية.

(وفي هذا الوقت العصيب يدخل الضابط ويلقي التحية ويقول بصوت عالٍ مبتسمًا)

الضابط: أبشروا يا مولاي، فإن السلطان المخلوع قد انتحر.

(عندما يسمع مراد هذا الخبر يُغمى عليه ويحمله الخادمان إلى الخارج، وكذلك عوني ومدحت يخرجان، ويبقى السفيران على خشبة المسرح ويضحكان)

السفير الفرنسي: أظن أن أمر هذا السكير لا يدوم طويلاً، ولكن ألا تخبرني بفائدتكم من هذا الانقلاب؟ فالظاهر أن فائدتنا هي الحصول على الكوبونات؟

السفير البريطاني: إن مصالحنا أعمق من هذا. كما تعرف بأنه بعد السلطان سليم الذي استولى على مصر ما زارها أحد من السلاطين غير هذا الذي انتحر، فهو كان يهتم بقناة السويس بعد أن خرج منها عملاقكم خاسرًا، وباب المندب، واهتم بالقوة البحرية حتى صار الأسطول العثماني ثاني قوة بحرية بعدنا، واهتم بقواته البرية حتى كانت تأتي بالمرتبة الثانية بعد جيش روسيا. وهذا توجه خطر لنا ولأوروبا عمومًا. وكل

هذا تم بمساعدتكم وتحت إشرافكم! وهناك دافع آخر وهو كون هذا السكير الماسوني صديقًا للأمير إدوارد ولي عهد بريطانيا. إننا نطمع أن نكون بديلاً لكم في المشاريع والامتيازات، أليس هذا من حقنا؟ أنتم ألقيتم بذرة في مصر وإننا بكل التأكيد نقطف ثمرها بعدما فشلتم! (ويقهقه)

سفير فرنسا: (مع الشعور بالاستياء) ولكن القوة البحرية والبرية اللتين بناهما السلطان عبد العزيز على حالهما؟

سفير بريطانيا: وتدميرهما تكون مهمة رجال الانقلاب، وذلك بخوض حرب مع روسيا، وطبعًا تظهر قوة إصلاحاتكم العسكرية في الجيش العثماني أمام العملاق الروسي.

سفير فرنسا: ولكن كيف؟

سفير بريطانيا: ننفخ مدحت باشا وندفعه كي يجبر باب العالي على خوض هذه الحرب بما له من الشعبية في تركيا.

سفير فرنسا: يبدو أنك تتكلم في مكتب سر العسكر وكأنك سر العسكر وبيدك قرار الحرب والسلم. وبما أنني لست أهلاً لمثل هذه المهام، أتركك بخير!

(يخرج السفير الفرنسي ويبقى السفير البريطاني وتبدو علامة الفرح والغرور في وجهه ويقول)

سفير بريطانيا: هكذا نلعب لعبتنا أيها الفرنسيون، ولا مفر لكم منا إلا إلينا. خوفكم من الألمان جعلكم ترمون بأنفسكم في أحضاننا، ها ها ها!

(ويرجع مدحت باشا)

مدحت: متأسف لما حصل، يبدو أنكم مسرورون؟!

سفير بريطانيا: ولِمَ لا أكون مسرورًا؟ تمنيت لو كنت هنا وترى كيف خرج زميلي مستاءً وحزينًا على انتهاء عصرهم الذهبي مع الإمبراطورية العثمانية؟ الآن قل لي، كيف حال السلطان، أما زال فاقد الوعي؟

مدحت باشا: نعم، ماذا لو بقي على حاله؟

سفير بريطانيا: كل شيء يُبحث في أوانه.

مدحت باشا: قولكم صحيح. كنا قبل قرون خلت موجهين أنظارنا صوب فرنسا، إذ تعود صداقتنا معها إلى عهد لويس الرابع عشر الذي أعلن أنه لن يتحالف مع أية دولة أوروبية تعادي العثمانيين الأبطال. ولا شك أننا مدينون في إصلاح جيشنا وفي سلاح مدفعيتنا بوجه خاص للضباط الفرنسيين. ولم يخلُ جيشنا بعد ذلك التاريخ من ضباط فرنسيين، حيث كان اشتراكهم في حرب القرم رمزًا للتحالف العثماني الفرنسي. ولنا أن نقول إن السنوات الأخيرة من تاريخنا هي العصر الذهبي للعلاقات مع فرنسا. والإصلاحات التي نُفذت في عهد كل من عبد العزيز وعبد المجيد هي إصلاحات مستمدة من فرنسا، وكانت المدارس والمعاهد العسكرية تحت تأثير النظام الفرنسي، وأول خط حديدي في بلادنا أُنشئ من قبل الفرنسيين.

سفير بريطانيا: جهلاء! كيف تعاونوا معنا وحرموا دولتهم من كل هذه الامتيازات؟ الآن قل لي، هل أمر عوني مستقيم؟

مدحت: لقد كان قبل نفيه من قبل عبد العزيز درويشًا مخلصًا لآل عثمان سواء أخطأوا أم أصابوا، وأخاف أن يعود إلى تلك الحالة بعد مصرع خصمه، كما أنه متذبذب بينكم وبين الفرنسيين.

سفير بريطانيا: هل هناك شبهة في أن حادث موت عبد العزيز انتحار أم قتل؟

مدحت: (مبتسمًا) هل يُعقل أن يقطع أحد شريان كلتا يديه بمقص؟

سفير بريطانيا: إذن لكي يتبرأ رجال الانقلاب ويُلقى بالتهمة على عوني فقط...

مدحت: هذا ما فكرت فيه بالضبط، وأعددت له خطة ما. (يلتفت نحو الباب وينادي) أيها الضابط!

(يدخل الضابط ويلقي التحية)

الضابط: نعم سيدي.

مدحت: طبعًا تريد أن تبرئ ساحتك عما أمرك به عوني. اجعل من عوني المغرور أن يتقرب من ذلك الجركسي قريب السلطان السابق، واترك الفريسة في يد الصياد.

الضابط: حاضر سيدي. (ويخرج)

سفير بريطانيا: هكذا نقضي على الورقة الوحيدة للفرنسيين في بداية هذا الانقلاب. (يضحكان)

مدحت: (يقوم ويقول للسفير) يشرفني أن تشاركني في شرب كأس فوزنا في ثورتنا المباركة، تفضلوا. (يخرجان)

(ويدخل كل من الصدر الأعظم رشدي باشا وضياء باشا، ويقول رشدي لمدحت)

رشدي: لا تتأخروا كثيرًا يا باشا، يجب أن نضبط الأمور.

مدحت: دقائق وسأعود. (ويخرج)

ضياء: لماذا ما أخبرنا مدحت باشا بمقتل سر العسكر؟ أخاف أن يصيبه مكروه أيضًا.

رشدي: (بيده جريدة يقرؤها) لقد كتب السيد جمال الدين الأفغاني تعليقًا على كتابكم يا ضياء باشا.

ضياء: أي كتاب؟

رشدي: ألم تكتب حول الفتوحات الكبيرة التي قام بها العثمانيون وبأنهم فتحوا قلب أوروبا وحكموا فيها زمانًا دون أن يتركوا فيها آثارًا، وقارنته بالبلدان المفتوحة من قبل المسلمين العرب، وتساءلت في كتابك: لماذا ما تركنا أي أثر في الأراضي المفتوحة من قبلنا، في حين أن العرب بقيت آثارهم حتى بعد زوال سلطانهم عليها؟

ضياء: نعم، ولكن ما هو جواب السيد لسؤالي؟

رشدي: ذكر بعض شطحاته.

ضياء: اقرأ لي بعضها.

(يدخل كل من نامق كمال ومدحت باشا، ويقول ضياء)

ضياء: يا سادة، لا بأس بسماع بعض الشطحات بين الحين والآخر، فاسمعوا.

رشدي: يقول السيد: إن سلطان العروبة أقوى من العقيدة الروحية، وأن المسلم والمسيحي واليهودي في مصر والشام والعراق يحافظ كل منهم قبل كل شيء على نسبته العربية فيقول: أنا عربي. وأنه لا جامع لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم. ثم يتناقض في أفكاره ويقول: لكل دين لسان، وإن لسان الإسلام العربية. ويذكر في معرض رده عليكم بأن السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم أرادا تعريب الدولة العثمانية.

مدحت: صحيح أن في هذا الكلام بعضًا من التناقض، ولكنه كلام جميل ويصدقه التاريخ والأديان والواقع.

نامق: إنني أذكر ما يشابه هذا الكلام من أقوال السيد، حيث يقول: فكم رأينا من دول اغتصب ملكها الغير، فحافظ على لسانها محكومةً وترقبت الفرص ونهضت بعد دهر فردت ملكها. ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم ونسوا مجدهم.

ضياء: لقد عرفت قصد الرجل، فهو يريد أن نضيع مجدنا وملكنا ونفقد مكانتنا. وظاهر كلامه أنه يريد أن يكون بديلنا من العرب، والله أعلم بباطنه.

مدحت: أنت لا تحكم على الرجل من خلال مصالحك، وانظر إلى مصر وقارن بين سنة 1870 والآن، كيف أيقظهم! واسمع إلى كلامه حيث قال للمصريين: "ربيتم بحجر الاستبداد وتوالت عليكم القرون منذ زمن ملوك الرعاة حتى اليوم وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين وتعنون لوطأة الغزاة الطامعين، فلو كان في عروقكم دم فيه ذرة حياة، وفي رؤوسكم أعصاب تثير النخوة، لما رضيتم بهذا الذل والمسكنة ولما صبرتم على تناوبكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ثم العرب والأكراد والمماليك ثم الفرنسيين. وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت! هبوا من غفلتكم وشقوا صدور المستبدين كما تشقون أراضيكم، وعيشوا كباقي الأمم أحرارًا سعداء أو موتوا مأجورين شهداء." وها هي توعيته أثمرت وأصبحت القاهرة تنافس إسطنبول في المجد.

ضياء: لا تبالغ يا باشا، أولاً أنه سوى في خطابه بين الفرعون والصحابة الفاتحين ونابليون، وهذا له ترتبات عقدية أتركها لأصحاب الشأن. ومن المخاطَب بهذا الخطاب؟ وكأنه يخاطب بني إسرائيل المحرومين من كل العصور، لا المصريين الذين حكموا لقرون.

مدحت: أما تسويته لفرعون بالسلاطين، فإنك لو قرأت القرآن يا ضياء باشا ستلاحظ أن بعض السلاطين من المسلمين وإلى الآن هم أكثر استبدادًا من فرعون الذي كان على يقين بأن موسى يقلب سلطانه، ولكن ها هو يجمع السحرة ويقابل الحجة بالحجة. ولما انتصر موسى، أي المعارضة السياسية له، عاقب سحرته وحاشيته على تقصيرهم في الأداء، لكنه ما قتل موسى وما نفاه وما سجنه، وحتى ما منعه من دعوته.

رشدي: ولكن في الأخير يستأنسك يا ضياء باشا ويقول: ولكن إن عدم ترك الآثار للترك وترك الآثار للعرب لا يُعد شرفًا بل أدعى للحزن لأنه أفصح من كل بلاغة عن تفريطهم.

ضياء: دعنا من شطحات الأفغاني ومن محاولته أن يجردنا من السلطة بحجج دينية، إلى تحدٍّ آخر. وهم يريدون نفس الغرض لكن بشكل آخر، فقد تم نشر منشور في لندن من قبل الزعيم المعارض جلادستون جاء فيه أن الأتراك أعداء الإنسانية ولا بد من إخراجهم بقوة السلاح من العالم المتحضر إلى خارج الحدود الأوروبية. وكذلك جرت مسيرة قادتها القساوسة وترددوا ما جاء في المنشور.

مدحت: هذا شيء طبيعي بالنسبة لدولة ليس لديها دستور ولا برلمان، مع أن حدودها لاصقة بالعالم المتحضر. إنني متحمس يا سادة لإلغاء كل الفروق بين اللغات والأديان. لماذا نمنع اليهود والأرمن والبلغار واليونانيين من حقوقهم التاريخية؟ ما الفرق بين اليهودية والمسيحية والإسلام؟ لماذا نفضل المسلم على غيره؟ وخاصة أنا من القائلين برأي جمال الدين الأفغاني بأن النبوة فن، كما بإمكانك أن تجتهد وتكون فيلسوفًا كأرسطو وسقراط، أو عالم اجتماع مثل ابن خلدون، أو مؤسس طقوس ودين مثل زرادشت وبوذا وكونفوشيوس، وبإمكانك أن تكون نبيًا أيضًا مثل أي من الأنبياء. تضع الأوصاف والأسماء لإلهك وللجنة التي تكافئ كل من يساعدك في الوصول إلى أهدافك، وتخدم لغتك وقومك من خلال هذا الدين، وتستغل الآخرين باسم الله. ألا ترون أن أشخاصًا مثل مارتن لوثر وكالفن وأبو حنيفة والشيخ الكيلاني ومولانا النقشبندي شرعوا من الطقوس والتشريعات بقدر ما شرعه أي نبي من الأنبياء الكبار؟ ولا ينقصهم من منصب النبوة إلا الاسم. وبل حتى تلميذه محمد عبده أشار إلى هذا بقوله: إنه أعطاني حياة أشارك بها محمدًا وإبراهيم، بينما أعطاني أبي حياة يشاركني فيها إخواني...

(يركض نامق كمال ويضع كفه على فم مدحت ويقول)

نامق: شش! إن هذا الكلام لا يُقال الآن، ولا يُصدق! خذ فلسفة الأفغاني لنفسك ولا تورطنا! تعرف أن السلطان المنتحر أبعد الأفغاني من هنا قبل سنتين بسبب هذه التهم.

(يُسمع أصوات من الخارج، ويدخل أحد الضباط ويلقي التحية ويقول)

الضابط: إن الناس اجتمعوا ويطلبون خروج السلطان الجديد عليهم لأداء مراسيم السلاملك وأداء الجمعة.

مدحت: قل لهم سنلبي طلبهم في أقرب وقت ممكن. (الضابط يخرج) يا سادة، يجب أن نسرع في تنصيب الأمير عبد الحميد مكان السلطان مراد.

رشدي: ما رأيكم لو نزوره الآن لنعرف نواياه المستقبلية؟

ضياء: نعم الرأي هذا، هيا لنذهب.

(كلهم يخرجون)

يُسدل الستار

نهاية الفصل الأول

—

الفصل الثاني

بعنوان :(وريث العاصفة)

المكان: قصر طوب قابي – قاعة العرش السلطاني

الزمان: 1876/8/31م قبل الظهر.

أشخاص هذه الحلقة:

1. مدحت باشا

2. رشدي باشا

3. عبد الكريم باشا

4. نامق كمال باشا

5. ضابط البواب

6. ضابط البرقيات

7. شيخ الإسلام

8. السلطان عبد الحميد

9. محمود جلال الدين باشا

10. غالب باشا

11. صفوت باشا

12. رديف باشا

13. الدكتور مورفي

14. سعيد باشا

15. تحسين باشا

16. برستو هانم

17. نور أفسون هانم

18. المشير العام أحمد مختار باشا

19. المشير درويش باشا

20. المشير إسماعيل باشا

21. المشير عبد الكريم باشا

22. المشير سليمان باشا

23. المشير عثمان باشا

(يرفع الستار: كل شيء فاخر ومزين بما يليق قاعة جلوس السلطان مع وزرائه)

(مدحت باشا جالس يقرأ جريدة بريطانية، يدخل نامق كمال باشا والصدر الأعظم رشدي باشا وضياء باشا وسر عسكر عبد الكريم باشا وبأيديهم جرائد روسية وهم يتصفحونها)

رشدي: حسب تقارير الصحف الروسية فإن سلطاننا الجديد مصاب بمرض السل لأن والدته ووالده ماتا بهذا المرض، وهذا يعني أن أمره لا يطول كثيراً.

(يقول هذا ويشير بالقلم إلى التقويم ويقول) هذا اليوم الثالث والتسعون، وهذا العرش (يشير إلى العرش السلطاني) بلا سلطان.

مدحت: وهذه جرائد بريطانية كتبت بأنه شخص نحيف ومصاب بمرض العظام، وإذا ارتقى العرش لن يلبث إلا مدة تكفي لكي يؤسس المشروطية التي سوف يضعها – (أح-) مدحت باشا (متكبراً) – بتأييد قوي من بريطانيا العظمى.

رشدي: وهذا سر كثرة تردد طبيبه الشخصي إليه! ولكن المهم هو كيفية رأيه في المشروطية؟

مدحت: تحدثت معه حول هذا وفرضت عليه شروطاً أساسية، وهي: (يقوم من مكانه ويعد الشروط بنشوة منتصر)

أولاً: إعلان المشروطية بدون تأخير.

ثانياً: التشاور يكون مع أعضاء الحكومة الرسميين فقط.

ثالثاً: تعيين بعض زملاء الانقلاب في مناصب مهمة بحيث نستطيع أن نعد أنفاسه إذا شئنا. وإذا رفض أيّاً من هذه الشروط فالحل جاهز، فقد خلعنا سلطانين وهو ليس بأقوى منهما، ومحمد رشاد جاهز لملء الفراغ.

نامق: الأعجب من كل شيء أن له هواية بعيدة كل البعد عن السياسة وإدارة الدولة، النجارة. (يضحكون)

قبل أيام زرته في قصره وأهداني هذه القطعة الخشبية (ويرفعها للحاضرين) (ميدالية منحوتة عبارة عن منارة في الوسط، وفي يمينها قلم وفي يسارها سيف، وفوق المنارة صورة الهلال).

(يدخل أحد الضباط ويلقي التحية لسر عسكر ويعطيه برقية عاجلة)

سر العسكر: (يقرأ البرقية مبتسماً ويقول) يبدو أن قدوم السلطان الجديد خير، سجل جيشنا بقيادة أيوب باشا انتصارات كبيرة، واستطاع علي صائب باشا أن يعبر نهر مورافا، ما يعني أن الطريق مفتوح أمامه إلى بلغراد.

مدحت: أرسل إليهم برقية بمواصلة القتال بكل شدة وعنف.

سر العسكر: ودون علم السلطان؟

مدحت: طبعاً. (ويضحكون)

(يأتي السلطان عبد الحميد ومعه شيخ الإسلام وصهره محمود جلال الدين ووزير المالية غالب باشا ووزير الخارجية صفوت باشا والفريق رديف باشا، فيهب الجميع لاستقباله، ويقف عبد الحميد بجانب العرش دون أن يرتقيه، وكان الجميع واقفين ومعقودة أيديهم أمامهم، وهذه كانت عادة سلاطين آل عثمان في لقائهم واجتماعهم بوزرائهم. وكان عند شيخ الإسلام مذكرتين ملفوفتين، فتح الأولى وقرأها بصوت عالٍ)

بسم الله الرحمن الرحيم

نص الفتوى: صورة استفتاء الوزراء في وجوب خلع السلطان مراد خان الخامس:

إذا جن إمام المسلمين جنوناً مطبقاً ففات المقصود من الإمامة، فهل يصح حل الإمامة من عهدته؟ الجواب: يصح، والله أعلم. كتبه الفقير حسن خير الله، عفى عنه.

(وبعد ذلك يفتح المذكرة الثانية ويقرأها)

بسم الله الرحمن الرحيم

نص الفتوى بتنصيب والبيعة للسلطان الرابع والثلاثين من سلاطين آل عثمان، والخليفة التاسع والتسعين من خلفاء المسلمين، هو مولانا السلطان عبد الحميد خان الثاني: لقد نصب اليوم السلطان عبد الحميد بن السلطان عبد المجيد خان على تخت الخلافة العثمانية، وعلى الجميع البيعة والسمع والطاعة.

(وبعد هذا يعطي شيخ الإسلام السيف إلى السلطان ويأخذه منه بيديه)

(بعد ذلك يرتقي عبد الحميد العرش ويبايعه الحاضرون – صيغة المبايعة –)

(قبل أن يجلس السلطان على العرش يقول)

السلطان: أيها السادة الكرام، قبل أن أجلس على هذا العرش، تعرفون – وكما جاء في نص مذكرة خلع عمي السلطان عبد العزيز رحمه الله – (يتغير لون مدحت ورشدي وعلامة الغضب والخوف تقرأ في وجههما ويظنان أن عبد الحميد يريد أن يفتح ملفاً للتحقيق في قتله)

(يكمل عبد الحميد كلامه) وجاء من ضمن التهم الموجهة إلى المرحوم بأنه (ما برح ينفق الأموال الميرية في مصارفه النفسانية في درجة لا طاقة للملك والملة على تحملها). وعليه قررت أن أقلص مصارف القصر إلى الحد الأدنى، هذا أولاً. وثانياً، وكما هو معلوم لدى جنابكم، إن من عادة أجدادي سلاطين آل عثمان أن يجتمع السلطان بالصدر الأعظم والسادة الوزراء وهم واقفون وأيديهم معقودة أمامهم، وإن السلاطين كانوا يأكلون الطعام وحدهم، وأنا من حقي أن أتنازل عن هذا، وأجلس ووزرائي بجنبي، وأجلس مع أفراد عائلتي على مائدة الطعام كأي رب أسرة آخر. والآن يمكنكم الجلوس.

(ويجلس الجميع لأول مرة في مجلس السلطان)

(ثم يقول السلطان)

السلطان: وزيري سمير المعالي محمد رشدي باشا، إنه لما اعتزل أخي الأكرم حضرة السلطان مراد الخامس عن مشاغل السلطنة والخلافة وفرغ منها، جلسنا بموجب القانون العثماني على تخت أجدادنا العظام. وقد وجهنا لعهدتكم مسند الصدارة العظمى ورئاسة مجلس الوكلاء إبقاءً وتجديداً، بناءً على ما لذاتكم من الروية المسلم بها والحمية المجربة، وما لكم من الوقوف والاطلاع على مهام أمور الدولة. وكذلك أقررنا جميع الوكلاء في مناصبهم.

(ويبتسم الجميع)

(ويستمر عبد الحميد في كلامه)

السلطان: وأسباب مشاكل مملكتنا تجتمع في نقطة واحدة، وهي عدم جريان القوانين والنظامات المؤسسة على الأحكام الجليلة الشرعية، التي هي المسند الأساسي في دولتنا، على حقها وتمامها، واتباع كل فرد أهواء نفسه، وتعذر وصول المحاكم إلى الدرجة المتكفلة بتأمين حقوق الناس، وتأخر استفادة مملكتنا من وسائل العمران كالحرف والصنائع والتجارة والزراعة.

وعليه يلزم أن يُرَتَّب مجلس عمومي تكون أفعاله وآثاره مستوجبة لثقة العموم واعتمادهم، ويكون موافقاً لقابلية مملكتنا وأخلاق أهلها، كافلاً بالتمام تأمين إجراء القوانين حرفاً فحرف، سواءً أكانت القوانين الموجودة أو التي تتأسس من الآن فصاعداً، توفيقاً لأحكام الشرع الشريف ولما هو بالحقيقة ضروري لمملكتنا وملتنا.

مسألة توديع المأموريات إلى غير أهلها وتبدلاتهم المتوالية من غير سبب مشروع فيه مضرة، فينبغي أن يتعين من الآن فصاعداً تتخذ قاعدة ثابتة بأن لا يُعزل أحد أو يُبدل من مأموريته بلا موجب، وأن تكون كافة الوكلاء ومأموري الدولة كباراً وصغاراً مسؤولين عن الوظائف الموكولة إليهم كل بحسب درجته.

وكما هو معلوم لدى الخافقين أن ترقيات ملل أوروبا المادية والمعنوية إنما هي حاصلة بقوة الفنون والمعارف، فيجب الإسراع بتعميم المعارف.

وسياسياً نؤيد مجدداً كافة أحكام المعاهدات المنعقدة مع الدول المتحابة، ونؤثر رعايتها على الوجه الحسن، فينبغي المثابرة بالاجتهاد على ازدياد روابط الحب والمسالمة المتبادلين بيننا وبين الدول، ونسأل حضرة الرب المتعال أن يقرن مساعينا جميعاً بتوفيقاته.

وقبل كل شيء أريد من وزير المالية أن يخبرني عن مجمل الديون المستحقة على الدولة للدول الأجنبية، التي تعد أحد أهم أسباب تدخلات الأجانب في شؤوننا؟

وزير المالية: بلغ ديون الدولة العثمانية إلى (138,969,630) ليرة ذهبية.

(يكتبه السلطان ويقول)

السلطان: إن حق الناس أمره عظيم في ديننا، وأداؤها مقدم على حقوق الباري سبحانه، خاصة إذا كانت هذه الحقوق سببت مخاطر لمقام الخلافة الشريفة.

رشدي: كما هو معلوم عند مولاي السلطان بأن مسألة المشروطية من أهم قضايا الساعة، فأرجو سماع رأيكم حولها.

السلطان: إن إمبراطور النمسا عندما يذهب إلى المجر يلبس قبعة المجر ويكون مثلهم، وإذا رجع إلى النمسا يكون نمساوياً. وكما أن قائد السفينة يقود سفينته حسب الحاجة ومقتضيات الحال، فإنني أختار الإدارة المشروطية لأن فيها صلاح البلد وسلامته. وبعد رضاء الله يأتي رضاء الخلق، وإذا لم يرضَ الشعب فهذا يعني أن المشروطية معدومة. والذين يفهمون التاريخ العثماني يعرفون أن هذه البلاد لم تقم مستندةً على القوة، ولكن على العدل، فلو كانت الجيوش العثمانية حملت معها الظلم إلى البلاد المفتوحة لتفتت هذه الإمبراطورية إلى أجزاء كالبذور ولم تكن تقوم لها قائمة، ذلك لأن العدل هو أساس المشروعية، والمشروعية مسند الحاكمية، والقوة مؤيدة المشروعية، والحاكمية مضطرة للاعتماد على العدل، إذ بدون العدل سينهار الحكم.

رشدي: وهناك عشرون مشروعاً حول الدستور، وأعتقد بأنه شفاء أمراض الإمبراطورية لا يتم إلا عن هذا الطريق، وإعلانه سوف يكون جواباً حاسماً للدول الأجنبية التي تطالب بالإلحاح بإصلاح الأوضاع في الإمبراطورية العثمانية.

مدحت: إن مقصدنا من إعلان القانون الأساسي أن ننهي استبداد السراي، ويجب على ذاتكم الشاهانية أن تعلم واجباتكم. وأقترح المشير مدحت باشا في مشروعه بتكوين مجلس نيابي ينتخب ثلثاه من قبل الشعب ويعين ثلثه من قبل الحكومة. وكما يريد المشير مدحت باشا بوجود ضمان وإشراك للدول الأوروبية في مسألة الدستور، لكي يكون ضامناً ضد ظلم السراي. وأرسلنا حضرة المستشار أوديان أفندي إلى بريطانيا العظمى ليبلغهم رغبة المعالي مدحت باشا. ويجب أن يكون معلوماً لديكم بأن مجرد

تطبيق النظام البرلماني بالشكل المطبق في البلدان الأوروبية فإن الدولة العثمانية تتخلص من خطر الانهيار والتفكك، وتتوقف الدول الأوروبية من التدخل في شؤونها الداخلية حالما تعلن المشروطية، وستتآلف العناصر والأعراق العثمانية المتآلفة من الأعراق والقوميات والأديان المختلفة على أساس أنهم جميعاً عثمانيون.

السلطان: أيها السادة، لست أقل منكم حماسةً لإعلان الدستور، فإن والدي المحترم السلطان عبد المجيد هو الذي أقنعني بهذا الرأي. ولكني أختلف مع مدحت باشا في أن يكون المجلس والسراي متضادين، بل يجب أن يكونا متعاونين. وما دامت الأمة تريد تجربة مسئوليتها عن مقدراتها وحكم نفسها، فليكن ما تريده الأمة. وفي شأن الضمان الخارجي للدستور، أنا أرى بأن وفد مدحت باشا سيرجع خائباً، لأن كل الدنيا يعرف بأن هذه مسألة داخلية.

مدحت: لا شيء مستحيل في عالم السياسة. وأستطيع بأن أقول إنكم تحاولون هدم ما نحاول تعميره من أسس الدولة التي تخلصت حديثاً من الانحدار إلى هاوية الانقراض. والمشير مدحت باشا هم الذين قاموا برد فعلي لمزاعم وزير خارجية النمسا عندما قال إن الجمع بين الهلال والصليب مستحيل، فقام معاليه بتشكيل طابور للجيش من المسيحيين ووضع الصليب بجانب الهلال والنجم في رايتهم، وأرسلوا هذا الطابور إلى دار السعادة لكي يشاهد من قبل الجميع.

السلطان: على العموم لا بد أن أقدم للمريض ما طلبه من الدواء، ولهذا صدرت إرادة سنية بتشكيل لجنة متعددة الأعراق والأديان برئاسة مدحت باشا تضم ثمانية

وعشرين عضواً، وتتألف من عشرة علماء وستة عشر مدنياً وعسكريين اثنين، لدراسة الدستور.

رشدي: ونسيت أن أزف إلى مولانا بشرى سارة في ميادين القتال، فإن قواتنا عبرت نهر مورافا ويحاول أن يستولي على بلغراد.

السلطان: (يتغير لونه ويقول له) عليك أن ترسل برقية حالاً بإيقاف القتال، ليَقِف كل قائد في المكان الذي وصل إليه ولا يتقدم خطوة واحدة.

مدحت: سيدي، إذا أعلنا القانون الأساسي بدون تأخير فإن الدول الأوروبية ستؤيد ربط إمارة الصرب بدولتنا بروابط أقوى عندما تدخل جيوشنا بلغراد. إن جميع أنظار العالم الآن مصوبة إلينا، إذ إن أهم ما يشغل جميع العواصم في العالم هو مسألة إعلان دستورنا، وعندما نعلن هذا الدستور فلن تبقى هناك أي مشكلة تستعصي على الحل في دولتنا، لأن الدول الأوروبية مهتمة فعلاً بالإصلاحات في الدولة العثمانية ولا تتدخل إلا لغرض هذه الإصلاحات، وذلك حباً في إسعاد شعوب الدولة العثمانية. وبما أن الدستور يحقق هذه الإصلاحات، فإن تدخل الدول الأوروبية سيقف حالما يعلن الدستور.

(يتكلم مدحت بثقة وينظر إليه السلطان بتعجب)

السلطان: إني أعرف بأننا سنضطر أن نوقف هذا التقدم بإنذار من إحدى الدول الأوروبية، ولذا من الأفضل أن نتوقف بإرادتنا ورغبتنا، وبذلك نكون في موقف الغالب.

(يدخل سعيد باشا وبيده برقية يعطيها إلى سر عسكر)

مدحت: إنكم بهذا ستفوتون فرصة ذهبية، وإن بريطانيا بجانبنا، والنمسا لا يهتم الأمر كثيراً، وروسيا لا تستطيع أن تفعل شيئاً وحدها.

سر العسكر: أنت مخطئ تماماً، هذه برقية الدول الأوروبية، ومن ضمنهم بريطانيا تطالب بوقف الحرب في غضون 48 ساعة، وهدنة لستة أسابيع يجتمع خلالها الدول الكبرى في إسطنبول لحل القضية.

(يتغير وجه مدحت ولا يقول شيئاً)

السلطان: استعدوا للمؤتمر، ويكون ممثل الدولة وزير الخارجية صفوت باشا.

(يستأذن مدحت بفتور ليخرج، ويخرج معه رشدي، ينظر السلطان إلى تصرف رشدي بغرابة ويقول)

السلطان: يبدو أن الصدر الأعظم متعلق جداً بمدحت باشا، وعليه أفكر أن أضع من هو فعلاً في الصدارة كصدر أعظم.

أحمد: يعني قصدكم مدحت باشا؟ هذه فكرة سديدة يا مولاي، وخاصة هو مقبول لدى بريطانيا ومن قبل الشعب أيضاً.

السلطان: أكتب لمدحت باشا صاحب العصا السحرية بأنه من اليوم هو الصدر الأعظم، وليقوم بتشكيل أول برلمان للدولة العثمانية، كما هو رئيس تلك اللجنة التي تكتب الدستور لأول مرة في تاريخ دولتنا.

ولابد للبرلمان، يا سادة الوزراء، أن يكون نظاماً دستورياً شورورياً يحفظ لجميع رعايا الدولة حقوقهم، ويكون بمثابة رابطة بين جميع الشعوب العثمانية، فيكون الجميع سواءً في الحقوق والواجبات، وتبطل بذلك المنافسات والضغائن الجنسية العرقية والدينية لاشتراك الجميع في نظر شؤون الدولة، ووضع القوانين الملائمة لحالة الأهالي ودرجة ارتقائهم في سلم المدنية والعمران، ويتنبه كل منهم إلى الدسائس الأجنبية ولفظ الخائنين من بينهم. ولهذه الدواعي أصدرت إرادة سنية بموجب قرار سائر الوكلاء النظار في 5 شوال سنة 1293 / 24 أكتوبر سنة 1876 بتنظيم مجلس عمومي (برلمان) يكون من مجلسين: أحدهما ينتخب الأهالي أعضاءه ويسمى مجلس المبعوثان، والآخر يعين أعضاؤه من طرف الدولة ويسمى مجلس الأعيان.

(يقول البواب بصوت عالٍ) مولاي، إن الدكتور مورفي الطبيب الخاص لمولانا يستأذن.

(وخرج الجميع ليعطوا المجال للسلطان وطبيبه الحرية التامة)

(جاء الدكتور وقبل يد السلطان وأجلسه السلطان بجنبه)

السلطان: لا أحد يعرف مهامك، كل ما يعرفونه هو أنك طبيبي الخاص، وسر كثرة ترددك هو أني مصاب بمرض خطير. المهم أنك تعرف أن كثيراً من سلاطين آل عثمان، ومنهم عمي، قُتلوا بسبب ثقتهم برجالهم وسطحيتهم وبساطتهم حتى مع خصومهم. وإن بناء جهاز استخبارات لدولة مترامية الأطراف مثل دولتنا هو من أولوياتي. أريد أن أعلم من هو عدوي ومن هو صديقي، وأريد أن أعلم ماذا يجري في سفارات الدول الأوروبية، وأن تراقب تحركات رجال الدولة.

الدكتور: وماذا عن التحقيق في حادثة عمكم المغدور، إن كل الخطوط الأولية تشير إلى جريمة القتل؟

السلطان: إني محاط بقتلة عمي، وهم يحاولون التلاعب بي أيضاً. يريدون دستوراً لتقليص سلطة السلطان، ويريدون إفساداً باسم الإصلاح، ويريدون حرباً لتدمير ما بناه عمي المرحوم، ولأبقى صفر اليدين. ولهذا أريدك أن تساعدني في هذه المشكلة.

الدكتور: اسمحوا لي بأن أقول يا مولاي إن هناك خطأً كبيراً، ألا وهو أن طيلة عمر الدولة العلية لم يشارك ولي العهد هموم الدولة وعرف خفاياها إلا في اليوم الذي مات السلطان أو عُزل، وهذا مهد الطريق للدسائس وسوء التفاهم والمؤامرات والنميمة. وأرجو أن تتغلبوا على هذا الخلل.

واطمئنوا وكونوا على ثقة بشأن ما طلبتم مني يا مولاي، ولا تقلقوا على صحتكم فإنكم بخير الحمد لله. أنا أستأذن.

السلطان: رافقتك السلامة يا ابني.

(يخرج الدكتور)

(يدخل الوزراء، وفي مقدمتهم مدحت، يجلس الوزراء ما عدا مدحت، يتجول باستمرار وفي وجهه علامة البشاشة والتوتر، وينتظر نتيجة المؤتمر على أحر من الجمر. ينظر إليه السلطان والحاضرون بتعجب وهو يتجول ويحرك يديه ويقول)

مدحت: أراد المعالي مدحت باشا أن يقدم للعالم المتحضر مفاجأة، إذ أثناء عقد المؤتمر ووجود كل هذه الوفود في البلاد، بعد لحظات ترتج نوافذ قاعة المؤتمر بأصوات المدافع.. (ويضحك مدحت وكأنه لا يوجد أحد غيره في القاعة، وفي هذا الأثناء تسمع أصوات المدافع، ومدحت باشا يفرح أكثر ويقول) هذا هو يا سادتي، فترة صدارة المعالي مدحت باشا. الآن يقف وزير خارجيتنا صفوت باشا مبتسماً ومخاطباً الوفود قائلاً لهم: أيها السادة، إن أصوات المدافع التي تسمعونها الآن تزف بشرى إعلان الدستور في الدولة العثمانية، وسيجتمع قريباً مجلس المبعوثان ومجلس الأعيان، وبذلك لن تبقى إدارة الدولة بدون رقابة من الأمة، وسنطبق جميع الإصلاحات لجميع الرعايا العثمانيين.

(وكأنه يقول لهم) أيها السادة، بما أن الدستور قد أُعلن، إذن فلا حاجة لمؤتمركم هذا، ولا حاجة لوضع الشروط من قبلكم لإصلاح أحوال الرعايا العثمانيين، لأن الدستور المعلن سيكفل جميع الإصلاحات التي تريدونها في أرجاء الإمبراطورية العثمانية.

(بعد هذه الخطبة الحماسية يستمر مدحت في التجوال أمام السلطان وخلفه، ويقرأ الغضب والاستياء في وجه السلطان)

(يقف مدحت برهة ويقول)

مدحت: وتكملةً للسيناريو، أصدرت الأوامر بتنزل الطلبة إلى الشوارع يهتفون للحرب ولإعادة بلغراد، أمام قصر المؤتمر، حتى يدرك الوفد أن الشعب يريد الحرب ونحن الذين نكبح جماحه.

(وهنا يسمع أصواتاً في الخارج تقول) الحرب! الحرب! الحرب! الحرب!

(ويقول البواب بصوت عالٍ) لقد جاء صفوت باشا.

(ويهرع إليه مدحت كالمجنون ولا يعطيه فرصة السلام على السلطان ويسأله بلهفة)

مدحت: ماذا قالوا؟ ماذا قالوا؟

صفوت باشا: (يجيبه بانكسار وبرود) ماذا تتوقع أن يقولوا!؟ قالوا إن هذا لعبة أطفال!

(يتغير وجه مدحت باشا، ويبتسم السلطان والحاضرون)

(ويقول صفوت بأسى)

صفوت باشا: كنت أتوقع – مثلما توقعتم أنتم يا معالي الباشا – توقعت أنهم حالما يسمعون خبر إعلان الدستور فإنهم سيجمعون أوراقهم ويحزمون حقائبهم ويعودون

من حيث أتوا! إذ لم يبق هناك أي مسوغ أو مبرر لبقائهم؟! فهم قد جاؤوا للبحث عن الطرق الكفيلة بإصلاح أوضاع الدولة العثمانية؟! وها هو الدستور يُعلن! وهو كفيل بهذه الإصلاحات، إذن لمَ الاستمرار في المؤتمر؟! ولكن ما حدث أنهم تطلعوا إلى وجهي برهة من الوقت، ثم انكبوا على أوراقهم وعادوا إلى مناقشاتهم وكأن شيئاً لم يحدث!!! وها هي شروط الوفود علينا في المؤتمر الذي استغرق 29 يوماً. (يفتح مذكرة في يده ويقرؤها للحاضرين)

· تراجع القوات العثمانية وإعادة الأوضاع في صربيا إلى ما قبل الحرب.

(مدحت يصرخ ويقول) هذه إهانة!

· إعطاء بعض الأراضي من الهرسك وألبانيا إلى الجبل الأسود.

· أن يكون ولاة البوسنة والهرسك وبلغاريا من المسيحيين.

· تشكيل ميليشيات مسلحة من المسيحيين والمسلمين لحفظ الأمن في هذه البلدان بدلاً من الجيش العثماني.

· صرف واردات تلك البلدان لأنفسهم.

· تعد اللغات المحلية رسمية بجانب اللغة التركية.

السلطان: أما لخص لكم ممثل بريطانيا موقف كل الدول عند مجيئه وقال: صادفت بين الدول من لا يحب روسيا أو لا يثق بها، ولكني لم أصادف من يحمل نية المساعدة للحكومة العثمانية أو يتجاسر على إعلان أي حب أو احترام لها. فلا نخدع أنفسنا إذن بصداقتهم المزيفة. فهذه الشروط تعني أنهم يريدون أن يدفعونا للحرب. ولعلهم وجدوا بيننا من هو متحمس للحرب. ولكن أنا أنصحكم أن لا تدخلوا الحرب، أي حرب سواء

كانت طويلة أم قصيرة هي أكبر آفة للأمم، لأن حتى الحروب التي تنتهي بالنصر ترهق الأمة مثلها في ذلك مثل الحروب التي تنتهي بالهزيمة. وأمور مثل الرفعة والمجد تظهر آثارها الجميلة على البلاد العامرة الأطراف الآمن يومها وغدها، أما الجائعون العراة في الأراضي الخربة ويدعون الرفعة والمجد! فلن يكون هناك أمر مضحك ومفجع كأمرهم. ويجب أن تعرفوا أن ما تقولونه من كون الدولة صاحب الدستور والبرلمان، لا يصح أن تنفردوا أنتم وتصدرون قرار الحرب بين هذه الجدران ولا تعودوا إلى الأمة، وخاصة أن ما يقارب عشرين بالمئة من المواطنين مسيحيون...

مدحت: (يقاطعه) هذا ما أردت أن أخبرك به يا مولاي. (ويخرج مذكرة من محفظته ويعطيها لنامق كمال باشا ليقرأها)

(بدأ نامق بقراءتها)

نامق كمال: بعد أن قال أعيان المسلمون رأيهم برفض أي شروط فيها إهانة لدولتنا العلية، طلب مدحت باشا موقف غير المسلمين. قال سافا أفندي بأن المسيحيين والمسلمين أبناء وطن واحد، وأن أي شروط تشكل انتهاكاً لاستقلال الدولة مرفوضة، ولهذا فإننا مستعدون للتضحية لآخر قطرة من دمائنا، وليحيا العثمانيون. ووافق هذا الرأي كل من البطريرك الأرمني والرومي. وفي الختام طلب مدحت باشا منهم: من يقبل بشروط المؤتمر فليقف. وكلهم كانوا جالسين، وانتظر مدحت باشا لدقائق، ولكن قال أحد الممثلين: لو انتظرت قرناً كاملاً فلن يقوم أحد.

السلطان: ولكن يا أيها الوزراء، هذا أقوالهم، وتكون أفعالهم بعكس هذه الأقوال تماماً. وإني أرى بأن هذه المعركة ستكلفنا كثيراً، وأن الشروط ليست غريبة عندنا، فها

هي لبنان حكامها مسيحيون منذ سنين. وإن مدحت باشا هو الذي كان يشجعهم على أن يُدرَس في ولاية تونة اللغة البلغارية بدلاً من التركية، وهو يشكل طابوراً من المسيحيين ويضع في علمهم الصليب والهلال. فليكن هذا الطابور ميليشا لضبط الأمن. إني أتحير من حماسكم هذا، وأشم رائحة المؤامرة على الدولة.

مدحت: هذه خلاصة رأي شعبك ووزرائك، إذا كنت تثق بهم. في مثل هذه الظروف لا تكون العبرة بالقوة العسكرية ولا بالاستعدادات، فكما جئنا إلى الأناضول ونحن أربعمائة فارس، فإننا مستعدون أن نحارب إلى أن يصل عددنا إلى أربعمائة أيضاً.

سعيد باشا: (كان على رأي السلطان وقال) فإن هذا الجواب يفتقر إلى الحد الأدنى من الشعور بالمسؤولية، وإنكم بهذه الحماقة سوف تضيعون الروملي بأكمله.

مدحت: إن الذي يعارض هذه الحرب هو إما متقاعس جبان وإما خائن لهذه الدولة. ألا تسمعون صوت الجماهير في الشوارع، كلهم ينادون بالحرب؟! إذن فلنقول معهم: الحرب! الحرب!

(كل الوزراء ما عدا السلطان وسعيد باشا يقولون بصوت واحد) الحرب! الحرب! الحرب! الحرب!

(بهذا الهتاف يخرج مدحت وجماعته من القاعة، ويبقى السلطان وسعيد باشا)

السلطان: إنكم تعلنون الحرب علي لا على أعدائي. ولا يستطيع حاكم قط أن يثق في رجل اشترك في عملية خلع، ولو كان الحاكم الجديد خصماً في حياة الحاكم القديم. ولم يعرف قط ثائر استطاع أن يحقق في البناء ما حققه في الهدم. يتصدر السفراء كراسيهم في قصورهم وكأنهم حكام البلاد، لا تتعدى صلاتهم بعض كبار الموظفين، يصدرون حكمهم على من لا يعرفون من البلاد سوى إسطنبول والجزر، ليست لديهم أية فكرة عن التركيب الداخلي لمجتمعنا، لا يعرفون ديننا ولا يفهمونه، مع ذلك فهم دائبون على جعلنا نقبل بنصائحهم. ومن حسن الحظ أنهم لا يتفقون فيما بينهم في الآراء، لكنهم متفقون في الهدف. غاية همهم من هذه الإصلاحات هي الحط من شأننا أمام أمتنا ورفع شأن النصارى وإكبارهم. إنها دسيسة كبرى اختلقوها وسموها إصلاحاً. خير لنا أن يتركونا وشأننا، فالإصلاحات التي يقترحونها ليست أمراً جديراً بالاهتمام، لو أننا تصرفنا بإرادتنا الخاصة لأصبحنا في تقدم مستمر وإن كان هذا التقدم بطيئاً. لا يجوز أن تقاس بلادنا بمفاهيم أوروبية، إن بنية المجتمع في بلادنا بنية دقيقة للغاية، كل حركاتنا وتصرفاتنا يجب أن تنطلق من هذا الأساس، وإلا فكيف يمكننا أن نجعل أقواماً بدائيين يعيشون بجرة قلم عيشة أوروبية محضة.

أخبرني عن المجلس يا سعيد باشا، ما هي نسبة المسيحيين؟

سعيد باشا: عدد أعضاء مجلس المبعوثان 115 عضواً، 69 منهم مسلم و46 عضواً منهم مسيحيون.

السلطان: يرون أن هذا من مقتضيات العدل، فإذا كان في قضاء ما كان عدد المسيحيين أكثر من نصف يجب أن يكون القائمقام مسيحياً. ولكن لم يخطر على بالهم حتى مجرد التفكير في أنه لا يوجد في البرلمان الإنجليزي ممثل واحد للهند ذلك

البلد الكبير البالغ عدد سكانه مائتان وخمسون مليون نسمة، أو ممثل الجزائر في البرلمان الفرنسي صاحب مبادئ الثورة الفرنسية! إنهم رأوا المشروطية في إنجلترا وهاموا بها، لكنهم لم يروا من الذي يستخدم المشروطية في إنجلترا؟! ومعلوم أن النصارى يلوذون بالدول الكبرى، فروسيا تحمي السلافيين، وإنجلترا تحمي الأرمن، وتتفق هاتان الدولتان في حماية الروم. وتسعى دولة النمسا والمجر إلى السير نحو الحكم الدستوري، لكن الأقوام التي يحكمها آل هابسبورغ لن ترضى بالبقاء تحت حكمهم وستبذل جهودها للانفصال. إنه سيحط من القوة العسكرية والسياسية لدولة النمسا والمجر. إن الاتراك الشباب قوم خياليون، فإعلان الدستور وتشكيل حكومة نيابية في بلادنا يعني حدوث الفوضى وانقسام الناس شيعاً وأحزاباً يقاتل بعضها بعضاً، ويؤدي بالدولة العثمانية إلى الخراب. وتعاطف الإنجليز مع الأتراك الشباب أمر يلفت انتباهنا، فهم يشجعون هؤلاء المفتونين على المطالبة بإعلان الدستور ويرفضونه لأنفسهم في الهند المستعمرة، مع أن أوضاع الهند تشبه أوضاع بلادنا حيث تعيش فيها عناصر غير متجانسة من المسلمين والنصارى والبوذيين والبراهمة، ومن الصعب جمعهم في مجلس واحد.

يا سعيد باشا، وكم عدد الصحف التركية الصادرة في إسطنبول؟

سعيد باشا: 17 جريدة يا مولاي.

السلطان: وباللغات الأخرى؟

سعيد باشا: تصدر تسع جرائد باليونانية، وتسع جرائد بالأرمينية، و3 جرائد بالبلغارية، و7 جرائد بالفرنسية، وجريدتان بالعبرية، وجريدتان بالإنجليزية، وجريدة واحدة بالألمانية، وكذلك بالعربية جريدة واحدة.

السلطان: أليس فيها إهمال للغات الشرقية الأصيلة مثل العربية والفارسية والكردية والأفغانية والأوردية والأقوام الأخرى، مع أن نسبة أي من هؤلاء الأقوام داخل الدولة العثمانية أكثر من الأرمن والبلغار واليونانيين؟! وإني ما سمعت بأن عدة صحف هندية وعربية وأفريقية وصينية تصدر في لندن وباريس؟!

إننا نقف بمفردنا، لنا أعداء وليس لنا صديق في العالم. يمكن للصليب أن يتحد في كل وقت، لكن الهلال دائماً بمفرده. كل ينتظر النفع من الدولة العثمانية ويظهر لنا الصداقة، ولكن في الوقت الذي لا يجد ما يأمله سرعان ما يعادينا. ولذلك لا بد أن نوجه بسلاح العدو إلى العدو، وليس هناك حل آخر.

سعيد باشا: يا مولاي، علم سفيركم في لندن بأن حسين عوني باشا أخذ مالاً كثيراً من بريطانيا. وكما تعرفون أن مدحت باشا مثل عوني اتبع سياسة مؤيدة للإنجليز.

السلطان: أحطت بجو تنعدم فيه الثقة. ليس عندي دليل على اتهام مدحت، ولكن واضح للعيان أن لبريطانيا يداً في عزل عمي، وصدر دولتي يعتمد على ظهر عدوها، فإذا كان مدحت باشا يعبر نفس الطريق فإن هذا يعني أن الدولة وقعت في الشرك.

(يدخل ضابط ويعطي برقية إلى سعيد باشا ويقرأها للسلطان)

سعيد باشا: مولاي، هذه برقية من الغازي أحمد مختار باشا، يقول إن لديه ثلاثمائة ألف جندي فقط ولا يستطيع مواجهة مئات الألوف من قوات العدو.

السلطان: (أمام هذا الخبر لم يتمالك نفسه وقام وصرخ) كيف؟! وقد قال كل من مدحت وسر عسكر بأن لدينا سبعمائة ألف جندي بكامل العتاد! ادعوهما لي فوراً.

(يخرج سعيد باشا ليدعوهما، وبعد لحظة يدخلان)

السلطان: أما قلتم لي إن لدينا سبعمائة ألف جندي؟! فما هذه البرقية إذن؟!

(نظر مدحت إلى البرقية وقال)

مدحت: هذا هو ما أخبرني به قائد الجيش، وإني شخصياً لا أعرف تفاصيل استعدادات الجيش.

السلطان: أعتقد أن من الجنون أن ندخل حرباً بأشخاص يحمل الواحد فيهم الذنب والمسؤولية على الآخر بسهولة. والشعب متعلق بك أكثر من قائد الجيش وينتظر منك المعجزات، فهل نستطيع أن نحرز نصراً بصدر أعظم يجهل عدد الجنود؟ أو إن هذا تأكيد على إحراز الهزيمة؟! قلت لي بأن الإنجليز والفرنسيين سيكونون مؤيدين لنا، وهذه رسالة الوزير الخارجية البريطانية يقول لي بصراحة: إنه في حال قبولنا الحرب ضد روسيا فإنهم لن يستطيعوا تقديم أي عون لنا.

وأنتم قررتم الحرب، وهذه استعداداتكم!

أنا تحيرت فيما تفعله. من أنت؟ وماذا تريد من مملكتي؟ من جانب تريد أن تدخل البلاد في أتون الحرب، ومن ناحية أخرى تريد أن تخلق المشاكل في السراي، بل إني لو تركت كل أعمالي وتفرغت لإصلاح أخطائك فإني لن أستطيع النجاح في هذا. هل عندك توضيح؟ بأي دافع تفعل كل هذا وكأنك دولة داخل دولة؟ بدافع الماسونية؟!

(مسح السلطان وجهه وسكت منتظراً التوضيح، ولم يقل مدحت باشا شيئاً)

(فقال السلطان) إني لم أعد أحتمل، ولذلك استندت إلى صلاحياتي في مادة 113 من القانون الأساسي، وعزلتك عن الصدارة العظمى. واذهب إلى أي بلد تريده من أوروبا.

مدحت: (قام من مكانه وقال) يعلم الله أنكم إن قمتم بطردي وإبعادي فإن البلد سينهار لا محالة، ويرحم الله هذه الأمة. (يذهب إلى المدخل ثم يلتفت نحو السلطان ويقول) إني أسف جداً لأنني عندما سأرجع إلى دار السعادة فإنني لن أرى سيدنا في هذا القصر، ولن أرى هذا الملك في مكانه، وعند ذاك ستدركون فداحة هذا الخطأ، ولكن سوف لن ينفع الندم إذ ذاك.

(ويخرج)

السلطان: يا سعيد باشا، اجمع لي الوزراء والقادة العسكريين فوراً، لنشكل مجلساً للحرب.

(يخرج سعيد لتنفيذ المهمة)

(يدخل مربية السلطان وزوجة أبيه برستو هانم ومعها زوجة السلطان نور أفسون هانم، يقوم السلطان ويقبل يدها ويقول)

السلطان: إني لم أشعر بأني فقدت والدتي ونشأت دون أم، كل ذلك كان بفضلكم، وإن موقعكم هو موقع الوالدة السلطانة وصلاحيتها. ولكن أرجوك رجاءً حاراً أن تتجنبي التدخل في شؤون الدولة وحماية فلان وفلان، ولا تكوني آلة في أيدي الطامعين.

برستو: (تنظر إلى السلطان وعيناها تذرفان الدمع من شدة الفرح وتقول) كم أحببت أن تكون سيدة والدتكم تيري موجكان حية لترى ابنها في هذا المقام. وهي ماتت في ريعان شبابها يا ابني، وكانت تحبك كثيراً، وفي أثناء مرضها تجلسك أمامها وتكتفي بالنظر إلى وجهك ولم تكن تتجاسر على تقبيلك.

السلطان: رحمها الله، ليس باستطاعة أحد أن يقف أمام قدر الله يا والدتي.

أفسون هانم: إننا لا نكاد نصدق أن في بداية سلطنتكم ندخل في حالة حرب. هل كان هذا ضرورياً؟

السلطان: لقد كتب لي مدحت باشا بأن دخولنا في الحرب مع روسيا أمر لازم، فأنا لم أرد الحرب، أرادها مجموعة من المغامرين وجروا الأمة أيضاً خلفهم. تسلمت عرشاً يحتاج إلى التنظيم من كل النواحي، لقد فسد التعليم وشُل الاقتصاد، والتجارة والزراعة والصناعة متردية فيها، وها هم بعد خلع سلطانين جعلوني أن أصرف النظر عن كل هذا وشغلوا بالي بالحرب.

برستو: هون عليك يا بني، لقد رأيت مصير عمك بنفسك، كن حذراً من مؤامراتهم.

السلطان: دعاؤكم يا والدتي، دعاؤكم.

(يدخل البواب ويقول) لقد جاء الوزراء يا سيدي.

(وعند سماع هذا تخرج برستو وأفسون، ويقول السلطان)

السلطان: ليتفضلوا.

(ويدخل الوزراء والقادة وهم كل من: أدهم باشا، وأحمد باشا ناظر الداخلية، وسر عسكر رديف باشا، ومحمود جلال الدين صهر السلطان، وتحسين باشا رئيس كتاب القصر، وصفوت باشا ناظر الخارجية، وسعيد باشا، والمشير العام أحمد مختار باشا، والمشير درويش باشا، والمشير إسماعيل باشا، والمشير عبد الكريم باشا، والمشير سليمان باشا، والمشير عثمان باشا. كلهم قبلوا يد السلطان وجلسوا – يجب على المخرج أن يوفر لباس الوزراء والقادة –)

السلطان: يا سادة الوزراء: لا يزال غلادستون العجوز يسير على خطا البابا في هذا السبيل. وهل تستحق الدولة العثمانية هذه الحملات، وقد آوت النصارى الهاربين من جحيم الصراع المذهبي في الغرب خلال القرون الوسطى؟! ألم تكن الدولة العثمانية هي الملجأ الوحيد لليهود الناجين من بطش محاكم التفتيش في إسبانيا؟! ألم تبذل جمعية الهلال الأحمر العثمانية كل جهد ممكن لإيجاد المأوى والملبس لمن طُرد من وطنه في سبيل معتقده؟! ولكن من يعرف هذه الحقائق التاريخية أو يعترف بها؟! فماذا

يقول غلادستون وهو رجل إنجلترا الأول عن المسألة الشرقية سوى التعريض بنا بأن بلادنا تحكم بالقوة والبطش لا بالقوانين والأعراف؟! ألم يثبت كذب ما ادعوه من وقوع مذابح للبلغار والأرمن؟! ألم يتبين أن أمر التخريب الذي زعموه في المدن بعد طرد سكانها هو محض افتراء، وأن النصارى يعيشون مع المسلمين حياة طبيعية وجنباً إلى جنب؟! سيرى المراقب المحايد أن المسلمين هم أرحم قلباً من نصارى بلاد الشرق. ها هم الإسبان وقد نشروا الرعب وفجروا حمامات الدم في كافة أنحاء إسبانيا، وها هم الفرنسيون وقد ارتكبوا الفظائع في الجزائر، وها هم الإنجليز وقد قضوا على ثورة الهند، وها هي بلجيكا في الكونغو، وروسيا وقد أعملت السيف في رقاب السيبيريين. أفلا يرون إلا العثمانيين وقد عيل صبرهم من جرائم الأرمن جزاءً على الإحسان الذي لَقُوه منا؟! أفي الأمر عجب إذا قام المسلمون للدفاع عن أنفسهم؟! لا تريد الدول الكبرى أن تفهم بأن الأرمن قوم عصاة حملوا السيوف والأسلحة للهجوم علينا، ولا تريد أن تعترف بأننا نحن أصحاب هذه الأرض وسادتها، بل تسعى في كل مرة إلى إزعاجنا بطلب الامتيازات وبالمزعجات الأخرى. حتى الحقوق التي اعترفت بها هذه الدول لإمارة موناكو لم تعترف بها للدولة العثمانية. إن الحملات الصليبية على الدولة العثمانية لا زالت مستمرة تحت أسماء وعناوين شتى.

ويجب عليكم أن تدركوا قبل كل شيء أن هذه المعركة فرضها علينا بريطانيا بالدرجة الأولى، وباستعمال بعض المتهورين ومنهم مدحت باشا، الذي يقول عن صحف الإنجليز بأنه من أنشط الرجال العظام الذين أنجبتهم تركيا وأكثرهم حباً للحرية. والغرض من هذه الحرب هو تدمير جهود عمي السلطان عبد العزيز خان، وإضعاف الدولة العثمانية إلى حد نهرول عند مواجهة أصغر مشكلة تواجهنا إلى الاستنجاد بهم. ولكن هذا لا يمنعنا أن نقف مكتوفي الأيدي، ولهذا بعد أن وكلت الصدارة إلى أدهم باشا، يجب أن يتم توزيع القادة والفرق على الجبهات الرئيسية ويأخذوا استعدادهم كي لا يأخذنا العدو على حين غرة.

رديف: كما تعلم يا مولانا، إن هناك جبهتين رئيسيتين: جبهة الأناضول وجبهة الروملي. وقيادة أجنحة الجبهة الأولى هو كل من المشير العام أحمد مختار باشا والمشير درويش باشا والمشير إسماعيل باشا. وأما قيادة جبهة الروملي فهم السادة: المشير عبد الكريم باشا، والمشير سليمان باشا، والمشير عثمان باشا.

السلطان: وأنا أعطي الصلاحية التامة لناظري المالية والعتاد أن يصرفوا كل ما هو متوفر. واعرفوا يا سادة أن عنصر التنسيق بين القادة أمر مهم جداً، فانسوا خلافاتكم واتجاهاتكم السياسية إلى ما بعد الحرب على الأقل.

هل من رأي أو توضيح آخر من القادة والسادة الوزراء؟

(بعد برهة سكوت، يقول محمود) يبدو أنه ليس هناك شيء يا مولانا.

السلطان: إذن توكلوا على الله، وأسمعوني أخباراً مفرحة. وفقكم الله.

(الوزراء يخرجون)

(ويسدل الستار)

—

الفصل الثالث :عنوان الفصل :لقاءات على حافة الهاوية

المكان: قصر يلدز – إسطنبول

الزمان: 29 ذي القعدة 1308هـ - 1891م (يوم صدور الفرمان الثالث بحق اليهود)

أشخاص الحلقة:

1. السلطان عبد الحميد
2. الأميرة عائشة
3. تحسين باشا
4. أحمد جلال الدين باشا
5. سفير العجم
6. أبو الهدى الصيادي
7. ضابط البواب
8. البروفيسور أرمينيوس فامبيري
9. اثنان من أساتذة الجامعة
10. اثنان من الصحفيين
11. الصدر الأعظم أدهم باشا
12. سعيد باشا
13. السير صموئيل مونتاغو (عضو البرلمان البريطاني)

(يرفع الستار)

(السلطان جالس وعنده الأميرة عائشة (5 سنوات) وهي تلعب مع قط السلطان "باموق". وهي تقول للقط)

الأميرة: تعال أيها القط الجميل ولا تكن عنيدًا، أنا صنعت لك كرسيًا سلطانيًا لتكون سلطان القطط.

السلطان: إنه يحب أن يكون بعيدًا عن الكراسي يا أميرتي. ولكن أرشديه ليكون مع القطط حارسًا ساهرًا للمزارع والمخازن، ويحفظها من عصابات الفئران والجرذان السراق لمحاصيل الفلاحين والمفسدين في الأرض.

الأميرة: أجل أيها القط، كل ما قاله مولانا السلطان تنفذونه حرفيًا. اتفقنا إذن؟ تعال لأعطيك وجبة دسمة جزاء عملك الشاق.

(تأخذه وتقبل السلطان ناصيتها وهي تقبل يد السلطان وتخرج.)

(ويدخل كل من تحسين باشا وأحمد جلال الدين باشا، ويقول تحسين)

تحسين باشا: يا سيدي، إن سفير العجم جاء للمرة الثالثة، ولقد ألح علي كثيرًا لمقابلة جلالتكم. فبماذا تأمرون؟

السلطان: قبل أن يدخل، أما قلتم له ما هو طلبه مني؟ وما عرفتم شيئًا من نواياه؟

أحمد جلال الدين: نعرف غرضه الرئيسي، وهو أنه طلب شاه العجم منكم بأن تطلبوا من سيد جمال الدين الأفغاني بأن يكف عن مهاجمة ملك العجم.

السلطان (متحيرًا): وهل بلغ خطر السيد جمال الدين بحيث يضطره بأن يطلب مني هذا الطلب؟ أم لهذا الطلب أسرار؟ فأنا لا أعرف عن الأفغاني إلا قليلاً، فلو أطلعتموني عنه لكان جهدكم مشكورًا.

تحسين باشا: إننا عندنا بعض المعلومات والوثائق عن هذا الرجل. فإنه جاء إلى دار السعادة بعد أن اشتهر أمره في العالم الإسلامي، مما دفع عمكم السلطان عبد العزيز رحمه الله أن يدعوه فلبى الدعوة في عام 1870، فنال عند الصدر الأعظم عالي باشا حظوة حتى عينه عضوًا في مجلس المعارف الأعلى وأكرمه. ولكن لم يطل المقام به حتى اصطدم مع شيخ الإسلام حسن فهمي، حيث شنع ضده وأمر أئمة الجماعات بالحديث عن أفكار السيد (الإلحادية)، وإنه يعتبر النبوة نوعًا من الفن، لأنه قال في إحدى محاضراته: إن الجسم الاجتماعي لا يحيا بدون روح، وأن روح هذا الجسم هي الملكة النبوية أو الملكة الفلسفية.. أما الأولى فهي هبة من الله.. بينما الثانية تنال بالتفكير والدرس. وأصبحت القضية حديث المجالس وانقسمت الصحف بين مؤيدة ومعادية. فوصلت الأمور إلى درجة خطيرة اضطر فيها الصدر الأعظم أن يطلب من السيد الأفغاني مغادرة إسطنبول، فتوجه جمال الدين إلى مصر، وكان ذلك سنة 1286هـ/1871م.

أحمد جلال الدين: وفي مصر، بعدما شعر الأفغاني بأن الخديوي إسماعيل عازم على تسليم مصر للأجانب، فأخذ يطالب بخلعه، وسلك كل الطرق لتحقيق ذلك.

فبالإضافة إلى استثارته الجماهير، قابل رئيس الوزراء شريف باشا ونصحه بأن يحمل إلى الخديوي رغبة الناس في تنازله عن العرش. ولقد أثار بعض الناس الشبهات والتساؤلات حول تلك القضية بعد أن عزل الخديوي بأمركم في 1879/6/26، حيث أشاروا إلى وجود تنسيق بين الباب العالي والأفغاني.

السلطان: ربما أراد الأفغاني أن يجذب انتباهي إليه من خلال توافقه مع رغبتي. ولكنني شعرت بأن الخديوي سلم مصر لهم يوم دق باب الاستدانة من الأجانب. فإننا ما زلنا نعاني من القروض الأجنبية التي أخذها عمي المرحوم من الدول الأجنبية.

أحمد جلال الدين: إني أقرأ لكم بعض المقتطفات من التقارير التي أرسلها (اللورد كرومر) المستشار المالي البريطاني في مصر إلى حكومته، ولو أنني أنه بالغ كثيرًا في الأمر، ولكن لا أدري ما هو الدافع وراء المبالغة. يقول: إنخفض نشاط التجارة البريطانية في مصر بمعدل 35% إضافة إلى عدم تعاون الموظفين المصريين مع الإدارة البريطانية، وأن عمل المبشرين قد انخفض إلى أدنى حد له، وذهبت جهود 35 عامًا هدرًا. ويقول: بأنه لو استمر الحزب الوطني عامًا آخر، ويبقى نفوذ السيد جمال الدين الأفغاني كما هو الحال في غربي آسيا وشمالي أفريقيا، ويبقى ويعيش في مصر براحة بال، فليست تجارة وسياسة بريطانية ستضمحل في قارة أفريقيا فحسب، بل إن الخوف على سيادة أوروبا قاطبة على هذه المنطقة نتيجة تأثير هذا الحزب الغريب الذي سيكتسب وجودًا تاريخيًا ويبقى أثره على جبين العالم. وإن هذا الحزب أصبح مانعًا أمام تقدمنا بشكل يفوق التصور، ويجب أن يبادر إلى تشتيت أعضائه بأسرع وقت. ويقول: إن الحزب الوطني هو أفضل دليل على المقدرة المحيرة للعقول لدى العرب، عندما استطاعوا قبل 13 قرنًا أن يستولوا على ثلث المعمورة في زمن لا يتجاوز ثلث قرن.

ويكتب أحد المبشرين تقريرًا إلى مجمع الكنائس (سانت بول) في لندن حيث يقول: «في تصوري ليس أعجب من هذا الأمر حيث هزم سبعمائة مليون من أبناء الإنجيل مع قدرتهم وعلمهم بالطبيعة البشرية أمام 40 فردًا، والذين هم أتباع أحد المتصوفة الإيرانيين».

السلطان (يبتسم ويقول): لا شك أن لدى البريطانيين أحسن ورشة لصناعة الأبطال المزيفين، حيث إنهم أينما توجهوا يسبقهم شهرتهم ويفتح لهم كل الأبواب بمجرد وصولهم.

تحسين باشا: ولكن يجب أن أنبهكم يا مولاي، إنه قبل خوض التجربة المصرية كان دائمًا ينتقد التحزب وتشكيل الأحزاب. لقد كان يريد لحركته الإصلاحية أن تقوم من خلال المفاصل الحيوية في النظام، فاعتمد نصيحة الملوك والسلاطين. ولكن يبدو أنه لم يوفق، ولهذا فهو يسلك طريقة إيقاظ الجماهير وتوعيتها باستخدام كل الوسائل الممكنة. وأفضل هذه الوسائل تأسيس الأحزاب.

وهو يرى أن كل مشاكل العالم الإسلامي تجتمع في سببين:

1. دكتاتورية واستبداد الحكام والسلاطين.

2. الاستعمار الأجنبي.

السلطان: أما وجود الأحزاب وتمزيق شمل الأمة، فهي نفسها سياسة "فرق تسد" لبريطانيا. أما سبب المشاكل، يبدو أنه يفضل الاستعمار الأجنبي على الاستبداد المحلي.

ولهذا بعدما أكمل مهمته في مصر، وهي غرس قابلية الاستعمار في مجتمع المصري، انتقل بحجة النفي كمناضل إلى مكان آخر.

ولو ناديتم شيخنا أبا الهدى الصيادي إلى هنا لأستشيره في الأمر أيضًا لكان جيدًا يا تحسين باشا.

(يخرج تحسين باشا لتنفيذ المهمة)

أحمد جلال الدين: بعدما نفذ مهمته في مصر كما تفضلتم، نفوه أو أرسلوه إلى الهند. لقد كانت له تجربة في الهند حيث كانت الهند محطته الأولى بعد خروجه من أفغانستان. ولكن غير الأفغاني أسلوبه مع الإنجليز لكي يبقى في الهند لمدة ثلاث سنوات..

السلطان: من فضلك حدثني عن زيارته الأولى أولًا، وأخبرني عن أسلوبه وقارن بين الزيارتين.

أحمد جلال الدين: نعم، كانت الزيارة الأولى، وكان ذلك سنة 1285هـ/1868م، واستقبلته الحكومة الهندية بحفاوة وإجلال. غير أنها لم تسمح له بطول الإقامة، بدافع أنهم يخشون أن ينقل عدوى الأفغان إلى الهند. فلقد كان رجال الحكومة الهندية مطلعين على كل الأمور وجزئياتها فيما يتعلق بدور الأفغاني في أفغانستان، وكانوا يخشون أن يتكرر الأمر في الهند أيضًا. لقد وضعت الحكومة الهندية الجواسيس حوله لمراقبة كل تحركاته في فترة الشهر التي قضاها هناك، وخصصت له منزلاً للإقامة، ووضع شرطيًا بباب المنزل لتفتيش الزائرين.

والنادر المتكرر في حياة هذا الرجل إقبال الجماهير عليه أينما ذهب. وما أن حل الأفغاني في الهند حتى تقاطرت جموع المسلمين على زيارته. ولم يمض أسبوع على إقامته حتى شعرت الحكومة بالخطر وطالبت منه المغادرة، فأجاب: «أنا لم آت للهند لأخيف الحكومة، فليس لي تلك القوة حتى أقوم بثورة، ولا أنا منتقد لما تقوم به الحكومة، فهل تخاف الحكومة من سائح يمر ببلادها؟ إن الحكومة تخاف من الذين يزوروني وهم أعجز مني. إن ذلك يثبت أن الحكومة صغيرة أو عاجزة وإنها فقدت شوكتها. إن العدالة والأمن الاجتماعي لا يحكمان في هذا البلد. في الحقيقة إن الحكومة هنا أعجز من الشعب». ثم وجه خطابه لجموع الحاضرين من الشعب: «أيها الناس، أقسم بالحق والعدالة، أن عدد رجال الحكومة لا يزيد عن 10 آلاف رجل، ولكنكم مئات الملايين. فلو كان كل واحد منكم بقدر بقّة لهز طنينكم آذان الحكومة. ولو كنتم، وأنتم مئات الملايين من الهنود، وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة، وخضتم البحر، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجررتموها إلى القعر وعدتم إلى الهند أحرارًا».

السلطان: هذا هم البريطانيون، يسحقون الشعوب ويتجولون برجل أعزل بعد أن أذاعوا شهرته ليفتتن به الناس. وبعد هذه الفترة القصيرة من تجربتين فاشلتين في أفغانستان والهند، أصبح مشهورًا في مصر وفي دار السعادة، ووصلت شهرته إلى درجة أن السلطان في طلبه وقلده مرتبة عالية، ثم جاء وافتتن الناس، وذهب إلى مصر ومهد للإنجليز أن يقوموا باحتلالها. والآن أخبرني عن تجربته الجديدة في الهند.

(في هذا الأثناء عاد تحسين باشا وقال)

تحسين باشا: سماحة الشيخ يأتي بعد لحظات.

السلطان: أرجوك، إذا وصل سماحتهم أخبرني. لا أقوم باستقبالهم كما يليق بهم.

أحمد جلال الدين: استقر الأفغاني في الهند هذه المرة ثلاثة أعوام، أي بين 1879-1882م، ودخل في معترك الصراع الفكري. ولما وصل الأفغاني للهند كان يتوقع الجميع أن يقف إلى جانب السيد أحمد خان باعتباره يحمل أفكارًا عصرية مثله، وأنه يؤمن بالعلوم الحديثة. ولكنه لم يفعل ذلك بل فعل الضد منه، وقد ألف كتابًا أسماه (الرد على الدهريين) واتهمه وأتباعه بالعمالة للبريطانيين. وعندما حدثت ثورة عرابي في مصر وكان يقيم في مدينة (حيدر آباد دكن)، فارتأت الحكومة البريطانية في الهند أن ينقل منها إلى مدينة كلكتا لعزله عن الاتصال بالأحداث لما كان له دور وتأثير على الساحة المصرية، حتى تم القضاء على الثورة حيث سمح له بمغادرة الهند.

السلطان: في المرة الأولى كاد أن يصنع الثورة في غضون شهر، وهذه المرة ما قام بأي حركة ضد البريطانيين في مدة ثلاث سنوات!

تحسين باشا: في عام 1882 عندما وصل الأفغاني إلى باريس انشغل بالصحافة، فاستدعى تلميذه محمد عبده الذي تم نفيه إلى بيروت بعد ثورة عرابي باشا، وأصدر صحيفة (العروة الوثقى). لقد كان الأفغاني يرسلها مجانًا إلى الشرق (ليتداولها الأمير والحقير والغني والفقير) كما جاء في افتتاحية العدد الأول..

السلطان: ولا أسألك عن التمويل وعن كلفة الحياة والأسفار، لأن الذي يتجول به يمول مشاريعه.

تحسين باشا: وقد كتب سفيرنا في لندن رسالة آنذاك واطلعتم عليه، ولابأس بأن أقرأه لكم. (يفتح الرسالة): لقد زار الأفغاني لندن وبقى فيها ثلاثة أشهر قابل فيها وزير شؤون الهند راندولف تشرشل بدعوة من صديق بريطاني للأفغاني يدعى (بلنت)، حيث كان يعتقد أن الأفغاني، وإن كان خصمًا لدودًا للاستعمار البريطاني، غير أنه في خصومته ليس ذا تعصب أعمى، وأنه يرحب بأي اتفاق شريف مع بريطانيا إذا كان ذلك ممكنًا. وحاولت بريطانيا أن تبعثه ضمن وفد بريطاني إلى مولانا السلطان لإقناعه بعقد حلف ضد روسيا مؤلف من بريطانيا والدولة العثمانية وإيران وأفغانستان. وحدث أن غير رئيس الوفد رأيه وقرر عدم استصحاب الأفغاني معه مما أثار غضبه فترك لندن.

السلطان: ما تركه بسبب الغضب، بل لمهمة أخرى. ووصلتني رسائل أخرى أن هو وصديقه هذا يريدون أن تكون الخلافة من العرب الموالين لبريطانيا.

(يدخل البواب ويقول)

البواب: إن الشيخ الصيادي وصل.

(يقوم السلطان ويقول لهما)

السلطان: لا تنسوا أين وقفت في الحديث.

أحمد جلال الدين: إن شاء الله، وإن نسينا بالتأكيد أنت تذكرنا.

(ويخرجان، ويأتي البواب بالمشروبات والحلويات ويضعها على المنضدة، ثم يدخل السلطان مع الشيخ الصيادي ووراءهما أحمد جلال الدين وتحسين باشا، يجلس الشيخ ثم السلطان، وهو يقول)

السلطان: أهلاً ومرحبًا بشيخنا العزيز، أرجو من الله لكم الصحة والعافية، وسامحوني لأنني دائمًا أحتاج إلى إرشاداتكم. ويبدو أن شخصًا اسمه جمال الدين الأفغاني أزعج شاه العجم فاستنجد بي، وأردت أن أسمع رأيكم عن الأفغاني.

الصيادي: لا شك أنتم أهل الاستنجاد، فما أسرعهم نسيانًا لغدرهم وخياناتهم ومؤامراتهم تجاه دولتكم العلية. أما بخصوص الرحالة الأفغاني القائل: «إنني كصقر محلق يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيقًا لطيرانه!! وإنني لأتعجب منكم، إذ تريدون أن تحبسوني في هذا القفص الصغير»، فأنقل ترجمته كما كتبه عنه تلميذه محمد عبده أولًا:

ويقال في نسبه بأنه محمد جمال الدين بن السيد صَفْدَر أو صندر بن علي بن مير رضي الدين محمد الحسيني، ابن مير زين الدين الحسيني القاضي، ابن مير ظهير الدين محمد الحسيني، وصولًا إلى سيدنا الحسين بن الإمام علي، مرورًا بالمحدث السيد علي الترمذي. ولد في قرية (أسعد آباد) إحدى القرى التابعة لخطة "كنر" من أعمال "كابل" (تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام) في سنة 1254هـ/1838م. انتقل مع والده الذي كان يعمل مدرسًا في (كابل) وهو في الثامنة من عمره، وكانت لها سيادة على جزء من الأراضي الأفغانية تستقل بالحكم فيه، وإنما سلب الإمارة من أيديها "دوست محمد خان" جد الأمير الحالي، وأمر بنقل أبي السيد جمال الدين وبعض أعمامه إلى مدينة "كابل". وفي سنة 1264هـ/1848م ألحقه والده بمدرسة (قزوين) التي كان يعمل

بها، ومكث بها عامين، فانتقل به إلى طهران أوائل سنة 1266هـ/1849م. وتتلمذ عند آقا سيد صادق، ثم سافر مع والده إلى النجف بالعراق في نفس العام، ومكث فيها أربع سنوات درس فيها العلوم الإسلامية وغيرها. وفي الثامنة عشرة من عمره، سافر إلى الهند، ومكث بها سنة وبضعة أشهر درس خلالها العلوم الرياضية، ثم سافر إلى مكة المكرمة سنة 1273هـ/ 1857م، فأدى فريضة الحج، ثم عاد إلى بلده أفغانستان مرة أخرى، وعمل بالحكومة، وكان عمره حينئذ 27 عامًا، ووصل إلى درجة كبير الوزراء في عهد الملك (محمد أعظم) الذي نال تأييد الأفغاني، ولكن الملك محمد أعظم خُلع، وتولى أخوه شير علي، ونظر جمال الدين في أمر نفسه فوجد أن الأفضل له أن يغادر البلاد، وبالفعل سافر إلى الهند، وكان ذلك سنة 1285هـ/1868م. أما مذهب الرجل فحنفي، وهو وإن لم يكن في عقيدته مقلدًا، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض في مذهبه.

هذا ما قاله السيد محمد عبده عن الرجل. أما هناك آراء أخرى: يقال إنه ولد وترعرع في حي أو حارة "سيدان" أي السادة الأشراف، ببلدة أسد آباد التي "تبعد نحو سبعة فراسخ من مدينة همذان إلى جهة العراق بين همذان وكرمانشاه"، والمنطقة مشهورة باسم لرستان، واللر عشيرة من الأكراد ولكنهم تشيعوا. وظاهر مذهب الرجل الإسلام اللامذهبي، فغدا ذا أصل شيعي وفكر سني، وينادي بتقارب المذاهب، ويمكن أن تستفيدوا منه من هذه الناحية كمرحلة لمواجهة المد الغربي. وأراه في التقريب بين المذاهب ويقول عن هذا:

لا التمس أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصًا واحدًا، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، ووجهة وحدتهم الدين، هذا آن الاتفاق، إلاّ أن الزمان يواسيكم بالفرص وهي لكم غنائم فلا تفرطوا، إن البكاء لا يحيي الميّت، إن الأسف لا يرد الفائت، إن الحزن لا يدفع المصيبة، إن العمل مفتاح النجاح، إن الصدق والإخلاص

سلم الفلاح. ولعل أمراء المسلمين قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين، قبل أن يقضي عليهم بما رزى به المفرطون من قبلهم.

السلطان: وما رأيكم أنتم في الرجل؟ أنتم أدخلتمونا في المتاهة. من هو هذا الرجل؟

الصيادي: هو رجل مغامر بلا أصل وفصل، يحب الرفعة مثل أجداده، وساعدهم في هذا جهل المسلمين وبساطتهم في أفغانستان، حيث صدقوهم بأنهم ينتمون إلى الحسين رضي الله عنه. ثم لصقوا الإمام الترمذي بنسبهم وهو ذو أصل تركي. وما قال أحد من رواة سيرته بأنه من نسب حسين رضي الله عنه، بل إن عبده وغيره قالوا بأنه ينتمي للمحدث المشهور السيد علي. والمعروف أن اسم الترمذي محمد بن عيسى. إنهم جمعوا الحابل بالنابل فصدقهم الناس في أفغانستان، حيث إن القوم بسطاء. وأما الكارثة أن يصدقهم كل العالم الإسلامي والغربي. ولكن لا شك بأنه صاحب الموهبة، وزادت موهبته بسبب كثرة جولاته ومشاهدته تجارب الناس واحتكاكه بالمحافل والمجالس. والرجل إذا جعله الناس في الصدارة يضطر بأن يهتم بتكوين شخصيته وتهذيب عقليته. وأما ما أذيع عنه بأنه مصلح كبير، فلا يصدق، لأنه لو كان مصلحًا لاستطاع أن يصلح بين الأميرين الأخوين محمد أعظم وشير علي، وما قام بتأييد هذا على ذاك؟ وهما من أبناء عمومته كما يقال!!

السلطان: على كل حال، لقد قاطعتكم يا سيد جلال الدين. بامكانكم استئناف الحديث بعد باريس.

أحمد جلال الدين: وظل جمال الدين ينتقل في أوروبا بين باريس ولندن، ويتصل بالعلماء والكتاب ورجال السياسة، إلى أن دعاه الشاه (ناصر الدين) إلى إيران فسافر إليها في (20 مايو سنة 1886م). واستقبله الشاه في حفاوة بالغة، وجعله مستشاره الخاص في إصلاح شؤون بلاده، وعرض عليه أن يساعده في وضع إيران على طريق التقدم. فكان ضمن ما قاله الأفغاني له: «إن خراب إيران وذل وشقاء الإيرانيين التعساء تعود إلى الذات السلطانية نفسها». لقد كانت أحلام الحداثة والعصرنة تراود ناصر الدين شاه بعد زيارته المشهورة إلى أوروبا، فأراد أن يقلدها في دساتيرها وقوانينها، فطلب من الأفغاني أن يقوم. وبالفعل باشر بكتابة دستور جديد، فلما قرأه الشاه وجد أن صلاحياته محدودة بقدر كبير، وإنه خاضع لمجلس الشيوخ ومجلس النواب، فسأله قائلاً: «كيف يمكن أن أكون ملكًا وأتساوى مع العامل؟».

فأجابه السيد: «أيها الملك، لتعلم إن تاجك وعرشك وأوامرك وأركان سلطانك ستكون أقوى بمعية الدستور. إن العالم والعامل والفنان أكثر فائدة للبلاد من مقامك وعظمتك. اسمع مني قبل فوات الأوان ولا تفرط بهذه الفرصة الثمينة بأن تكون في إيران حكومة دستورية، لتهدم حكومة الاستبداد. يا عظمة الشاه، إنك رأيت وقرأت عن أمة استطاعت أن تعيش بدون ملك، ولكن هل رأيت ملكًا عاش بدون رعية؟».

وأعتقد أن الشاه أراد من السيد أن يتوجه إلى روسيا، أو أن الرجل يحب التجوال. المهم ذهب إلى روسيا وترك مشروعه في إيران، وبقي هناك. ويقال إنه كان في ذهنه أن يهيئ الأرضية المناسبة لإثارة الحرب بين الروس والإنجليز لإنقاذ الهند من براثنهم. وحاول الحصول على مقابلة مع إمبراطور روسيا، إلا أن الأخير رفض استقباله، ولم يفلح إلا في مقابلة الملكة فقط. إلا أنه قابل مدير وزارة الخارجية الروسي (زنوفييف) الذي لم يبد تأييدًا للأخذ بآرائه.

ويبدو أن الأفغاني استطاع مقابلة القيصر ولكن بعد مضي سنتين على إقامته في روسيا، فقد دعاه القيصر نقولا إلى بلاطه لتبادل الحديث، واستقبله استقبالاً حارًا،

ثم سأله عن سبب خلافه مع الشاه، فأجاب: «لقد اقترحت على الشاه أن تقام حكومة مقيدة بالدستور فلم يقبل، فكرهته ولم يعد باستطاعتي مساعدته».

فقال له القيصر: «أنا أعطي الحق للشاه، فأي ملك حاكم يقبل أن يعطي الأمور بأيدي الفلاحين والعمال».

فأجاب السيد بجرأة: «أيها الإمبراطور! صدقني، إذا كان ملايين العمال والفلاحين أصدقاء للسلطة أفضل من أن يكونوا أعداء لها يخفون حقدهم في صدورهم ويتحينون الفرصة للانتقام».

وأوصى القيصر بإخراج الأفغاني بلطف لكي لا ينشر بذور الثورة بين المسلمين في روسيا.

السلطان: ولماذا ذهب إلى روسيا بعد أن عينه الشاه مستشارًا، حيث يمكنه أن ينفذ مشروعه الإصلاحي كما يزعم؟ أو أنه ذهب بطلب من بريطانيا لدفع المسلمين هناك إلى الثورة، فهذا أولى وأقرب مما يقال من إثارة الحرب بين بريطانيا وروسيا.

أحمد جلال الدين: وترك روسيا إلى ألمانيا في عام 1889م. وكتب هناك مقالة باللغة الألمانية عن... إذ كتب مقالاً في صحيفة ألمانية حول المنافع التي سيجنيها البريطانيون والمضار التي ستعود على الروس من إعطاء الامتياز المذكور. كان يريد إيقاع الوقيعة وبذر بذور الشك والريبة لتصل إلى مرحلة الحرب بين روسيا وبريطانيا. ثار غضبهم بصدد الامتياز الذي منحه ناصر الدين شاه للإنجليز في الملاحة في نهر الكارون. ولهذا فقد طلب الشاه منه أن يذهب إلى المسؤولين في الحكومة القيصرية لتهدئة الأوضاع بعد أن ثار غضبهم قبل الوساطة. وسافر إلى روسيا لتبديد القلق الذي يساور الروس ونجح في ذلك.

السلطان: لماذا اختار الشاه الأفغاني إذ هو سبب الاستياء الروسي؟ فلماذا يبعثه ليفشل ما خطط له هو؟ كذلك موقف الأفغاني فهو لم يكن مرتاحًا لتصرفات الشاه، خاصة وإنه قابل أفكاره ببرود إن لم يكن رفض. لماذا ينقذ رجلاً وهو يشبه بالسرطان في رئة الأمة؟ أو على الأقل يفرض مقابل المهمة فرض بعض شروطه الإصلاحية كما يزعم؟

أحمد جلال الدين: ثم رجع من روسيا إلى إيران في عام 1890، ولكن بنية إشعال الثورة، حيث ينقل عنه بأنه قال: «إن إيران تحتاج إلى ثورة، وإذا لم تحدث ثورة فإن اسم إيران والإيرانيين سيضمحل».

السلطان (يضحك): لعله حريص جدًا على بقاء اسم إيران. ولعل ثورته تكون ضد تمسكهم بالشعوذة والانحراف العقدي.

تحسين باشا: بل قام بعكس ما تتوقعونه يا مولاي، حيث قام باللجوء إلى مزار أحد أئمة آل البيت وهو مرقد عبد العظيم لتحريض الزائرين على الثورة والعصيان، واستغرق ذلك عدة أشهر، إلى أن هاجمه رجال الشاه وجروه على الثلج وأركبوه حمارًا وتجولوا به في مدن قم وكرمانشاه إلى أن ألقوه في خانقين. ومن خانقين ذهب إلى البصرة وكتب رسالة تحريضية للشيرازي المرجع الشيعي الساكن في سامراء.

السلطان: أما تجوالهم به، إن دل على شيء فإنه يدل على أن عدم تلبية الإيرانيين لتحريضاته سببه أنهم لم يعرفوه. فأولئك خدموا الأفغاني وروجوا أفكاره. وهل عندنا نسخة من رسالته إلى الشيرازي؟

أحمد جلال الدين: نعم، موجودة في ملف السيد جمال الدين.

(يذهب جلال الدين ليأتي بالرسالة)

السلطان: يبدو أن ملفه طويل. غير أن حتى الآن ما التقى مع من يجيد معالجة تهوراته واستفزازاته. فمثل هؤلاء علينا أن نواجههم بالتأني والرفق. وأما السجن والنفي فلا يفيد معهم إلا بتهمة مسوغة. لقد كان مدحت باشا هكذا، فأعطيته المجال، فأثبت لأصدقائه قبل أعدائه بأن كل ما قاله بحماس ما أفاد، وأثبت عدم جدارته في مهمته. يجب أن نكون حذرين ولا نهتف لكل من يصيح ويدعو للثورة ومقارعة العدو والاستعمار ومواجهة الكفار، ولا يهمه العواقب، ولا يهدر أموال العامة، ولا يزن بين المصالح والمفاسد. غير أنني أخاف من الحكومات الدستورية أن ينتخبوا مثل هؤلاء المتهورين بسبب مهاراتهم الخطابية، ومن ثم يسبب هؤلاء في حصول الكوارث والحروب المدمرة.

ما أخبرتموني عن سجله في الماسونية؟

تحسين باشا: انتظم جمال الدين في سلك الماسونية في المحفل الأيرلندي البريطاني؛ بتبرير فتح المجال أمام الأعمال السياسية. ولكن استقال منه وانتقدهم وقال لهم: أول ما شوقني في بناية الأحرار عنوان كبير وخطير: حرية، مساواة، إخاء. ولكن كنت أنتظر

في مصر أن اسمع كل غريبة وعجيبة، ولكن ما كنت لأتخيل أن الجبن يمكنه أن يدخل بين أسطوانتي المحافل الماسونية. فإذا لم تتدخل الماسونية في سياسة الكون وفيها كل بناء حر، وإذا كانت لا تدك صروح الظلم والعتو والجور، فلا حملت يد الأحرار مطرقة ولا قامت لبنايتهم زاوية قائمة.

ولكن بعد استقالته أسس بنفسه محفلًا آخر باسم محفل "كوكب الشرق"، وقد انتخب رئيسًا للمحفل سنة (1295هـ=1878م). ويقال عن محفله بأنه حدد فيه عن كل وزارة في الحكومة شعبة وخبير في مصر.

السلطان (يبتسم): حكومة داخل حكومة، مثل الجيش الذي أنشأه مدحت باشا. فمثل هؤلاء يعيشون في خيال. فماذا فعل المحفل وخبراؤه وتلاميذ الأفغاني أمام بريطانيا؟ إنهم لم يصمدوا بقدر مدعي المهدية كذبًا، ولا بقدر السنوسيين من المتصوفة، وهم كانوا دولة منذ عقود وجيش نظامي. وكان منظرهم مصلح الشرق الأفغاني لثمانية سنوات.

(عاد جلال الدين وفتح الرسالة وقال)

أحمد جلال الدين: أقرأ لكم بعض مقتطفاتها:

لقد وضع الله كرسي رئاستكم في قلوب الناس ليقوي في ذلك عمود العدل وتضاء طريق الحق. إن الأمة الإسلامية تضعك نصب عينيها، إنها تعلم إن السعادة والفلاح والحرية تأتي من بين يديك، إن الآمال معلقة فيك. إن الإيرانيين يتساءلون لماذا بقي حجة الإسلام ساكتًا تجاه هذه الأحداث؟ إن أمرك مطاع عند المسلمين، ولن يقف أحد مقابل حكمتك. يمكنك جمع الناس بكلمة واحدة أمام أعداء الله والمسلمين ولتقضي على شر الكفّار... أنقذهم من هذه الحياة البائسة، يجب قول الحق، أنت

زعيم الشيعة، أنت كالروح في جسم المسلمين، وأجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الإسلامية. ولا يمكن لأحد أن ينهض بهذه الأمة دونك، وهي لا تطمئن لسواك. من لهذا الأمر غيرك؟ هل يوجد رجل أحق بهذا الأمر من الذي اختاره الله في القرن 14 من بين الناس ليكون برهان الدين والحجة على الناس؟

وهذا دفع الشيرازي فأصدر الفتوى بتحريم التنباك عام 1891 والتي تنص «بسم الله الرحمن الرحيم، اليوم استعمال التنباكو والتوتون بأي نحو كان في حكم محاربة إمام الزمان صلوات الله وسلامه عليه»، حيث اضطر بعدها ناصر الدين شاه لإلغاء الامتياز من الشركة البريطانية (ريجي).

السلطان: يا لهذه الكلمات الرنانة! فهذه لعبة جماعية والأهداف مختلفة. أما الشاه فيريد يثبت للقيصر والبريطانيين بأنه عامل الاستقرار لكليهما، وجفاء أي طرف منهما يجعله أن يميل للآر. وإصدار الفتاوى أمر يسير عندهم.

وماذا بقي عن الرجل؟

تحسين باشا: بقي الأهم، وهو السبب الرئيسي لطلب الشاه باستدعائكم للأفغاني. بعد طرده من إيران ذهب الأفغاني إلى لندن.

السلطان: ولماذا لندن؟ بعد أن حاول جمع الدول والأسطول ضده بزعمه، فكيف قبله بريطانيا وهو عدوه اللدود في كل الجبهات المصرية والهندية والإيرانية؟

أحمد جلال الدين: بل تم استدعاؤه من قبل غلادستون حسب ما عندنا من المعلومات. ويقال إنه عندما كان الأفغاني يصدر العروة الوثقى حدثت ثورة المهدي في السودان، فكتب عنها الكثير موضحًا الأخطاء وسوء التصرف التي ارتكبها الجنرال غوردون في السودان، مما جعلها محط أنظار السياسيين الأوروبيين وخاصة وزير الخارجية البريطاني غلادستون الذي اعترف بالأخطاء التي ارتكبتها بريطانيا في مصر والسودان. فدعى الأفغاني إلى لندن للتشاور معه حول الأمور خاصة وأن المهدي السوداني كان أحد تلامذته. التقى هناك بكبار السياسيين، وقابل اللورد ساليسبوري الذي عرض عليه أن يتولى زعامة السودان ويكون ملكًا عليها بعد القضاء على ثورة المهدي، فأجابه:

«إن هذا العرض لدليل على الجهل السياسي. أيها اللورد دعني أسألك، هل أصبحتم تملكون السودان حتى تنصبوني ملكًا عليها؟! مصر للمصريين، وكذلك السودان فهي جزء لا يتجزأ من الخلافة العثمانية، ولا يزال صاحبها حيًا ولديه القوة المادية والمعنوية، ويستطيع أن يصلح الأمور بكل سهولة. إذا كانت بريطانيا راغبة في تحسين أحوال الناس فلتتوجه إلى أيرلندا أولًا، فهؤلاء أقرب إليكم وتوجد صلات عميقة بينكم وبين الأيرلنديين وهي تساعد على الاتفاق فيما بينكم، وهي أقوى من الاتفاق الذي تريده مع مصر والسودان وبقية دول الشرق الأوسط».

وأحدثت هذه التصريحات للأفغاني ضجة في الصحف البريطانية، خاصة تلك التي كانت تقف إلى جانب الأيرلنديين، وأخذت تتداول بين طلاب الحرية في المحافل السياسية.

السلطان: لقد كان رده لساليسيبوري يدل على حنكته هنا. ولو تخلى هذا الرجل عن تهوره ومغامراته – وهو شبه مستحيل – لاستفدنا منه كثيرًا. ولكنني استغرب كون المهدي الذي يدعي المهدية وأستاذه يدعي العصرانية، من أين تلتقي الفكرتان؟

وسمعت أن تلميذه محمد عبده ينكر أصلًا إتيان المهدي. أما أنهما الأفغاني والعبدة، وحتى المهدي، كلهم لا يؤمنون بهذه الجزئية من معتقد المسلمين. ولكن ما دام لا يجمع المسلمون إلا بهذا، فمرحبًا به.

تحسين باشا: يرى الأفغاني أن الناس قد سئمت الظلم والاستغلال، فأصبح إيمانهم بالمهدي الموعود قويًا، فإذا حقق المهدي هذه الآمال فسيصبحون جميعًا تحت لوائه وطاعته.

أحمد جلال الدين: وتكملة للحديث، يبدو أن الأفغاني رفض الفكرة البريطانية التي استدعي من أجلها، فيقتضي بأن يغادر لندن. ولكن بدلًا من المغادرة، قام بإصدار صحيفة (ضياء الخافقين) التي تنشرها شركة بريطانية باللغتين العربية والإنجليزية، وتهاجم الشاه والحكومة الإيرانية. وهذا هو السبب الرئيسي الذي دفع ناصر الدين أن يطلب منكم بأن تطلبوا من الأفغاني أن يكف عنه.

السلطان: تفسير حيرتكم يا سيد جلال الدين عندي، أن هاجس الخوف من انضمام إيران إلى جانب روسيا هو الذي دفع بريطانيا باستدعاء الأفغاني واستغلاله ضد إيران، كورقة ليتخلى ناصر الدين عن توجهه نحو روسيا. وما أدري إذا كان ناصر الدين تخلى عن توجهه أم لا؟ ولكن إن البريطانيين أرادوا فقط هذا القدر من الاستفزاز له، وبذلك انتهى دور الأفغاني هناك. ويرى كل من البريطانيين والإيرانيين وحتى الروس أن كون الأفغاني مستقرًا في دار السعادة سوف يثير البلبلة، لأنه ما مر ببلد إلا أثار العداوة بين حكامها مع شعوبهم. وبما أنني أرى بأن ورشة بريطانيا لصناعة الأبطال لا مثيل لها منذ أن خلق الله البشرية، بالقدم أهدى إلينا مدحت، واليوم يقدم

لنا الأفغاني. ودولة تملك هذه الورشة لا تسقط بسهولة. انظروا كيف جعلوا من أعدائهم وخصومهم أن يتعلقوا آمالهم بأبطال هم يرشدونهم؟ ولكن خابوا وخسروا. لقد انتظر السفير كثيرًا، فليدل هو أيضًا بدلوه. فليدخل.

(يدخل السفير ويقبل يد السلطان ويد الشيخ ويقف، ويشير السلطان بأن يجلس)

السلطان: إذا كان الإنسان الزم نفسه بأن يؤدي كل واجباته في وقتها المحدد، لا شك بأنه يكون الوقت عنده ثمينًا ونادرًا في نفس الوقت. وكان هذا سبب تأخرنا في استدعائك.

السفير: أمثالكم يا مولانا، وفي هذا الموقع العظيم، نعمة للأمة الإسلامية. وإنجازاتكم الرائعة وخدماتكم الجليلة للمسلمين دليل على تفانيكم في أداء الواجبات.

السلطان: إننا دائمًا أحببنا التقارب والتنسيق في مواجهة كافة التحديات التي تعصف بالأمة الإسلامية، وخاصة مع الدول الإسلامية، لأن الرابط بيننا سماوي ورباني وأبدي. ولا شك بأننا ننتظر الكثير من إخواننا وهو ما تقتضيه هذه الرابطة المتينة. ولو أننا مع الأسف ما وجدنا ثمرة لائقة تتناسب مع متانة هذه الرابطة، ووجدنا أنفسنا وحدنا في الساحة للمواجهات المصيرية المتعلقة بمصير الحضارة الإسلامية منذ قرون. وأما في العصر الحاضر فقد كثرت التحديات وعظمت شوكة الأعداء بسبب التقدم العسكري، ونحتاج إلى التنسيق أكثر من ذي قبل.

السفير: ومن هذا المنطلق يا مولانا، بأنكم ظل هذه الأمة في أيام الشدائد، أرسلني مولاي الناصر الدين شاه لأبلغكم سلامهم وتحياتهم، ويرجوا من مقامكم الكريم بأن تقوموا لطفًا باستدعاء السيد جمال الدين الأفغاني من لندن إلى دار السعادة، وأن يكف عن ذم المسلمين وكشف عوراتهم. وإننا نعلم أنكم تذبون عن عورات المسلمين ولا تحبون أن تكتشف العيوب والنقائص للكفار لكي لا يستغلوها.

السلطان: أما ما قلت بأنني أذب عن عورة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها سواء كانوا داخل دولتنا أم خارجها فنعم. وأما بخصوص طلب الشاه باستدعاء الأفغاني، فإننا نقوم باستدعائه. ولكن هناك أمور عظام أكبر بكثير عن مسألة الأفغاني، يتطلب منا أن نتعاون. فإنني أحملك سلامي إلى جناب الشاه، مع ندائي لهم ولغيرهم من المسلمين بالوحدة والتعاون لما فيه خير الأمة الإسلامية.

(يقوم السفير مسرورًا ويقول)

السفير: لقد أخذت من وقتكم الثمين يا مولاي، وإني كنت على ثقة بأنكم لا تردوني خائبًا.

(ويقبل يد السلطان والشيخ ويخرج)

السلطان: أرجو منكم يا تحسين باشا أن تكتبوا رسالة إلى سيد جمال الدين.

(ويقول السلطان لشيخه)

السلطان: والآن يا شيخنا، إني أرجو بأن تقوموا بتوصيل رسالتي إلى السيد جمال الدين لكي يأتي مع حضرتكم إلى هنا.

الصيادي: أفتخر بأية مهمة أنتم تكلفونني بها.

(تحسين باشا يعطي الرسالة للسلطان وهو يوقع عليها بعد القراءة، ثم يرجعها إلى تحسين. يقوم الصيادي ويقول)

الصيادي: تشرفت بلقائكم، وإني سأنفذ المهمة بأسرع وقت إن شاء الله.

(والسلطان يقبل يده وهو يقبل يد السلطان ويسير معه إلى مدخل الخروج، ثم يعود مع جلال الدين ويجلس، ويخرج تحسين باشا مع الصيادي)

(في هذا الوقت أخبر البواب معالي السلطان بأن البروفيسور أرمينيوس فامبيري من جامعة بودابست ومعه مجموعة من الأساتذة والصحفيين جاؤا لمقابلة مولانا. فرحب بهم السلطان وجلس. وبعد الترحيب كان أول سؤال البروفيسور هو قوله)

البروفيسور: أكثر الانتقادات الموجهة إليكم هي أنكم عطلتم المجالس النيابية، وأنكم ضد المدنية الغربية وعدو المصلحين والمنورين. ماذا تقولون في ذلك؟

السلطان: أنا لست عدوًا لأي مما ذكرتم. أما المجالس النيابية والأفكار البرلمانية، انتشرت وترسخت في أوروبا بشكل تدريجي وطيلة عدة عصور. وهنا في بلدي يطالبونني أن أزرع هذه الأفكار في تربة آسيا الصلبة المحرومة من المطر، علما بأن هذه التربة غير ملائمة لهذا النبات حاليًا. إني أحتاج إلى مهلة لكي أزيل الصخور والأشواك وأقلب التراب وأسقيه. عند ذلك يمكن لهذه النبتة الجديدة في هذا البلد أن تنمو وتنتشر دون ضرر. وصدقني بأنني سأكون وقت ذاك أول السعداء لانتشارها وقوتها. فحتى السياسي الكبير بسمارك قال لمندوبنا عندما زار ألمانيا: أحسنتم صنعًا بتعطيلكم

المجلس، لأن أية دولة عندما تكون مكونة من قوميات عدة، فإن ضرر النظام البرلماني فيها يكون أكثر من فائدته. وإن الشكل الفوضوي للمجلس وتحريض بعض النواب الذين كانوا يأكلون مع الذئب ويبكون مع الغنم هي التي جرت البلاد إلى حرب كاد أن يسقط فيها إسطنبول.

البروفيسور: وما مدى تقبلكم للمدنية الغربية؟

السلطان: أما المدنية الغربية، إذا كان القصد بها العلوم الحديثة والأساليب الإدارية، إني آخذ بها على التدرج، لأن العجلة من الشيطان، والأمور القيمة يجب أن تكون طبيعية وأن تأتي من الداخل وحسب الحاجة إليها، ولا يمكن أن يكتب لها النجاح إذا كانت على شكل تطعيم من الخارج. فأنا فتحت في عهدي عشرات الكليات الطبية والإنسانية والعلمية والفنية، وبعهدي دخلت الدولة عصر التلغراف وسكك الحديد، وسن الدستور والترامواي، وأسست الكثير من المؤسسات التجارية والاقتصادية. وقامت تجارب الغواصة من مالي الخاص، والآن لا تملك الكثير من الدول المتقدمة سفينة تسير تحت البحر. وعرضت على أديسون عندما سمعت بخبرته: أنكم إذا جئتم إلينا وقمتم بتجاربكم في إسطنبول، سأعطيكم أضعاف ما تأخذونه في بلادكم. وأما عداوتي للمنورين، لا أدري قصدكم أي نوع من المنورين؟ فها أنا أطلب من السيد جمال الدين بأن يأتي إلى إسطنبول ونعمل معًا من أجل التنوير، وهو معروف بين المنورين. أما إذا كان قصدكم مدحت باشا، فإنه بعد نفيه بفترة عاد وتقلد عدة مناصب، مع أنه كان شارك في قتل السلطان عبد العزيز واتهمته المحكمة بذلك.

البروفيسور: بعض الكتاب يتهمونكم بأنكم كنتم ضد مشروع مدحت باشا الإصلاحي وتآمرتم على قتله. فما هي حقيقة هذه الإشاعات؟

السلطان: تعلمون بأنني رجعت مدحت باشا، وأنعمت عليه بنصبه واليًا على حلب ثم على ولاية آيدن. ولكن بعد محكمة يلدز ظهر أنه متورط في اغتيال عمي السلطان عبد العزيز. في الحقيقة ما خطر ببالي أن تكون نتيجة التحقيق بهذه الفضاعة! أن قائمة المتورطين في قتل عمي يكون فيها صهري السلطان، والصدر الأعظم، وخيرة وزرائه، وبعلم كل من أخي مراد وأمه! والأقبح منه ما فعله مدحت، حيث بعد ما أعطوه مذكرة الحضور في المحكمة اتجه إلى السفارة البريطانية ووجدها مغلقة، ثم اتجه إلى السفارة الفرنسية. إن فعله هذا أثقل وطأة من الجريمة المدعى عليه، حيث لم يكن يثق بعدالة بلده وهو الذي كتب القانون الأساسي وكان الصدر الأعظم؟!

ومع ذلك كله، إني خففت عنهم حكم الإعدام إلى السجن المؤبد في الطائف. إني ضد إزهاق الأرواح مهما كانوا مجرمين. فأما موته، أنه كان موتًا طبيعيًا، ولو أردت قتله لما خففت عليه حكم الإعدام. والإشاعات طبيعية لرجل كان الأمل الوحيد للبريطانيين بأن يعمل على تمزيق دولتنا.

وأنا يا حضرة البروفيسور عملت ما عملت من أجل رفاهية البلاد. بل لو كنت رأيت في إنسان ما وعيًا ولو قليلاً، بقدر الحشرة النارية، كنت أعامله معاملة النجم دون أن أنظر إلى ماهيته ونواياه، وكنت أعلى من شأنه وأصفح عن أخطائه وأسامح تجاه أنانيته، حتى مع الذين خانوا بلادهم، صفحت عنهم، وأنا أقول ليس من عبد من عباد الله بلا خطأ.

أحد الصحفيين: ألا تزعجكم تدخل الدول الأجنبية بحجة رعاية الأقليات، وخاصة الأرمن؟

السلطان: بل إني أحس بأن أيدي الأجانب تسير متنزهة فوق كبدي وداخله. فلهذا علينا أن نرسل السفراء والبعثات إلى الدول الأجنبية كي نتعلم مما وصلوا إليه.

لا مجال لإنكار أن الأرمن في ولاياتنا الشرقية محقون في شكاواهم، ولكن لا بد لنا أن نشير إلى مبالغتهم فيها وكأنهم يتباكون من ألم لم يحسوا به. إنهم أمة جبانة تتدلل كالنساء، تحتمي بالدول الكبرى وتصرخ لأتفه الأسباب. أما الأكراد فهم على النقيض من ذلك، أقوياء جبابرة غلاظ شداد، رعاة يعيشون في هذه الولايات منذ أقدم العصور، لذا فهم ينظرون إلى الأرمن نظرتهم إلى الأجانب. فالأكراد هنا هم السادة والأرمن عبيد. أن الوضع في هذه الولايات متأزم. وعلى ممثلي الدول الكبرى أن يدركوا الصعوبات التي تعترض مشاريع إصلاحاتهم. لكن هيهات، إنهم يقيسون الأمور وفق معطيات أوروبية، وهل يعلم الأوروبيون بحاجات مجتمع على مستوى بسيط من الحضارة، وهل يعرفون مبلغ فقر البلاد، وأن أي نقص يطرأ على المحاصيل سيؤدي إلى المجاعة؟ نحن سعداء إذا استطعنا تأمين حاجات هذا المجتمع الغذائية. أما المدارس والمحاكم والمؤسسات الأخرى الهامة، فتأتي أهميتها هنا في مرتبة لاحقة. أن التطور السريع في مثل هذه الظروف الاقتصادية أمر مستحيل، وإصلاح خراب بدأ منذ قرن من الزمان مسألة صعبة. هل الأوضاع وراء الحدود في روسيا أحسن من أوضاعنا، وهل الأرمن هناك في تحرك كما يتحركون في بلادنا؟

(بعد سكوت برهة وابتسام قال)

وكما يحمي البستاني أزهاره من الحشرات الضارة، حميت أنا أيضًا بلادي من الأفكار التافهة ولم أسمح لها بقرص دولتي. عاملت هؤلاء الشبان وهم أصحاب أفكار خاطئة

بشفقة، ولم أعاملهم بظلم. ولقد حاولت مع كثير منهم على حدة أن أرشدهم إلى الطريق القويم، وعملت على تحويل نيران حماسة شبابهم إلى خير البلاد، فنجحت مع بعضهم وأخفقت مع البعض الآخر.

(في هذا الأثناء يدخل كل من الصدر الأعظم أدهم باشا وسعيد باشا، وبعد أداء الاحترامات الواجبة مع السلطان وضيوفه، يقول الصدر الأعظم)

الصدر الأعظم: يا مولانا، هذه صيغة الفرمان الثالث التي كتبتموها إلينا. اقرأه سعيد باشا لمولانا.

(يفتح سعيد المذكرة ويقرأها)

سعيد باشا: (لا يحق لأية دولة أن تعترض على عدم قبولنا الموسويين الذين طردتهم دولة متمدنة ولم تقبلهم الدول المتمدنة الأخرى، واستعمال عدم قبولنا لليهود في بلادنا كذريعة لمهاجمتنا. وهؤلاء الذين يحتجون ويعترضون علينا، كان الأحرى بهم الاحتجاج على الدول التي طردتهم ورفضت قبولهم. وبناء عليه فإن هؤلاء الموسويين لو أسكنوا في أي مكان من أجزاء الإمبراطورية، فإنهم سوف يتسللون إلى فلسطين شيئًا فشيئًا مهما اتخذت من تدابير، وسيسعون لتشكيل حكومة موسوية بتشجيع وحماية الدول الأوروبية. ولن يعمل هؤلاء في الزراعة والفلاحة، بل سيحاولون الإضرار بالأهالي كما فعلوا في البلدان التي طردوا منها. ومادام هؤلاء بصدد الهجرة إلى أمريكا، إذن فإن من المناسب أن يهاجروا إلى هناك. ونرى وجوب المذاكرة بشكل مفصل في هذا الموضوع في اللجنة العسكرية).

السلطان: ماذا تقولون يا سادة! إن روسيا تقوم بطرد اليهود بسبب اتهامهم في قضية اغتيال القيصر، وإن أمريكا، هذه الدولة الجديدة التي تهاجر إليها الأحمر والأسود

وتحتضنهم لسعة أراضيها وقلة سكانها وحاجتها إلى الأيدي العاملة، ومع ذلك تمانع من قبول اليهود. وكذلك الدول الأوروبية من إيوائهم؟ لماذا لا يلومهم أحد؟ وإذا امتنعت الدولة العثمانية عن إيوائهم نسمع أصوات الاعتراض من بريطانيا وفرنسا؟! هل تستطيع أن تفسر لي ذلك يا أيها البروفيسور؟

البروفيسور: لعلهم يؤثرون دولتكم على الأراضي الجديدة بسبب البعد التاريخي لآبائهم العظام في الشام والعراق.

أحمد جلال الدين: لو يقبل من اليهود احتجاجهم بالتاريخ، ينبغي أن يرجع البريطانيون إلى ألمانيا، والأوروبيون إلى آسيا الوسطى، والأتراك إلى بلاد المنغول، وهكذا.

السلطان: بل إن أجدادي لما جاؤوا إلى الأناضول كان عددهم أربعمائة فارس فقط، وأسسوا دويلتهم أول الأمر على مساحة 3000 كم، ثم وصلت في أوج قوتها إلى مئتي مليون كم. وإننا نحكم منذ ستة قرون نصف آسيا ونصف أوروبا ونصف أفريقيا. ثم لو استقر لهم هذا الرأي لأدى إلى سلسلة من الحروب الدامية بين البشرية. وهناك حقيقة يجب أن تعرفها اليهود قبل الناس، وهي أن تحريض البريطانيين والفرنسيين على جمع اليهود وتأسيس دولة موسوية لهم، ليس دافعه حبهم لليهود، بل إن موقفهم هذا لا يختلف قيد أنملة من حملات أجدادهم لإبادة اليهود وطردهم. إنه حقدهم القديم يدفعهم أن يبعدوا اليهود عن مجتمعاتهم بأي وسيلة. ولذا تجدهم أنهم لا يستغنون عن السود والبدائيين الأفارقة لإعمار القارات الجديدة، في حين يرفضون قبول اليهود مع أنهم تجار بالفطرة وفيهم خبراء في كل المجالات!

البروفيسور: بل لعل الدافع لهم يا مولاي أنهم رأوا أن الدولة العثمانية استغنت عن قبرص وتونس والجزائر وأخيرًا مصر لأسباب منها الضائقة المالية. وإني سمعت بأنهم وعدوكم بسداد كافة ديون الدولة العلية إن سمحتم لهم بأن يسكنوا من فلسطين.

السلطان: لو غيرك قال هذا لكان مصيره الطرد من مجلسي يا أيها البروفيسور. كيف تساوي بين ثالث الحرمين الشريفين وبين غيرها من البلدان؟! إن القدس أرضنا في كل وقت، وستبقى كذلك، فهي من مدننا المقدسة وتقع في أرض إسلامية. لا بد أن تظل القدس لنا.

الصدر الأعظم: لا أدري هل الوقت مناسب بأن أطلع مولاي بوضع جزيرة كريت؟

السلطان: جدًا، تفضل.

الصدر الأعظم: إن المسيحيون في تلك الجزيرة بتحريض من يونان يطالبون بتنصيب حاكم مسيحي على الجزيرة.

السلطان: ويظنون أني سأرفض هذا الطلب، وسيكون رفضي لهذا الطلب قرة عين يونان والدول الأوروبية، ويوقعونني في الشرك، ويدفعونني إلى حرب مع اليونان وروسيا مرة أخرى. لا، لست حماسيًا متهورًا إلى هذه الدرجة. عين عليهم حاكمًا مسيحيًا.

الصحفي: يا مولاي، إنكم لو أخرجتم الأسطول الذي حبستموه منذ سنوات لأرعبتم لا اليونان فقط، بل الدول الكبرى أيضًا.

السلطان: يا سيد، إن ربابنة سفننا أكثرهم من الإنجليز، ويعني أن أسطولنا بيد الإنجليز. وأردنا أن نغير بعض الربابنة فعلاً، ولكن هرع السفير الإنجليزي إلى القصر ولم يخجل من التحدث بصراحة. فعلى هذا يمكن أن نقول إننا لا نملك الأسطول، لأنه يستعدي علينا فرنسا وبريطانيا من ناحية، ولم يثبت فعاليته في أي عمل في الحرب من الناحية الأخرى. ولا يعقل المحافظة على شيء عديم الفائدة وينتج عنه الضرر. ولهذا سحبت الأسطول إلى الخليج، وهكذا فهمت الإنجليز والفرنسيين أنه ليست لدينا النية أن ننافسهم في البحر المتوسط، وهذا التصرف طمأنهم وجعلهم أن لا يتصادموا بنا.

البروفيسور: هناك حديث عن وجود علاقة بين دولة جلالتكم مع اليابانيين، فهل مجرد شائعة؟ أم لها حقيقة؟

السلطان: إن أبوابنا مفتوح لكل زائر يقصدنا. وعلى هذا الأساس، فعندما يتجول وفد ياباني في كل الدول الأوروبية، فمن الطبيعي أن يزورنا أيضًا. واليابانيون زاروا دولتنا العلية وعلى مستوى عالٍ مرتين بين عامي 1880 إلى 1886، وطالبونا بإقامة العلاقات التجارية والسياسية والاقتصادية، فاكتفينا بإقامة علاقات تجارية. ومن الطبيعي أن نحاول مثل الدول المسيحية استغلال هذه العلاقة لنشر تعاليم ديننا الحنيف في تلك البلد. وليس هناك أكثر من هذا. ويجب علينا أن نؤسس هذه الاتفاقيات على قواعد صحيحة مدروسة كيلا يؤدي الأمر إلى وقوع حوادث مزعجة بيننا وبين روسيا. إنني لا أنتظر من اليابان، وهي الصديقة القاصية البعيدة، نفعًا كبيرًا. ولكن علينا أن نعرف

جيدًا مدى النفع الذي نحصل عليه قبل اتخاذ أي قرار بهذا الشأن. ولكي يمكننا أن نعايش الصديق والعدو، وحتى لا نعادي أحدًا على حساب صداقة آخرين، يجب أن نحافظ على علاقتنا مع الدول في مستوى معين وكاف للحصول على النتيجة المبتغاة.

(يدخل البواب ويقول)

البواب: يا مولاي، إن السير صموئيل مونتاغو، عضو البرلمان البريطاني، يريد مقابلة جلالتكم.

السلطان: ما يكتمل المجلس إلا به، فليتفضل.

(يدخل ويقبل يد السلطان ثم يجلس، ويرحب به السلطان، ويقول الصدر الأعظم للسلطان)

الصدر الأعظم: إن السيد مونتاغو مصرفي معروف، ورئيس جمعية أحباء صهيون في بريطانيا.

(تغير وجهه السلطان عندما سمع كلمة صهيون وقال)

السلطان: جاء إلي قبلكم من نفس الجمعية السيد لورنس أوليفانت، وعرض علي عروضًا سخية في تعمير ما يسمونه أنتم بتركيا وتجديد شبابها، مقابل السماح لهم بالاستيطان في شرق الأردن وسوريا الجنوبية. ورفضت طلبه، وقلت له إن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أي جهة من المملكة إلا في فلسطين، لأن الدولة العثمانية ترحب بالمضطهدين، ولكنها ترفض مساعدة اليهود في إقامة مملكة لهم في فلسطين أساسها الدين.

فإذا جئت لنفس الغرض، فهذا الجواب ساري المفعول.

مونتاغو: جئت لأسألكم: لماذا لا تمنحون الحرية للأمة؟

السلطان: لأن الحرية سيف قاطع، والأمة جاهلة، ولو أخذوا السيف في أيديهم لذبحوا بعضهم بعضًا.

(ولأن الجواب كان حادًا وقاطعًا وقويًا، ابتسم الجميع ولم يقل مونتاغو شيئًا آخر)

(يدخل البواب ويقول)

البواب: كل شيء جاهز يا مولاي.

(ويخرج)

(وينظر السلطان إلى ضيوفه ويقول لهم)

السلطان: أعددت على شرف قدومكم مائدة، وأعددت لكم جولة في المؤسسات التعليمية والتاريخية، وندوة للأساتذة والعلماء من بلادي، فأرجو أن تنال إعجابكم.

(يقوم الجميع، السلطان والبروفيسور في الأمام والآخرين وراءهم، ويخرجون)

(ويسدل الستار)

—

الفصل الرابع :عنوان الفصل :أفعى في القفص الذهبي

المكان: قصر يلدز – إسطنبول

الزمان: 1892م

أشخاص هذه الحلقة:

1. أدهم باشا
2. سعيد باشا
3. أحمد جلال الدين باشا
4. الأمير عبد القادر أفندي
5. الأمير برهان الدين أفندي
6. أستاذ الموسيقى
7. السلطان عبد الحميد
8. تحسين باشا
9. أبو الهدى الصيادي
10. جمال الدين الأفغاني
11. عزت بك

12. البواب

(يرفع الستار)

(أدهم باشا وسعيد باشا وأحمد جلال الدين جالسون وينتظرون خروج السلطان. ويدخل كل من عبد القادر أفندي وبرهان الدين أفندي من أبناء السلطان، ومعهما أستاذ الموسيقى، فيرحب بهم أحمد ويصافحهم قائلاً)

أحمد جلال الدين: أهلاً ومرحبًا بالسادة الأمراء. هنئوا الأمير برهان الدين أفندي وأستاذه بمناسبة قيام الأمير بتلحين لحن موسيقي عدَّه كبار الموسيقيين بأنه من روائع الموسيقى العالمية يا حضرات الباشوات.

(ويقوم الباشوات ويصافحون الأميرين والأستاذ، وقبل أن يجلسوا يدخل السلطان، والباشوات يقبلون يده أولاً، ثم الأمراء، والسلطان يمسح رأس ابنيه ويصافح الأستاذ ويقول)

السلطان: أنا فخور جدًا بهم وبكم أيها الأستاذ. ولا بد من أن أهديكم هدية ثمينة، وأرجو أن تسمعوني في الحفلة المسائية الأسبوعية يوم الخميس قبل أن يبدأ عرض المسرحية على مسرح القصر.

(يدخل تحسين باشا بوجه مسرور ويقول)

تحسين باشا: لقد عاد شيخنا أبو الهدى ومعه سيد جمال الدين.

(يقوم السلطان عن كرسيه بوجه بشوش ويقول)

السلطان: مرحبًا بهم.

(يخرج ويخرج الجالسون معه لاستقبالهم، وبعد لحظات يدخلون، السلطان والشيخان يسيران جنبًا إلى جنب والباشوات وراءهم، ويقول السلطان)

السلطان: أسعدتموني بعودتكم يا شيخنا ومجيء السيد جمال الدين الأفغاني. تفضلوا بالجلوس.

(ويجلس الجميع)

السلطان: لعلك تعاتبني يا سيد وتقول: ضاع منك مصر وتونس والجزائر. ولكن يا أخي، إن أجدادي تركوا لي دولة مترامية الأطراف متعددة الأديان والأعراق، وما تركوا الصداقة مع أحد، لا الأرثوذكس ولا الكاثوليك. وكما تعرف، قبل أن أجلس على العرش قتل الانقلابيون عمي، ثم خلعوا أخي، ثم أدخلوا البلاد في حرب كاد أن نفقد فيها إسطنبول. وأثقلت هذه الحرب كاهلنا بالديون وأضعفت قوتنا العسكرية وهيبتها في قلوب الأعداء. ولهذا أنا دائمًا ضد الحرب. لو كنت اندفعت للمقاومة في تونس، لربما تسببت في ضياع سوريا. ولو وقفت بعناد في مصر، لكنت بالتأكيد فقدت فلسطين والعراق.

الأفغاني: لا تكثر من إعطائي التبريرات يا مولاي، فإني قبل أن أراكم أعرف دهاءكم. فإنكم لو وزنتم مع أربعة من نوابغ العصر لرجحتهم ذكاءً ودهاءً وسياسةً، خصوصًا في التسخير. فها هو أمير جبل الأسود وبلغاريا مع شدة شكيمتهم يلبسون شعار دولتكم الطربوش، ويفتخرون بمنحكم لهم رتبة المشيرية ويشاركون في صلاة الجمعة أيضًا. ضاقت أوروبا ذرعًا بسياستكم وحيطتكم، ويئسوا من دول البلقان، وباتوا يرون أن تجزئة دولتكم -لاسمح الله- لا يمكن إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها. فكل هذه الصفات الحميدة هي التي دفعتني لأن أمد إليكم يد المبايعة، وأعلم يقينًا أن العالم الإسلامي لا يسلم من شراك أوروبا إلا بقيادتكم والانضواء تحت رايتكم.

السلطان: إني أرى بأن الحروب الصليبية مستمرة ولكن بشكل سري. ولهذا لا بد أن يجمعنا الإسلام في كل أرجاء المعمورة لهذه المهمة. وحتى مع إيران، وعدم وجود تفاهم مع إيران أمر جدير بالتأسف عليه. وإذا أردنا أن نفوت الفرصة على الإنجليز وعلى الروس، فإني أرى فائدة في وجود تقارب إسلامي في هذا الأمر. فهذه الدولة كانت دائمًا الورقة بيد أعداء الدولة العثمانية، وبالذات روسيا.

جمال الدين: إني أقنعت بعضهم بهذا التقارب، ووعد قنصل إيران أن يبذل كل ما في وسعه من أجل هذه المحاولة الكبيرة. وكما أني في وسعي أن أثير جميع مسلمي آسيا الوسطى والسودان.

أحمد جلال الدين: وأين صناديق كتبكم وأغراضكم يا سيد، لنضعها في القصر الذي أخصه لكم مولانا؟

جمال الدين: إن معي صندوقين فقط.

أحمد جلال الدين: أنا ما رأيت شيئًا معكم؟

جمال الدين (مبتسمًا): صندوق كتبي هنا (يشير إلى صدره)، وصندوق ثيابي هذا (ويرفع عباءته).

(ويضحك الجميع، ثم يقول السيد)

جمال الدين: أنت أيها الدرويش الفاني، كن فيلسوفًا ترى العالم لُعبة، ولا تكن صبيًا هلوعًا. ممن تخشى؟ اذهب وشأنك، ولا تخف من السلطان ولا من الشيطان، إنه سيّان عندي طال العمر أم قصر. إن هدفي أن أبلغ الغاية، وحينئذ فزت ورب الكعبة.

(يبتسم الجميع ويقول الصيادي)

الصيادي: أرى أنك سويت بين السلطان والشيطان. لعلك قصدت سلطان الإغراءات المادية ودسائس الشيطان وشبهاته. ولكن سمعت بأنك حتى الآن ما تزوجت، ما سبب ذلك؟

جمال الدين: إني ما تزوجت هذه الدنيا العظيمة الجميلة، فكيف أتزوج بامرأة؟!

السلطان: كما تعرفون يا سيد، إن المعارك تدار من خلف الجبهة أكثر منها في الجبهة. وكما قلت لك بأن أجدادنا تركوا لي إمبراطورية شاسعة وهي على حافة التفكك، تتربص بها جميع الدول الأوروبية ولا تفوتون فرصة لتمزيقها. وهناك مشاكل داخلية بسبب تعدد اللغات والأديان، من الصعب إدارتها. فلم يبقَ أمامي إلا استغلال متناقضات الأعداء بدقة، وتشكيل استخبارات قوية. فأضع ألمانيا أمام بريطانيا، وأضع بريطانيا أمام أطماع روسيا، وأحاول أن أبقي فرنسا على موقف الحياد، وأدفع نمسا أمام روسيا أحيانًا ووراء ألمانيا أحيانًا. وأحافظ على التوازن الدقيق بين المقدونيين والبلغار وكذلك بين الصرب واليونان في البلقان. فحتى قطاع المرافق العامة استغلتها لهذا، أعطيت مشروع سكك الحديد لألمانيا لتخويف بريطانيا من تحديث الترابط بين المسلمين، وأرضيت بريطانيا بالبحث عن الآثار مثلاً. فإني أترك المقابل أن يأمل أن أتحالف معه ولا يقطع الأمل مني، وأن خصمه أيضًا يأمل أن لا يتم هذا التحالف بيننا. وحتى الطلب بتبرع المال لخط دمشق-مكة من المسلمين، هدفي الأساسي منها التوعوي أكثر من الاقتصادي، لكي يتجدد الترابط بين المسلمين في كل أنحاء العالم ودار الخلافة. أهدد بالأرناؤوط نمسا ودول البلقان، وأهدد بخيالة الأكراد الحميدية روسيا القيصرية، وأهدد بالعرب فرنسا وبريطانيا. فهناك حقيقة يجب أن ندركها، وهي ليست لدينا طاقة ولا القوة لمحاربة الدول

الأوروبية، لكن الدول الكبرى التي تحكم شعوبًا مسلمة عديدة في آسيا مثل إنجلترا وروسيا ترتعد من سلاح الخلافة الذي أحمله. ولهذا استطاعوا الاتفاق على إنهاء الدولة العثمانية. وكان لزامًا عليَّ أن لا أستخدم هذا السلاح خارج حدودي حتى اليوم المنتظر، لأن محاولة كهذه لم تكن تفيد إخواننا في الدين ولا بلادي. ولهذا استخدمت قوتي كخليفة في وحدة بلادي وأمنها، وهذا أسلم لإخواننا في الدين في الخارج. ولكن لا أمل في المستقبل إلا بالوحدة، ولو أن وقتها مبكر، لكن وقتها سيأتي. وإن طلبي من حضرتكم يا أصحاب السماحة أن تبذلوا أقصى جهدكم لتوحيد آرائنا، وأن نؤسس اتحادًا ثابت الأركان من الشعوب الإسلامية، ونقوي الأخاء الإسلامي بينهم، وننهض بالصناعة والعلوم في ظل الاستقلال القومي والاتحاد الإسلامي. وإني أحببت أن تشاركوني في حمل الأمانة وتملؤون للدفاع عن هذه الأمة ثغرًا. وإنني أكلفكم بمهمة وأسند إليكم منصب قاضي العسكر، وتناسب هذه المهمة حزمكم وجرأتكم، فتلبسون الجبة الفضفاضة وعليها شارات الدولة العثمانية.

(وفي أثناء كلامه يأتي أحد الخدم بالجبة)

(الأفغاني يبتسم وهو ينظر إلى الجبة ويقول)

جمال الدين: أما بالنسبة لطلبكم الكريم، أعذروني إني ما شغلت أي مناصب، لأن مرتبة العلم عندي أعلى الرتب. وأنا لا أريد أن أكون كالبغل المزركش.

(ويضحك جمال الدين الذي يلعب بمسبحته، ويضحك معه الحاضرون، ويبتسم السلطان... ثم يقول الأفغاني)

جمال الدين: أيها السلطان، خذ بحزم جدك محمود، واقطع الخائنين من خاصتك، وخفف الحجاب عنك وأظهر للملأ. ولا أرى في هذا الكون من القول والفعل ما يكون كتمانه لازماً إلا ما كان في علانيته مشينًا. ولا يكون كمال النسبي في البشر إلا متى كثر إعلانهم وقل كتمانهم. فدولة تكتم عن أمتها كل أمورها لا خير فيها. وإنكم دائمًا تذكرون مشكلة تعدد

اللغات. مع الأسف إن الأتراك لم يحسنوا من أعمال الدنيا إلا الحرب. فلو أنصفتم وأخذتم بالحزم واستعربتم الدولة، وترأستم وعدلتم في أهلها، وجريتم على سنن الرشيد والمأمون (ولا نقول على سنن الراشدين)، فتجدون أن ما كان من دول الدنيا أغنى منكم مملكة وأعز جانبًا وأمنع حوزة.

(ويشير تحسين باشا بأن يكف عن التلاعب بمسبحته أمام السلطان، فيرد الأفغاني على تحسين متعجبًا)

جمال الدين: سبحان الله! إن جلالة السلطان يلعب بمقدرات الملايين من الأمة على هواه ولا يعترض عليه أحد؟ أفلا يكون لجمال الدين الحق أن يلعب بمسبحته كيف يشاء؟

(يتنفس السلطان الصعداء وقال)

السلطان: ذكرتني بعهد جدي محمود، وما أبعد الفرق بين محيطي ومحيطه، وبين حالة أوروبا من زمانه وحالتها اليوم، وبين رعيته ورعية اليوم. ما استبدلت وزيرًا بآخر إلا ورأيت مساوي الخَلْق ما أسفت معه على السلف. ولا مناص من الصبر، وسأفعل إن شاء الله على التدريج. وإني أكلفك بمهمة فتصلحها فَتَأْبَى وتعتذر، فاعذرني أيضًا إن لم أقدم على التغيير بسرعة ولا تتناسب مع الزمان والمكان. ولا بد من كارثة تحدث فتشغل أوروبا عنا، فنغتنم بها فرصة نصلح فيها أمرنا ونلم شعثنا إن شاء الله.

أحمد جلال الدين: أحببت أن أعلق عن كلام السيد حول أمر الكتمان والعلن الذي ربما أبهره ما يُدَّعى في الغرب بأنه صراحة أو شفافية. أقول له: ما شهد أحلك العصور في الظلم والجهل مثل هذا العصر، من عدم الشفافية ووجود دهاليز الاستخبارات العملاقة والمنظمات السرية. وأي

دولة شرقية تستهين بإفشاء أسرارها للغرب الماهرين في استغلال المعلومات، فهي إما دولة ساذجة لا تدري من أمور السياسة شيئًا، أو دولة عميلة لا تريد الرفعة لشعبها وأمتها ودينها، ولا ثالث لهما.

أما قولهم في التعريب، إن الأمويين أرادوا التعريب ففشلوا، وسبب التعريب زوال ملكهم بأن الشعوب أيَّدوا العباسيين. وصار العباسيون بعدم التعريب وفرضوا ضلالات المعتزلة لفترة ثم تخلوا عنه، وأخذوا بمذهب سادة الأحناف، وهذا ما عليه نحن.

الأفغاني (دون أن يكلف نفسه عناء الدفاع عن رأيه قال): إنكم أشرتم إلى القضية المصرية، لكن إن لمصر موقع استراتيجي مهم، كيف استغنيتم عنها؟ أما والله، لو علمتم ما لكم من السلطة المعنوية على رعايا الإنجليز، واستعملتم تلك السلطة بعقلانية، لما تجرعتم مرارة الصبر على تحكمات الإنجليز في تعديهم على حقوقكم في المسألة المصرية التي هي أهم مسألة إسلامية.

السلطان: إن الخديوي إسماعيل أخذ إذن الاستدانة من الدول الأجنبية من عمي السلطان عبد العزيز، وتورط في استدانة مبلغ ضخم من الخارج، واضطر إلى بيع قناة سويس، وما نجح في سداد الديون، فاضطر إلى حكم مصر بالتناصف وإشراك فرنسا وبريطانيا في حكم مصر، مما حرك المشاعر الوطنية، فعزلت إسماعيل ونصبت ابنه توفيق مكانه. وهو شكل وزارة وطنية مما أغضب بريطانيا وفرنسا، واقترحوا علي أن أقوم معهما بحملة عسكرية ضد الوطنيين ثم أسلم الفريسة لهما. وهل هذا معقول؟ فإن لم أستطع تحمل ديون مصر ولا أن أدافع عنها، فعلى الأقل لا أشارك الأجانب في قمع الوطنيين؟

وفي الحقيقة أن أكثر ما يجب على المرء أن يحذره من بين الدول الكبرى هو إنجلترا، فإن الإنجليز قوم لا يحترمون عهدًا ولا ذمة. وقد أوضح اللورد كرانفيل في شهر تشرين الثاني من عام 1882 أنها تتعهد بتطبيق

ما ورد في الفرمانات التي أصدرناها. وأعلن الأميرال سيمور في تموز عام 1882 أن الإنجليز لا يفكرون في السيطرة على مصر واغتصاب حقوق المصريين بأي شكل من الأشكال. وصرح دوفريه السفير الإنجليزي في إسطنبول بأن إنجلترا لن تطالب بأية امتيازات في مصر ولا حتى التجارية منها. وعندما وصل الجيش الإنجليزي مصر ادعى الجنرال وولسيلي أن دخول هذا الجيش كان بقصد الحفاظ على سمعة الخديوي. لقد نسيت إنجلترا كل هذه الوعود وعملت على كسر شوكة مندوبنا السامي في مصر، وتمكنت من تجريدنا من كل شيء لنا في مصر. ولعل أشد ما يحيرني من أمر فرنسا هو بقاؤها مكتوفة الأيدي حيال كل هذه الألاعيب التي يلعبها الإنجليز.

جمال الدين (متحيرًا): وما علاقة فرنسا بمصر؟

السلطان: حاولت تأمين التدخل الفرنسي في مصر، لكن جهودنا باءت بالفشل. وصرف السفير الفرنسي كل إمكاناته. حتى أن فراين طلب من مجلس النواب الموافقة على إنزال قوة عسكرية في التل الكبير، لكن هذا الطلب لم يُقَدَّر له النجاح خوفًا من نقمة الرأي العام الفرنسي الذي لم ينسَ بعد أحداث تونكين. لا يريد النواب الفرنسيون أن يقتنعوا بأن فرنسا لا يمكنها أن تكون الحاكم الوحيد في مصر. حقًا إنهم قصار النظر. إنه لن يمضي وقت طويل حتى ينجح الإنجليز في ضرب النفوذ الفرنسي في مصر والانفراد بالسيطرة على قناة السويس. سيرى الفرنسيون بعد زمن ليس ببعيد أنهم أصبحوا في منأى عن شؤون مصر.

(ثم قال السلطان)

السلطان: إن بلادنا كانت وستبقى قلعة للإيمان وحصنًا حصينًا لهذا الدين. فإذا زال المفهوم الديني عن الإمبراطورية العثمانية فقد زالت دولتنا. وإنه

لمن دواعي الأسف وقوع بعض الشعوب المسلمة تحت نير استعمار الدول الكبرى. ولم يبقَ داخل الإمبراطورية سوى عشرين مليونًا من المسلمين، ومع هذا فقلوب المسلمين جميعًا مرتبطة بإسطنبول. وقد نجح أعداؤنا في التغلب على قوانا المادية، لكن قوانا المعنوية ستبقى صامدة. ويجب علينا أن نقوي صلاتنا بالبلدان الإسلامية وأن يكون التقارب أحسن مما هو عليه الآن. ولا أمل لنا بالمستقبل إلا بالوحدة. فإن بقاء الوحدة الإسلامية يعني بقاء إنجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا تحت نفوذنا، حيث إن كلمة واحدة من الخليفة تكفي لإعلان الجهاد في البلدان الإسلامية الواقعة تحت سيطرة هذه الدول مما يؤدي إلى وقوع الكارثة بالنصارى. ولا بد أن يأتي يوم يقوم فيه المؤمنون قومة رجل واحد ويحطمون أغلالهم. هناك 85 مليونًا من المسلمين يحكمهم الإنجليز، و30 مليونًا يحكمهم الهولنديون، و10 ملايين يحكمهم الروس، ومسلمون في مناطق أخرى من آسيا وأفريقيا حيث يبلغ المجموع العام 250 مليونًا يرجون من الله النصر ويوجهون أنظارهم وآمالهم صوب خليفة المسلمين. فهل يجوز لنا في هذه الحال أن نبقى ضعافًا أمام الدول الكبرى؟ يجب علينا أن نقوي الأواصر الإسلامية بحيث يتساند مسلمو الصين والهند وأفريقيا مع باقي المسلمين في شتى أنحاء الأرض. وإنه لمن دواعي الأسف ألا يقوم أي تعاون بيننا وبين إيران، وقد كان عليها أن تسعى إلى التقارب معنا كيلا تصبح لعوبة بيد روسيا وإنجلترا.

جمال الدين: يمكن توحيد السنة والشيعة إذا أظهر كل منهما حسن النية تجاه الآخر. في الحقيقة إن بعض الملوك من السنيين هولوا وأعظموا أمر الشيعة لاستهواء العوام بأوهام غريبة وعزويات عجيبة على شيعة أهل البيت، ليتسنى لهم بذلك تخريب الأحزاب وتجييش الجيوش ليقتل المسلمون بعضهم بعضًا. وهناك أمل قوي في التقارب، فإذا تحققت هذه الأمنية تحقق به إنجاز عظيم للإسلام. ووعد قنصل إيران في إسطنبول الحاج ميرزا خان بذل جهوده لتحقيق هذا الهدف. كما جمعت عددًا من أنصار هذه الفكرة في داخل الإمبراطورية وفي إيران، وسيؤدي هذا السعي إلى تقارب

أكثر بين الدولتين. وإن لم يحقق الهدف، يجب علينا مضاعفة الجهود وبذل التضحيات لجعل ذلك الأمر المنشود حقيقة ملموسة.

ولو نظرنا إلى حقيقة الأمر بدون تهويل لوجدنا أنه: لو اجتمع أهل السنة ووافقوا المفضلة من الشيعة وأقروا بأن عليًا أولى بالخلافة قبل أبي بكر، هل ترتقي بذلك العجم وتتحسن حال الشيعة؟ أو لو وافقت الشيعة السنة بأولوية أبي بكر، فهل ينهض ذلك السنة مما وقعوا فيه من الذل والهوان وعدم حفظ الكيان؟ أما أن للمسلمين أن ينتبهوا من ذلك الغفلة؟!

يا قوم، وعزة الحق، إن أمير المؤمنين عليًا لا يرضى عن العجم والشيعة إذا قاتلوا السنة وفرقوا عنهم لمجرد تفضيله على أبي بكر. وكذلك أبو بكر فلا يرضيه أن يدافع السنة عنه وتقاتل الشيعة لأجل تلك الأفضلية التي مر زمنها. وكفى أن يقال لحل الإشكال: إن أقصر الخلفاء الراشدين عمرًا تولى الخلافة قبل أطولهم عمرًا. ولو تولى الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب لمات أبو بكر وعمر وعثمان ولم يتيسر لهم خدمة المسلمين. حكمة الله في خلقه، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم.

وإني أتعهد بدعوة علماء الشيعة والسنة لهذا المشروع كما عرضتم علي. وأرجو أن توافقوا على إعطاء العتبات المقدسة الواقعة في العراق لتضم إلى الحكومة الإيرانية، مقابل موافقتها على الدخول في الجامعة الإسلامية. وأقترح أن يُعقد مؤتمر في إسطنبول، يجتمع فيه مندوبو الحكومات والشعوب الإسلامية للتباحث حول الموضوع، ويرجع إليه في حل المشاكل والقضايا.

وليكن هدف المؤتمر جمع شمل الحكومات المسلمة في مشروع مشترك لإعادة الجهاد المقدس في كل البلاد الإسلامية في حالة تعرض أحدها لأي عدوان من دولة أوروبية، ومقاطعة البضائع الأوروبية. وأراسل جميع العلماء والأدباء والثوريين في كل البلاد الإسلامية بلغات مختلفة، من الهند وأفغانستان إلى مراكش ومصر، أدعوهم فيها إلى إحياء دولة الإسلام. ولا شك إن العلاج الوحيد لنا ينحصر بأن يحذو المسلم طريق القرآن وتعاليمه، والاقتداء بالمسلمين في صدر الإسلام، والسير في الوصول إلى صفاء

النية. فالإصلاح الديني لا يقوم إلا على القرآن وحده أولاً، ثم فهمه فهمًا صحيحًا حرًا.

الصيادي: ولكن إننا نقرأ من عصر الصحابة وإلى الآن بأن سيدنا أبا بكر أفضل الأمة بعد النبي، وبعده سيدنا عمر، وبعده سيدنا عثمان، ثم سيدنا علي، وهكذا بالترتيب. وهو جزء من العقيدة.

الأفغاني: خبر نازل من السماء بالقرآن، أم فهم بعض الناس يا شيخ؟ فإن السنة متفقون على أن النبي ما عين أحدًا مكانه. أما مسألة الأفضلية، مسألة نسبية، وهو ما قرره النبي بقوله: "أرحمكم بأمتي أبو بكر، وأشدكم في أمر الله عمر، وأقضاكم علي، وأعلمكم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضكم زيد"، وهكذا. ولكن نرى أن هذه القاعدة تتغير، فإن عمر الخليفة مختلف عن عمر الوزير للنبي. ولا يشترط أن يكون الأفضل عند النبي أفضلًا عند الله، فإنه قال: "أحب الناس إلي عائشة" نساءً ورجالًا، مع أن فاطمة كانت موجودة وهي الأفضل لقوله صلى الله عليه وسلم: "أفضل نساء العالمين خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون". فإنه صلى الله عليه وسلم أحب المفضول مع وجود الأفضل الأحب إلى الله، بدافع الغريزة البشرية.

أحمد جلال الدين: يا سيد، بحكم احتكاككم بالتجارب الساخنة في كل من الهند وإيران ومصر، وإقامتكم في كل من باريس وموسكو وميونخ ولندن، اتضح لكم جوهر الصراع بين الشرق والغرب. فلو أفدتمونا بشيء مما في جرابكم.

الأفغاني: هذا العراك بين الشرق والغرب، وقد لبس كل منهما درع الدين - الإسلام والمسيحية - وأهل الديانتين كالآلة الصماء بأيدي محركيها.

فالقائمون بالنصرانية يسخرون الدين لأجل الدنيا ويحسنون أمر دنياهم وما يتطلبه مظاهر الحياة. والعاملون بالإسلامية يسخرون الدنيا لأجل الدين، وإذا لم يعملوا به يخسرون الدين والدنيا معًا. فاختلاف أهل الأديان فليس هو من تعاليمها ولا أثر له في كتبها، وإنما هو صنع بعض رؤساء أولئك الأديان الذين يتجرون بالدين ويشترون بآياته ثمنا قليلاً. إن الأديان الثلاثة: الموسوية والعيسوية والمحمدية على تمام الاتفاق في المبدأ والغاية. وعلى هذا، إليّ بارق أمل كبير أن تتحد أهل الأديان الثلاثة، مثلما اتحدت الأديان في جوهرها وأصلها وغايتها. وبهذا الاتحاد يكون البشر قد خطا نحو السلام خطوة كبيرة في هذه الحياة القصيرة. ولكن لما علمت أن دون اتحاد أهل الأديان تلك الهوات العميقة، وكل فرقة بمنزلة حانوت، وكل طائفة كمنجم من مناجم الذهب والفضة، ورأس مال تلك التجارات ما أحدثوه من الاختلافات الدينية والطائفية والمذهبية، على حد قول الشاعر:

قد يفتح المرء حانوتًا لمتجره وقد فتحت لك الحانوت في الدين

صَيَّرت دينك شاهينًا تصيد به وليس تفلح أصحاب الشواهين

تحسين باشا: هذا على مستوى النظري المثالي. ولكن تطبيقيًا، منذ أرسل الله هذا الدين خاض المعركة تلو المعركة مع أتباع الديانتين.

الأفغاني: إن مسألة الدين لم تكن هي وحدها الفاعلة في أمر المسألة الشرقية، التي امتدت وستمتد إلى تركيا وستعم كل قارة وحكومة تتفق في أشكالها وحكمها وتفريطها مع حكومة تركيا. وإن فتح القسطنطينية هي التي ولدت الحقد في ملوك المسيحيين ضد المسلمين. لقد علقت على كتاب لضياء باشا سابقًا، ومما كتبت له، بأننا ما استفدنا دينيًا من فتح ولايات شاسعة، لأنه كما نرى أن نصارى الساكنين في الدولة العثمانية هم أشد تمسكًا بالنصرانية من ذي قبل. ولو حكمهم الكنيسة لسئموا منها، وكنا نشهد الثورة الفرنسية الشرقية أيضًا، و...

السلطان: أنا أسف على المقاطعة يا سيد، ولكن لي بعض التوضيحات. إنكم في بعض خطاباتكم مطاطيون، تدعون إلى الثورة والجهاد على أساس ديني أحيانًا، أو على أساس مذهبي أحيانًا كما فعلتم في إيران، أو على أساس إقليمي أحيانًا كما فعلتم في مصر، أو على أساس قومي عربي أحيانًا. وإنكم متحمسون في كل مرة لكل من هذه التوجهات المتناقضة. وأضفتم الآن اتجاهًا آخر وهو الإنسانية جمعاء. وأما في أن العداوة بيننا وبين المسيحيين بدأت منذ فتح القسطنطينية، فليس بصحيح، بل بدأت بشكل مباشر وأبدي منذ فتح بيت المقدس. ولا يزال هذا الحرب كليًا إلا أن نستغني عن بيت المقدس، وإننا لا نفعل هذا أبدًا. نعم هناك تعاهدات وهدنة، لكن لا ينتهي الحرب بيننا إلا بتركنا هذه المدينة.

أحمد جلال الدين: هذه النظرة مخالفة لما تنادون به من تجمع المسلمين على أساس الدين، ومتفقة مع مبادئ الماسونية في وحدة الأديان والتآخي في الإنسانية.

الأفغاني: إن الإنسان من أكبر أسرار هذا الكون، وسوف يستجلي بعقله ما غمض من أسرار الطبيعة، فيرى ما كان مستحيلًا قد صار ممكنًا. وهل يبقى مستحيلاً إيجاد مطية توصله إلى القمر أو الأجرام الأخرى؟ وإن العلم الصحيح، لهو العلم الذي ينتهي الإنسان عن الفساد في الأرض وسفك الدماء. فسمِّ هذا القدر من العلم ما شئت، وما بعده فهي خرافة وليس بعلم. ولا يقدر الفرد ولا تقدر الأمة والأشياء والمكتسبات العلمية إلا بنسبة ما يترتب على ذلك من الفائدة. وإن التنافس الوحيد الذي يدعو إليه أي دين سماوي إنما في سبيل الخير والتقدم فقط. وفي ذلك فاليتنافس المتنافسون.

ولما كانت وحدة الإنسانية وتعايشها معًا أسمى غاية، ومؤثراتها المادية وهي الأهم، وهي أولاً: اللسان، وثانيًا: الأخلاق والعوائد، وثالثًا: الإقليم. فأما الرابع فهو الدين، وهو مؤثر غير مادي طارئ.

وأما وحدة الأديان، أما جاءت كل الأديان لتقول للإنسانية بأن الإنسان ملك الأرض وأشرف المخلوقات؟ ألا يعد كل دين من الأديان الثلاثة أمته أشرف الأمم؟ ألا يجزم كل من الأديان الثلاثة بأن عيشنا في هذه الدنيا دار الأحزان لتحصيل العروج إلى عالم أوسع وأرفع وأبدي؟ ألا تتفق الأديان الثلاثة على إفشاء الصدق والأمانة والحياء بين مجتمعاتهم، لأن الحياة بدون هذه الخصال يتحول إلى حياة حيوانية؟ فإن الدين بهذا الشكل أساس المدنية، وإن الكفر فساد العمران. انظروا إلى الأقاليم التي ظهرت فيها الأديان، ومدى اختلاط طقوس العبادات مع حاجات تلك الأقاليم. ترى في جزر جاوا بأن لهم طقوسًا وصلاة لمنع البركان، وفي الإسلام طقوس للاستسقاء وتقديس ماء زمزم. وأديان مناطق الباردة يقدسون النار.

تفضل السلطان بأن القدس وليس القسطنطين سبب الصراع بين الشرق والغرب، وأنا أسأل: ما سبب صراع الشيعة والسنة والتي تكاد تساوي في عمقها وضررها وطولها صراع الشرق والغرب؟ فالعالم المسيحي بعد حروب طويلة توحدوا، واحتضنوا اليهود بعد أن كانوا يقتلونهم.
والمسلمون مازالوا يقدسون القشرة ويتركون الجوهر. وعزة الحق إن هذه المذاهب التي اتخذتموها كأساس للدولة، من الصوفية والجعفرية والمالكية والوهابية، ما هي إلا حوانيت للمتاجرة بالدين، ما أنزل الله بها من سلطان. يستفيد منها قلة قليلة وتقع الكارثة والتفرقة على الأمة الإسلامية.

الصيادي: ومن هنا اقتربت من مذهب الاشتراكية التي تقول بأن الأهم هو الأنفع للعامة. ولكنك أحطت من شأنها في ردك على الدهريين.

الأفغاني: يبدو أن الذي ذهب إلى مصر لا بد أن يكون له قول جديد مخالف لأقواله القديمة. فإن الدعوة الاشتراكية، وإن قل نصراؤها اليوم، فلا بد أن تسود في العالم يوم يعم فيه العلم الصحيح، ويعرف الإنسان أنه وأخاه من نسمة واحدة، وأن التفاضل إنما يكون بالأَنْفَع من المسعى للمجموع. وهو مذهب سيد البشرية يا شيخ، إنه هو القائل: "أفضل الناس

أفضلهم عملًا"، "خير الناس أنفعهم للناس"، "وإن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلفت الناس"، "وخير عباد الله أحسنهم قضاء"، "وأكمل المؤمنين إيمانًا"، "أو أحب الناس إلى الله أحسنهم خلقًا"، "وأفضلهم إسلامًا من سلم المسلمون من لسانه ويده".

السلطان: إنكم تعرفون يا سيد بأن البشرية بدأت من عائلة واحدة، ثم تفرقت العوائل في العالم سعيًا وراء رزقهم، وبمرور الزمن أصبحت هذه العوائل قبائل. ثم دفعت الحاجة هذه القبائل إلى التجمع ليكونوا عشيرة ويكون لهم لغة، ومن هنا ظهرت الدول البابلية والآشورية. وأما دائرة الأديان فهي أوسع من هذا، لأنك ترى في دائرة الدين عدة لغات وأعراق. ولكن الأديان قبل الإسلام ما جوزوا تعدد الأديان في دوائرهم، فأنت قرأت عن دولة الكنيسة فهم ما سمحوا بوجود الدين اليهودي أو الإسلام. وجاء الإسلام ووسع الدائرة، فاجتمعت في بيت الإسلام الأعراق والأقوام والأديان بدون أن يتعاركوا، لأن القرآن شرع كيفية التعايش. أما حرية العقيدة فلم تلق احترامًا في أي بقعة من بقاع الأرض كما لقيته في البلاد الإسلامية. وليس على وجه الأرض أمة فيها كرم أمتنا، إذ كنا ملجأ لكثير ممن طردوا من أوطانهم. وقد تحملنا خطر الحرب ضد روسيا فآوينا البولونيين. إن سبب تعثرنا في خطانا هو انعدام التماثل بين الشعوب التي تعيش داخل إمبراطوريتنا، حتى النصارى عندنا ينقسمون إلى مذاهب وطوائف. وطبيعي أن يكون لهذا الوضع الأثر الكبير في التفكك. وإذا أمعنا النظر في أوضاع بعض الدول كألمانيا مثلاً، نجد أنها مبتلاة بمثل ما ابتلينا به.

إن اجتماع أديان ومذاهب مختلفة في دولة واحدة أمر ضار، إذ يتصارع أتباع هذه الأديان والمذاهب فيؤدي هذا الصراع إلى إضعاف سلطة الدولة. ولكن إلى هذه الساعة فإنك إذا قارنت بين المدارس والكنائس لهم في دار السعادة أو في القاهرة مع مساجدنا ومدارسنا في مدن حكمناهم سبعة قرون في الأندلس، لظهرت لك مدى تسامحنا وتعسفهم. وإن اتهامنا بعدم التسامح إن دل على شيء فإنما يدل على جهالة أصحاب الاتهام. لو أننا أقللنا من

التسامح الذي كنا فيه لما آلت إمبراطوريتنا إلى الحال الذي نحن فيه الآن، ولكنا في وضع أقوى وأمتن. ولو أجبرنا الفئات غير المسلمة على اعتناق الإسلام في بلادنا لما كنا نأسف اليوم على الفرقة الناشئة عن اختلاف الدين. ولا زلنا حتى يومنا هذا مستمرين في إعطاء الحقوق والامتيازات لغير المسلمين. فهم يتعسفون باسم حب الوطن، وكأنهم هم وحدهم يحبون أوطانهم! وإذا كان النصارى يحبون أوطانهم، فنحن نحب ديننا الذي يأمرنا بحب الوطن. هذا هو التعصب الذي ينسبونه إلينا. إن كل مسلم مؤمن يعتز بدينه، وقد أمر الإسلام بالمساواة بين المسلمين، وبحماية الضعيف، وحب الخير، والابتعاد عن الشبهات والأساطير والخرافات. إننا قوم أعزنا الله ورفعنا بهذا الدين. إن الإمبراطورية العثمانية دولة احتوت عددًا كبيرًا من الأمم والشعوب، وتشكلت من الأتراك والعرب والأكراد والأرناؤوط والبلغار واليونان والزنوج، حيث جمعتهم الرابطة الإيمانية وجعلتهم أفرادًا في عائلة واحدة. فعلينا والحالة هذه أن نعتبر أنفسنا مسلمين قبل أن نكون عثمانيين، فإن الدين هو أساس البناء السياسي والاجتماعي للدولة. علينا أن نعترف وبكل أسف بأن الإنجليز استطاعوا بدعايتهم المسمومة أن يبثوا بذور القومية والعصبية في بلادنا. وقد تحرك القوميون في الجزيرة العربية وفي ألبانيا، وظهرت في سورية بوادر تحرك مماثل. بدأ بعض الشباب الذين اكتسبوا قشور الحضارة الأوروبية بإلقاء خطب في الدعوة إلى حب الوطن. لكن حب الوطن في بلادنا العثمانية يجب أن يأتي في المرتبة الثانية بعد حب الدين الذي يحتل المرتبة الأولى. والدين دائرة أوسع من دائرة الوطن والقوم. أليس الكاثوليك في أوروبا يقدمون الكنيسة الكاثوليكية والبابا على الوطن؟ بذل الإنجليز جهودًا كبيرة في الدعاية للإقليمية في البلاد الإسلامية بغية إضعاف هيبتنا، وقد لقيت هذه الدعاية قدرًا من الرواج، فخُدِع بها كثير من المصريين وبدؤوا بالانتقاص من الإسلام ومن خليفة المسلمين.

ومن وسائلهم لنشر هذه الأفكار إنشاء المدارس الخاصة التي تشكل خطرًا كبيرًا على بلادنا. وقد كان خطؤنا جسيماً إذ سمحنا لكل دولة في كل زمان ومكان بإنشاء المدارس التي يرغبونها، والآن نجني ضرر ما زرعنا.

سمحنا لهم بفتح هذه المدارس فقاموا يعلمون الطلاب أفكارًا معادية لبلادنا. وإن التصدي لهذه المدارس ليس بالأمر الهين، إذ يظهر أمامنا قنصل دولة أو سفيرها فيحميها من أن تطالها أيدينا. لقد ارتفع عدد المدارس منذ اعتلائي العرش إلى عشرة أضعاف ما كانت.

في بلادنا عدد كافٍ من الموظفين والجنود. إننا بحاجة إلى تطوير المعاهد العليا، وهذا أمر في غاية الصعوبة بسبب جمود علمائنا المفرط. أما الأزهر في مصر فقد فهم علماؤه ضرورة الاستجابة لمتطلبات العصر فاستقطب عددًا كبيرًا من شبابنا.

الصيادي: لعلكم يا سيد بالغتم من المثالية النظرية، وما التفتتم إلى الجانب التطبيقي. فالدعوة إلى الإنسانية قديمة، نادت بها أفلاطون والفارابي في جمهورياتهم ولكن بشكل مثالي وخيالي وبعيدًا عن الواقع، ثم ما حددوا أي آليات وتشريعات لتكون هذه المثالية واقعًا مجسدًا، إلى أن قام الدين الإسلامي بهذه المهمة الشاقة على أروع الأشكال.

الأفغاني: إن ما تفضلتم به هو قدر مطلوب من الدين النافع، وما زاد عنه فهي خرافة وبدعة. فالأديان جاءت لتذكير بني آدم بأنهم كانوا من عائلة واحدة. فمن أين جاء الاستعباد والظلم؟ وإذا زاد بعض من يلبس لباس التدين غاية أخرى للدين غير إعادة الإنسانية التي كانت عائلة واحدة إلى وحدة الإنسانية، فهذه بدعة ما أنزل الله بها من سلطان.

السلطان: سفير العجم قصدني ثلاث مرات فحجبته في المرتين الأوليين، ثم إذنت له فطلب مني أن آمرك بالكف عن التعرض للشاه بسوء. فأرجو أن تلتزم بذلك.

الأفغاني: امتثالًا لأمر الخليفة، قد عفوت عن شاه العجم. وسمعت أيها السلطان أن وفدًا يابانيًا طلبوا منكم إرسال من يعلمهم الإسلام. وإني أرى بأن علماء المسلمين نفروا المسلمين من الإسلام، فأجدر أن ينفروا الكافرين. ورأيي أن ترسلوا إلى الإمبراطور هدايا مع كتاب تعدونه بتلبية طلبه، ثم نجتهد في تخريج طائفة من العلماء يصلحون للدعوة، ويدخلون إليها من باب معقول. وكما لي طلب من مقامكم بأن تعينوا أحد طلابي المصريين في القصر.

السلطان: هل من مطالب أخرى يا سيد؟

الأفغاني: أنا ليس لي مطالب شخصية، كل مطالبي هي إصلاح حال الأمة. فإني أرى بأنكم إذا اخترتم الحكم اللامركزي، وقسمتم الدولة العلية إلى خديويات، وأرسلتم إلى تلك الولايات أمراء بني عثمان فيتدربون على إدارة البلاد بدلاً أن يجلسوا مع النساء، وإنكم تكونون ملكًا لهؤلاء الملوك. وبهذا تعرفون نوعية الأمراء والأصلح منهم للحكم، وكما تكون هناك منافسة شريفة في التقدم، مثلما ترونه في إدارة بريطانيا لمستعمراته.

السلطان: يا سيد، إنك عشت في مصر الذي لم يكن تنتمي إلى الدولة العثمانية إلا بالاسم، وكذلك تونس والمغرب قبل احتلالهما. بل خير مثال هو بلدكم أفغانستان، فما رأينا أي تقدم يذكر. فلا تستعجل في إصلاح الأمور، إن العجلة لا يُحمَد عُقباها.

(ثم يلتفت السلطان إلى الصيادي ويقول)

السلطان: إنتم استمروا في مجلسكم، فإني أستأذنكم. وإني أعددت مأدبة على شرف قدومكم، فيسرني حضوركم فيها.

(قال هذا وقام وخرج مع تحسين باشا)

الصيادي: كيف رأيتم المدنية الغربية يا سيد؟

الأفغاني: لو جمعنا كل مدنيتهم وخيراتهم وضاعفناه أضعافًا ووضعناه في كفة الميزان، ووضعنا الحروب وويلاتها في الكفة الأخرى، فلا شك أن كفة أويلات الحروب هي التي تعلو. فالحرب أقبح ما يعمله الإنسان. قلة قليلة تعلن الحرب وتسفك الدماء لعدم احترام سفير أو الاستيلاء على قطعة أرض. وإن عدم إجابة الأمم لداعي الحرب واتفاقهم فيما بينهم على تحكيم العقل هو الذي يكفي البشر شر الحروب، ويجعل الخلق في سلام دائم. فلو أخذت عموم عساكر بريطانيا وتخيلت حقائق مثل نيوتن وداروين، فهل يقفون صفًا للاقتتال؟

أحمد جلال الدين (مبتسمًا): الله أكبر! أين ذهب الحماس والثورة يا سيد؟ هبَّ أن داعي الحرب كان المجاهد السيد الأفغاني في مرقد عبد العظيم، أو في مصر، أو في الهند، أو في باريس. إنكم أحيانًا ثوريون اشتراكيون، ولكم حالات يهتفون للوحدة الإنسانية والأديان والسلام العالمي.

الأفغاني: الثورة ضد الاستبداد أمر مشروع ومقدس، فإني ضد الحروب بين الدول.

الصيادي: إن الحوار الذي يزيل الإشكالات بين الدول ويقيهم ويلات الحرب، فهو الأولى أن تكون وسيلة مطروحة بين الحاكم والرعية. فمصالح الدول غالبًا متناقضة، أما مصالح الحاكم مع رعيته غالبًا متشابكة ومترابطة.

أحمد جلال الدين: كانت آراؤكم في الرد على الدهريين قاسية على الداروينية، ولكن في المناقشة التي جرت بينكم وبين أرنست رينان الذي قال في حقكم: "خيل إلي أنني أتكلم مع ابن سينا أو ابن رشد أو أحد الملحدين العظام الذين ظلوا لقرون تعملون على تحرير الإنسانية". ولكنكم ما رددتم على ذمهم في قالب المدح.

الأفغاني: إن الرجل يرى التحرر في الإلحاد لذا وصفني هكذا. أما المذهب الداروينى فإني لي فيها قول جديد أيضًا. فالتنازع للأقوى موجود في عالم النباتات التي تتنازع فيما بينها على الغذاء فتبقى النبات القوي على نزع الغذاء الموجود ويبيس الضعيف. وحتى في خلايا الإنسان، إن كريات الدم في تسابق دائم إلى الغذاء فيغلب القوي فيها الضعيف. وحتى في عالم الأفكار، التي ما تكلم فيها أحد قبلي، إن الأفكار تتجدد ومعقولات عن أخرى تتولد، وصفات تسمو حتى يفوق اللاحق السابق، ويظن الناس أنها تصرف الطبيعة، ولكن الحق أنه ثمرة الاكتساب.

أما الانتخاب الطبيعي فهو أمر معمول به في انتخاب الزوجات وتحري الأمهات النجيبات، أو في تحسين نسل الخيل. فعُمومًا، إن كل ما جاء في المذهب الطبيعي من حصر الأحياء بأنواع قليلة وتفريع باقي الكائنات منها لا يضر التسليم به.

(يدخل تحسين باشا ويقول)

تحسين باشا: تفضلوا إلى أكل العشاء.

(ويقوم الشيخان ويذهبان، ويبقى جلال الدين وهو يتمشى في قاعة المسرح، يدخل برهان الدين أفندي ويسأله)

برهان الدين: أراك قلقًا وكأنك تفكر في شيء مهم؟

أحمد جلال الدين: يريد السيد أن تقوم الأمم الشرقية بالثورة على مستبديها، وبعد ذلك يسلم الشعوب والأوطان وخيراتهم إلى الأمم المتحضرة القوية بطريقة الانتخاب الطبيعي والبقاء للأقوى.

برهان الدين: ومن هم المستبدون؟

أحمد جلال الدين (يسير نحو المدخل ليخرج ويجيبه): أنتم وأبوكم.

(يدخل عزت بك ويقول)

عزت بك: وكيف حال السيد الأمير؟ نهنئكم بتفوقكم في مملكة الموسيقى. لا بد لمولانا المحنك في السياسة أن يكون ابنه بارعًا في الموسيقى، فهما مكملان لبعضهما.

برهان الدين: من باب أن السياسة مسبب الضجر والقلق، وأن الموسيقى تجلب الاسترخاء والراحة للفكر والقلب.

عزت بك: أحسنت. وأين أحمد جلال الدين باشا؟

برهان الدين: أصابه الضجر بسبب السياسة فخرج.

عزت بك (وبيده بعض الأوراق): والله لو رأى هذه الأوراق وسمع الأخبار ربما أصبح ضجره شبه الجنون.

برهان الدين: ها هو قد عاد. وأما أنا لا أريد الضجر ولا شبه الجنون، ولذا أترككم.

(ويخرج)

عزت بك: هل عرفت بمغامرات السيد الأفغاني ومراسلاته إلى مراجع الشيعة؟

أحمد جلال الدين: بعض الشيء. إنه كتب العديد من الرسائل والخطابات لعقد مؤتمر إسطنبول. وما أستغربه منه أن يخص علماء نحلته برسائل خاصة، وإن كان من المفروض أن أطلع على كل الرسائل بصفتي رئيس الاستخبارات العامة، وهذا من اختصاصي. لكنه حصل على هذه الجزئية من الحكم واستبد فيها، مع أنه دائمًا يتحدث عن حكومة الشورى وإسناد الأمر لأهله.

عزت بك: إنه راسل علماء الشيعة وحرضهم على الثورة والعصيان. ووقعت إحدى هذه الرسائل المرسلة إلى أحد علماء الشيعة بأيدي القنصل الإيراني ببغداد، فأرسلها إلى ناصر الدين شاه موضحًا له بأن السيد جمال الدين اتفق مع أغلب العلماء لتسليم إيران للسلطان العثماني تحت ستار الوحدة الإسلامية. فأرسل ناصر الدين شاه أمرًا إلى سفيره في البلاط العثماني يأمره بإلقاء القبض على الإيرانيين الثلاثة الذين تعاونوا مع الأفغاني في كتابة الرسائل وتسفيرهم إلى إيران، حيث أعدموا في تبريز. وأرسل السيد أحد تلاميذه، وهو المدعو محمد رضا الكرماني، لاغتيال ناصر الدين شاه، صرخ عند إطلاق الرصاص: "خذها من يد جمال الدين".

وبعد هذه الحادثة، أرسل خان أسد آباد رسالة يطلب من مولانا السلطان أن تسلمهم المواطن الإيراني جمال الدين أسد آبادي لينال جزائه. والسيد جمال الدين يحاول أن يلجأ إلى سفارة أسياده البريطانيين ليحموه.

أحمد جلال الدين: هل أخبرت السلطان؟

عزت بك: نعم، فقد أرسل في طلبه.

(يدخل السلطان ومعه الشيخ الصيادي، وهو يكلم السلطان ويقول)

الصيادي: إنه من أجلاف الشيعة المارقين من الدين. وطلب الشاه البائد في الأصل كان طلبًا بريطانيًا ليزعزع أمن دولتنا ويثير الشكوك في عقائد الناس، ويسبب في اختلافنا مع إيران بشكل أوسع وأعمق. وهو يظهر بأنه يريد التقارب بين المذهبين، وبأفعاله يبعدهما عن البعض.

السلطان: حسبت الحساب لكل الأبعاد يا شيخنا. تفضل بالجلوس. إن وجوده في لندن كان أخطر على مصالحنا. إنه عقد جلسات سرية مع كل من الاتحاديين والجماعات الاشتراكية الفرنسية، وبحثوا إذا كان بالإمكان الثورة ضد المستبدين في الشرق وإقامة الجمهوريات وتطبيق الاشتراكية. ولهذا دعوته إلى هنا. ومهما استفزني لا أركبه برذونًا ولا أهول أمره. ورأيت نفسي أهلًا لإبطال تلك القنبلة البريطانية بهدوء. وقيامه باغتيال شاه العجم تعطيني مبررًا بأن أراقبه وأفرض القيود على حركاته. وأما لجوئه إلى السفارة البريطانية كشف حقيقته. ومن الآن لا يخدع العقلاء بآرائه الثورية ضد الاستعمار. وإلا، إني أعرف بأنه ذو نسب مجهول ورأي مضطرب ومعتقد فاسد وغاية خبيثة. ومثله يجب أن يكون في متناول اليد كي لا يستغله أحد.

الصيادي: أرجو من الله أن يبقيكم للأمة يا مولاي، فوالله لا يستطيع أحد آخر أن يقود سفينة الأمة غيركم.

أنا أستأذن إذن.

(يخرج الشيخ ويودعه السلطان)

(يدخل تحسين باشا ومعه الأفغاني، وهو غاضب متوتر، ويقول للسلطان قبل أن يجلس)

الأفغاني: جئت لأستميح جلالتك أن تقيلني من بيعتي لك، لأني رجعت عنها. لأنك ما صادقتني في الوعد، فقد طلبت منك تعيين أحد المصريين، وقد وعدت أن تمضيه ولم تفعل.

السلطان (يهز رأسه): سبحان الله يا حضرة السيد! إن أمرًا طفيفًا مثل هذا يحملك أن تهجم على نقض بيعتي؟ أما كان يحسن بفضلك أن تلتمس لي عذرًا وتذكرني قبل نقض البيعة؟

أنت أيضًا وعدتني بأنك عفوت عن شاه العجم وخالفتني.

الأفغاني: لقد أردت أن أقوم باغتيال الخديوي إسماعيل، ومع الأسف لم أنجح، ولو نجحت لأنقذت مصر من الاحتلال. وأما جلاد إيران وكل من على شاكلته، فإنهم خانوا بدستور الأمة وحنثوا قسمهم، فأما أن يبقى رأسهم بلا تاج، أو تاجهم بلا رأس.

السلطان: إن أحزنني كثيرًا أنك طلبت اللجوء إلى سفارة ألد أعدائك. فأطلب منك أن تتخلى عن هذه الفكرة نهائيًا، فإنه إهانة لدولتنا ولمقام الخلافة ولآل بيت النبي وللعلماء. وأرجو ألا تخرج من إسطنبول كي لا تضرك جلاوزة العجم. وإني حددت لكم عشرة حراس يكونون معكم.

الأفغاني: هم حراس أم جواسيس؟ إنكم أعطيتموني مركبة وجعلتم لي جاسوسًا بغير مركبة. فإذا أنا أسرعت بعربتي طفق يعدو ورائي وهو يلهث كالكلب، فهلا رحمتموه؟ فأعطيتموه عربة ليدركني.

أحمد جلال الدين: وعرفت أنك التقيت بالخديوي عباس. أتريد أن تجعل الخلافة عباسية؟ بنو عباس انقرضوا، وبنو علي أولى، يا أفندي. فهل ترى أن الخلافة خاتم في يدي فأضعه في أي إصبع شئت.

السلطان: يبدو أنكم مصرون على ألا تجلسوا في مجلسي اليوم.

الأفغاني: نؤجله لوقت آخر. إنكم مشغولون بإدارة قصركم الفخم، ولكني أود أن أقول لكم بأن جبن العثمانيين صار وهنًا ووهنًا لدولتهم.

السلطان: ما جالست أحدًا من أهل الجرأة، وأتعود شيئًا فشيئًا على أخذ الجرأة منكم.

(يلتفت السلطان إلى تحسين ويقول)

السلطان: اصرفوا لحضرة السيد خمسمئة قطعة ذهبية ليصرفها في أموره.

تحسين باشا: أمركم يا مولاي.

(ويكون هذا الحوار الأخير عندما يسير الكل نحو المدخل، السلطان والسيد في الأمام والآخرين وراءهم)

(ويسدل الستار)

الفصل الخامس ، عنوان الفصل :لعبة الموت في إسطنبول

المكان: قصر يلدز – إسطنبول

الزمان: 15 مايو 1902

أشخاص هذه الحلقة:

1. السلطان عبد الحميد
2. عزت بك
3. شهر الدين آغا
4. دكتور مورفي
5. البواب
6. ديونس روزنفيلد (رئيس تحرير البريد العثماني)
7. السيد نيولنسكي
8. تيودور هرتزل
9. السفير البريطاني
10. تحسين باشا
11. أحمد جلال الدين باشا

(يرفع الستار)

(قاعة استقبال الضيوف. السلطان جالس وهو يقرأ القرآن، وعزت بك جالس يقرأ جريدة، وشهر الدين آغا يعتني بالأزهار الموجودة داخل قاعة السلطان. يستغل السلطان الفرصة ليعرف رأي العجوز الذي صرف جل عمره في خدمة الحديقة، فيسأله)

السلطان: يا سيد شهر الدين آغا، كيف ترون شؤون بلادنا العلية؟

شهر الدين آغا: إني قضيت جل عمري مع الأشجار يا مولاي، ولذا أقيس كل شيء على الأشجار. إن الاضطرابات السياسية في شبه جزيرة البلقان تشبه قصة الأشجار الخمس: شجرة تفاح، وشجرة إجاص، وشجرة خوخ، وشجرة سنديان، وشجرة صنوبر، غرست بجانب بعضها بحيث تشابكت أغصانها، وكانت شجرة السنديان هي المسيطرة على جاراتها، لكن أوراقها السفلى كانت تتساقط بسبب حجب الشمس عنها. ثم حدث خلاف بين هذه الأشجار حول اقتسام الهواء والشمس. ثم جاءها من يقول: لم هذا الخلاف؟ لكل شجرة الحق في الحياة، ولا فضل لشجرة على أخرى. فكل شجرة ستعيش في مكانها دون أن تؤثر أو تتأثر بأخرى. فشجرة التفاح في هذا المثال هي رومانيا، والخوخ هي يوغسلافيا، والصنوبر هي اليونان، والإجاص هي بلغاريا، وشجرة السنديان التي تساقطت أوراقها هي تركيا. لكن الأوراق تتساقط دون أن يتأثر أصل الشجرة، لأن الأوراق المريضة بحد ذاتها تشكل خطرًا كبيرًا على أصل الشجرة وجذورها.

(يبتسم السلطان من هذا الجواب ويهز رأسه ويقول)

السلطان: مثال رائع.

(ويدخل عليه طبيبه الخاص ويقبل يده ويجلس. السلطان يقبل المصحف ويضعه على أعلى رفوف المكتبة التي وراءه وفيها عشرات الآلاف من الكتب)

الدكتور مورفي: إنه لا يخفى على معاليكم أن الأوروبيين يستعملون ورقة الأرمن للنيل من السمعة الطيبة التي عُرفت بها الدولة العثمانية.

السلطان: طوال التاريخ، ما كان بين المسلمين والأقوام المسيحية مشاكل. وإن الأرمن أفضل من يتبنون العثمانية ويمثلونها، لقد خدموا حضارتنا وعملوا على الحفاظ على دولتنا، وظهر فيهم عثمانيون ممتازون بخدماتهم وحسن صداقتهم. ولم تكن للأرمن منا شكوى قط. وبالمقابل، لشيء مضحك أن نتهم بتعذيب الأرمن واستغلالهم. لو جال المرء بنظره في تاريخ إمبراطوريتنا لثبت لديه أن الأرمن كانوا دائمًا أغنياء. والذين يعرفون حقائق الأمور يؤكدون تفوق الأرمن ماليًا على رعايانا المسلمين. لقد تقلد الأرمن في جميع العهود أعلى المناصب الوظيفية في الدولة، بما فيها منصب الوزير الأعظم. ولا أكون مبالغًا أبدًا إذا قلت أن ثلث الموظفين هم من الأرمن. وفيما عدا ذلك، ليس على الأرمن الخدمة العسكرية شأنهم شأن باقي الرعايا، والبدل النقدي الذي يؤدونه رمزي لا يكافئ أبدًا الزمن الذي يمضيه المسلمون في الخدمة العسكرية. وتجارة الأرمن في وضع ممتاز. ثم أليست إدارة الضرائب تكاد تكون منحصرة فيهم؟ ومن سوى الأرمن عارض إلغاء قانون الالتزام عندما أراده عبد المجيد بناءً على اقتراح رشيد باشا؟ لم يتنازلوا عن امتيازاتهم القيمة، فقاوموا هذا الإلغاء بإصرار ونجحوا بإبقاء كل شيء على ما كان. وهذا خير دليل على أن بروز المشاكل اليوم لها محرك خارجي. فهؤلاء الأرمن يستغلهم الروس. وكن على يقين بأن الروس لا يؤيدون تكوين كيان مستقل للأرمن، لأن عندهم أيضًا أرمن يمكن أن ينضموا ويشكلوا دولة كبيرة.

الدكتور مورفي: لكن المشكلة أن المحرك الرئيسي ليس الروسيين. بل إن أول حركة مسلحة للأرمن شكلت من فرنسا، وأن البريطانيين متحمسون للقضية أكثر منهم. والغريب في الأمر أن القوميين الأتراك من جمعية الاتحاد والترقي هم أيضًا متعاطفون معهم، كما تبدو في صحفهم ومنشوراتهم السرية.

السلطان: هذه وطنيتهم! أما روسيا تريد تقديم إصبع من عسل إلى أفواه الأرمن، وأما الإنجليز والفرنسيون يريدون أن يكونوا أصحاب كلمة في القطعة الجديدة التي ستُقتَطَع من الدولة العثمانية.

الدكتور مورفي: والاتحاديون يهمهم مصلحة تلك الدول ولا يفكرون في مصلحة أمتهم. وهناك دافع آخر يا مولاي، وهو أن الولايات الست التي تطالب بها الأرمن، وهي: ديار بكر، و سيواس، و خربوط، و بتليس، و وان، و أرضروم، مساحتها تساوي نصف مساحة أوروبا. وهم عددهم مليون واحد، ويشكلون 20% مقابل 75% المسلمين، وأكثرهم من الأكراد. ألا ترون بأنهم بعدما يئسوا من استعمال الأكراد ضد الدولة العثمانية، وخاصة الروس بعد محاولات كثيرة، يريدون أن ينتقموا منهم، وخاصة أن راية الصمود أمام الحملات الصليبية المتتالية تناوبت بين الأكراد والأتراك منذ قرون؟

السلطان: هؤلاء الحاقدين حساباتهم عميقة. فالكاثوليك نادمون على عدم مبالاتهم بفقدان الإمبراطورية البيزنطية الأرثوذكسية. وأذنابهم في ما بيننا يطبق عليهم مثل الذي يقول: "إذا كنت في ذئاب فعليك العواء". وبغض النظر عن المحاسن والمساوئ، يجب أن أفتتح مجلس المبعوثان وأعلن الدستور لكي أظهر أنني أقوم بأمر هام.

في أعقاب تشكيل سرايا الأكراد، قامت الصحف الأوروبية بتوجيه انتقادات لاذعة مدعية أن الأكراد بعد تشكيل هذه السرايا زادوا من تصرفاتهم اللاإنسانية ضد الأرمن، وأعربت هذه الصحف عن خشيتها من قيام الأكراد بثورة يعلنون فيها استقلالهم. يبدو أن الصحف تبحث عن مواضيع، إذ تكتب عن كل شيء بغض النظر عن صحته أو كذبه. فالمراسلون يكتبون عن أوضاع كردستان وفق وجهات نظر الأرمن دون أن يكلفوا أنفسهم عناء الخروج من بيوتهم المريحة في إسطنبول.

وأنا متأكد فيما إذا وقعت الحرب مع الروس، فإن سرايا الأكراد المدربة تدريبًا جيدًا يمكنها أن تقوم بخدمات جلى. ثم أن فكرة الطاعة التي يتشربونها ستفيدهم كثيرًا. أما رؤساؤهم الذين منحناهم رتبًا عسكرية، فإنهم سيجعلونها مدار فخرهم واعتزازهم، وسيسعون إلى شيء من النظام والولاء. وسيأتي اليوم الذي تنتهي فيه حداثة السرايا "الحميدية" وتصبح جيشًا له أهميته. أعلم أنني تعرضت للانتقاد في قبول بعض أبناء رؤساء الأكراد موظفين في العاصمة. لقد شغل الأرمن مناصب وزارية لسنين عدة، فما الذي يضيرنا إذا قربنا الأكراد منا وهم إخواننا في الدين؟ ثم أنني أصبحت عرضة للانتقاد في حمايتي آل بدرخان، ويدَّعون أنهم خطرون على الأمن. وبالطبع فكل حر فيما يفكر. لكنني أعتقد أنني مصيب في السياسة التي اتبعتها حيال الأكراد. وقد درس زكي باشا الأمور على الطبيعة، فعرض فكرة تشكيل سرايا فرسان الأكراد، فكانت هذه الفكرة أحسن طريق. إننا نتعرض للانتقاد في كل أمر، لذا ترانا متعودين على مثل هذه الانتقادات. والإيرانيون، بعد أن تفككت دولة الفاطميين في مصر على يد السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي، ما استقام للشيعة أمر. ولهذا تراهم يؤيدون القضية الأرمنية والبلغارية واليونانية والصربية. لا تنس أن إيران أيضًا كانت طرفًا في الحرب الروسية العثمانية، وكافأوها في مؤتمر برلين بإعطائها قصبة قطور وما حولها. وإن الإيرانيون أيضًا يقومون بإيواء وتدريب العصابات الأرمنية. وما خضنا حربًا مع أحد إلا كانوا هم داخل خندق العدو وساعدوه بكل قواهم.

الدكتور مورفي: هذا فعلتهم منذ نشأتهم. ساعدوا المغول والصليبيين والحركات المارقة، وشغلهم الشاغل العمل على تمزيق وإضعاف الخلافة منذ تأسيس هذا المنصب الشريف، أيام الأمويين والعباسيين والأيوبيين والعثمانيين. إن شاه إسماعيل وقع اتفاقية مع المجريين والبنادقة عام 1518م، واتحد مع إمبراطور ألمانيا أيضًا في الحملات الصليبية على عدوهم المشترك - العثمانيون - كما كتب شاه إسماعيل في رسالته لإمبراطور ألمانيا.

السلطان: هذا تعاملهم، وأنت تعرف تعاملنا معهم. وعندك علم بتاريخ الخلفاء السابقين كذلك. إننا طوال تاريخنا ما استعنَّا بالصليبيين ولا بأي قوم آخر لمحاربة الشيعة، ولا حتى لمحاربة التتار أيام العباسيين. إن المماليك، وقبلهم الأيوبيون والزنكيون، اعتمدوا بعد الله على قوة المسلمين. ومع ذلك قارن بين سلاطين أهل السنة طوال التاريخ مع سلاطينهم من حيث السعة والزمن والإنجازات. يا بني، فإن القوة لله جميعًا، وإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

عزت بك: ولكن يا سيدي، إن أجدادنا بالغوا في التسامح معهم. فعندما قاموا بتأسيس دولتهم الصفوية بمساعدة المرجعيات الشيعية اللبنانية، كانت دولتنا في أوج قوتها بين القرنين الميلاديين الرابع عشر والسادس عشر. ومع قيام الدولة الصفوية أُبيد الآلاف من السنة من العامة والعلماء؛ ففي تبريز - العاصمة - وحدها كان السنة فيها لا يقلون عن 65% من السكان، وقد قتل منهم في يوم واحد 40 ألف سني!! كما أُجبر الألوف على التحول القسري إلى مذهب الإمامية. كما كانت هناك مؤامرات عديدة وتعاون مع قوى غربية على إسقاط الدولة العثمانية، وهي من الأمور غير الخافية عبر التاريخ.

السلطان: ولهذا يا عزت بك، رجع جدي سلطان سليمان القانوني بجيشه من مداخل فيينا، وما أكمل فتح هذه المدينة بسبب مشاكساتهم. رحمه الله، كان غازيًا كبيرًا، دخل عاصمتهم تبريز خمس مرات.

الدكتور مورفي: ممثل البطريركية الأرمنية هتف للحرب يوم اجتمع مجلس النواب تحت راية العثمانية. ولكن بعد انتصار الروس، ذهب وفد منهم برئاسة البطريرك (تريسيس) نفسه لتهنئة القائد الروسي وعرض استعداد الشعب الأرمني. مع أن هذا أكبر خيانة وطنية عقوبتها الإعدام، إلا أن أحدًا لم يمس شعرة واحدة من البطريرك.

السلطان: يا بني، إن عندنا لهم كنائسهم ومدارسهم، وتراثهم مصون ولغتهم محفوظة، ولا يؤخذون إلى العسكرية. وكان لهم في البرلمان الأول عشرون عضوًا، بالإضافة إلى أربعة أعضاء في مجلس الأعيان، ولهم عدة وزراء ومئات الموظفين. وهل لهم كل هذه الامتيازات في الدول الأخرى؟ أو هل للهنود والجزائريين هذه الامتيازات في فرنسا وبريطانيا؟ بالأمس جرت مذابح اليهود في روسيا، فهل تجرأت إحدى الدول الكبرى على منع إخوانهم النصارى؟ أما إذا كان الأمر مع المسلمين فالوضع يختلف. فقد استشاطت إنجلترا غضبًا وهددتنا بتبني مشكلة الأرمن، لأن هذه المشكلة تناسبها لأنها ستؤدي إلى أحداث اضطرابات في الشرق. وقد تأكد في برلين مرة أخرى أن حكومتنا كانت عاجزة عن القيام بأي شيء لمنع النقمة الشعبية العارمة التي أسفرت عنها مذابح الأرمن. إلا أن أمل الأرمن في إنشاء دولة مستقلة لا يعدو كونه حلمًا من أحلام اليقظة. إنهم منقسمون إلى أرثوذكس وبروتستانت وكاثوليك، والصراع بين هذه المذاهب لم يهدأ يومًا، فكيف يمكنهم أن يؤسسوا دولة مستقلة؟ ثم أن مليونًا من الأرمن تابعون لروسيا، ومليونين لإيران، ومليونًا ونصف المليون للدولة العثمانية. وأخيرًا فإن التاريخ يشهد أن صفات الأرمن لا تخولهم تأسيس دولة بمفردهم وإبقاءها على وجه الأرض.

أريدك أن ترصد لي ما يدور حول تحركات الدول والحركات لما يُسمى بالدولة الموسوية يا دكتور، فتبدو أنها أخطر حركة تواجه الدولة العثمانية.

الدكتور مورفي: اسمحوا لي بأن أقول لكم يا مولاي، بأن تسامح أجدادكم تجاه اليهود بات يشكل خطرًا على الدولة العثمانية. فكما هو معلوم لدى جنابكم بأن اليهود لاقوا الأمرين تحت حكم الدول الغربية، وارتُكِب بحقهم حملات إبادة والطرد. فقد طردوا من بريطانيا عام 1290م، ومن فرنسا عام 1306، ومن إسبانيا 1493 عندما استولى الصليبيون على كامل الأندلس، ومن روسيا هم متهمون باغتيال القيصر، وقد بدأت حملة بطردهم. وفي كل هذه المرات توجهوا صوب دولتكم العلية، مستغلين التسامح الديني لهم، وتغلغلوا في أعماق المجتمع العثماني ووصلوا إلى مناصب عالية. والآن يا مولانا، تتحدث المعلومات الاستخباراتية عن تكثيف جهودهم للتجمع في فلسطين، ويساعدهم بريطانيا على تحقيق حلمهم هذا. ولذا أرجو منكم التنبه لهذا الخطر. واحتضان اليهود من قبل بريطانيا اليوم، ليس لأنهم تغيرت نظرتهم لليهود، فنظرتهم نفس النظرة تجاه اليهود في القرون الوسطى، ولكن كما قلتم في قضية إهمال الأرثوذكسية، إنهم يشعرون بالندم لأنهم لم يستغلوا اليهود، بل اضطهدوهم حتى انضم اليهود مضطرين إلى أعدائهم أيام فتح الأندلس وأيام تحرير القدس من قبل صلاح الدين وطوال أيام العثمانيين. ويريدون اليوم أن يصطادوا عصفورين بحجر واحد: أولاهما إعادة ثقة اليهود وكسب ودهم ونسيان عداوة القرون الماضية، والثاني إبعاد اليهود من مجتمعاتهم وإشغالهم بأعدائهم التقليديين - المسلمين - وبذلك يحفظون مجتمعاتهم من دهاء اليهود ومؤامراتهم أيضًا.

السلطان: إن سلطانكم على اطلاع بتفاصيل مخططاتهم تقريبًا. وأعلم أنهم منذ تأسيس جمعية أحباء صهيون في روسيا قبل تسع سنوات يعملون على إنشاء مستعمرات في فلسطين. وتفاديًا لهذا الخطر، أصدرت هذه

الفرمانات الثلاثة على وجه السرعة في غضون شهر واحد، وليكون حجتي أمام الله والتاريخ أنني كتبتها بخط يدي. وهاهو الفرمان الأول الذي صدر قبل تسعة أيام، حيث كتبت: "إن قبول الذين طردوا من كل مكان في الممالك العثمانية سيؤدي في المستقبل إلى تشكيل حكومة موسوية، لذا فإن إجراء هذه المعاملات غير جائز. وبخاصة أن الممالك الشاهانية ليست من قبيل الأراضي الخالية والمتروكة. ولما كان المفروض إرسال هؤلاء إلى أمريكا، لذا فلا يُقبل هؤلاء ولا أمثالهم، بل يجب وضعهم في السفن فورًا لإرسالهم إلى أمريكا، وأن يتخذ مجلس الوزراء قرارًا قطعيًا بخصوص تفاصيل هذا الأمر وعرضه علينا. إذ ما الداعي لقبول من طردهم الأوروبيون المتمدنون ولم يقبلوهم في ديارهم؟ ولهذا فإن هذا الأمر غير جائز على الإطلاق. وحتى لا يبقى هناك أي مجال بعد الآن لأية معروضات أخرى في هذا الخصوص، تُعاد هذه المذكرة للصدارة العظمى لاتخاذ قرار عام في هذا الموضوع."

وأصدرت الفرمان الثاني بالأمس، وهذا نصه: "إن قبول هؤلاء الموسويين وإسكانهم أو إعطائهم حق المواطنة شيء ضار جدًا، فقد يتولد عن هذا في المستقبل مسألة حكومة موسوية، لذا يجب عدم قبولهم. وأن يُعرض هذا القرار بسرعة هذا اليوم، وأن تُعطى المعلومات للصدارة العظمى من السكرتارية الخاصة."

وهناك فرمان ثالث أرسلت نصه إلى الصدارة العظمى اليوم، وستطلع عليها بعد صدور الصيغة النهائية. نعم، إني على علم بكل هذا، وإن معلوماتكم تستفاد منها.

ولكن أريدك أن تجمع لي الأفكار والمعلومات على هذا الموضوع بتفصيل أكثر.

الدكتور مورفي: حسنًا يا مولاي، أنا أستأذن.

(يقبل يد السلطان ويخرج)

(يأتي البواب ويقول)

البواب: سيدي، إن السيد ديونس روزنفيلد رئيس تحرير البريد العثماني، والسيد نيولنسكي، والسيد تيودور هرتزل، جاؤوا لمقابلة مولانا السلطان.

(يقوم السلطان ويقول لعزت)

السلطان: لا أريد مقابلة ذلك المراوغ الحقير. حاول أن تعرف نواياه، وقل لهم إن السلطان مشغول.

(ويخرج. ويقول عزت بك للبواب)

عزت بك: فليدخلوا.

(فيدخلون ويتصافحون مع عزت بك ويجلسون)

روزنفيلد: يا صديقي العزيز عزت بك، هو السيد هرتزل الذي حدثتك عنه، وأظن أنه أصبح صديقًا لكم لكثرة زياراته.

(يقوله مبتسمًا)

روزنفيلد: وهو رئيس اليهود وصحفي نافذ. وهذه المرة الرابعة التي يقصد فيها باب معالي السلطان.

(يقطع هرتزل كلام روزنفيلد ويقول)

هرتزل: نعم يا سيدي، قلت لسعادتكم في زيارتي الأولى التي كانت في 3-5-1896 بأننا سنقدم عطايا كبيرة لمن يتوسط لنا، إن نحن حصلنا على فلسطين. ونحن لا نرضى بأقل من التنازل عنها كبلد مستقل. ومقابل هذا نحن مستعدون أن نسوي أوضاع تركيا المالية ونساندكم في قضية الأرمن.

عزت بك: لقد ذكرتني بما في جعبتك. ومن المستحسن أن أذكرك بجواب السلطان لهذا العرض السخي، أما نقلت إليك جوابه الذي قال:

(يفتح ملفًا كتب عليه "قضية فلسطين" ويقرأه)

"لا أقدر أن أبيع ولو قدمًا واحدة من البلاد، لأنها ليست لي بل لشعبي. لقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بدمائهم وغذوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا. ليحتفظ اليهود ببلاييهم. فإذا قسمت الإمبراطورية العثمانية، فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل. إنما لن تقسم إلا على جثتنا، ولن أقبل بتشريحنا لأي غرض كان."

فهذا جواب معالي السلطان، وليس جوابي.

هرتزل: وكذلك يا سيدي، فكرت أن أشتري لكم قبرص لأقدمها إليكم بدلاً من فلسطين.

عزت بك: أما قابلت السلطان في إحدى زياراتك؟

هرتزل: نعم.

عزت بك: فماذا قالوا لك؟

هرتزل: قال إنه حافظ دائمًا على بقاء إمبراطوريته مفتوحة أمام اللاجئين اليهود كملجأ لهم حين اضطهدوا في بعض البلدان الأوروبية. وأنه مستعد أن يفتح باب إمبراطوريته أمام اليهود من جميع الدول، بشرط أن يتعهدوا أن يصبحوا رعايا عثمانيين بكل ما يفرضه ذلك عليهم من واجبات، وأن

يتخلوا عن جنسياتهم السابقة، وأن لا يكونوا جميعًا في مكان واحد. ولكن استثنى جلالته فلسطين، وحرمه منا أن نسكن حتى بالقرب منه.

وكذلك قلت لجلالته بأنني أدرك الصعوبة التي تواجه حكومتكم بسبب ذهاب شبابكم إلى الخارج لتلقي العلم، وما يتعرض له هؤلاء الشباب من الضياع خاصة في تأثرهم بالأفكار الثورية. وإننا معشر اليهود، أساتذتنا يملؤن جامعات البلدان، ونستطيع أن نقيم جامعة يهودية في إمبراطوريتكم، ولتكن في القدس مثلاً، ونقدم ما هو الأفضل من جميع الجوانب. بالإضافة إلى أننا ندفع لمعاليكم ثلاثين مليونًا من الجنيهات الذهبية.

عزت بك: والرد كان رفضًا بالطبع. فهل من إغراء جديد في هذه المرة؟

هرتزل: هذه المرة أعرض عليكم إغراءًا تاريخيًا. أنتم يا عزت بك قرأتم التاريخ. انظروا إلى مصير الإمبراطوريات التي كانت مرنة مع اليهود كيف انتصرت على أعدائها. وانظروا إلى المعادين لليهود، كيف مزّقت الإمبراطوريات الفرعونية والآشورية والبابلية والرومانية؟ وكُتب المجد والانتصار والعمر المديد للإمبراطورية الفارسية؟ وكذلك الإسكندر والرومان في بداية عهدهم قبل اعتناقهم المسيحية، كيف عاشوا فترة ذهبيتهم؟ وفي العصر الإسلامي، انتصر الأيوبيون وانتصرتم أنتم بسبب عطفكم الزائد علينا. فيكفي لنا أن الدكتور الخاص لجدكم سلطان سليمان القانوني كان يهوديًا، وكذلك الطبيب الخاص للغازي صلاح الدين الأيوبي. وبالمقابل، لقد كتب الله لمضطهدي اليهود الفناء: من الصليبيين والبيزنطيين والأقطاع الأرستقراطيين...

عزت بك: وكيفية قيامكم باغتيال قيصر روسيا وإثارة البلبلة في البلاد؟ فهذا ليس إغراءًا بل تهديد لمقام السلطنة بالفناء. أوصل تهديدك للسلطان كما أوصلت إغراءك من قبل. هل تريد أكثر من ذلك؟

(يستأذن عزت بك من ضيوفه ويخرج)

هرتزل (يتكلم وعلامة الحسرة والغضب ظاهرة عليه): لقد صدق السيد مونتاجو عندما قال لي إن حجر العثرة أمام دولة اليهودية هو هذا السلطان. ولا بد أن يكون مصيره مثل مصير قيصر روسيا. نحتاج إلى ثورة فرنسية ثانية للقضاء على الخلافة والتخلص من مضطهد إسرائيل الثاني. بأيدينا وسائل الإعلام، وعندنا نقود كثيرة. فبدلاً من دفع الرشوة للسلطان الأحمر، نعطيه بسخاء لأعدائه لينقلبوا عليه.

نيولنسكي: ربما لا يخفى عليك يا سيد هرتزل، فإن الماسونية قد بدأت المشوار منذ 1889، شكل الطالب الألباني إبراهيم تيمو جمعية الاتحاد والترقي تحت إشراف الماسونية. ولكن لسوء حظكم أن هذه الجمعية اليوم تعاني من ضعف شديد بسبب حيل السلطان الأحمر لإضعافها.

روزنفيلد: بل إن سبب الضعف سببه عدم ثباتهم على مبادئهم. فإن السلطان حتى الآن ألقى القبض عليهم ثلاث مرات، وفي كل مرة نفاهم إلى المقاطع البعيدة من أجزاء الإمبراطورية العثمانية، وهذا ما ساعد على انتشار دعوة الاتحاد والترقي بدلاً من إضعافها وخمودها. فحتى بعد انقلابهم الفاشل لخلع السلطان عام 1896م، انكشف أمرهم وأُلقي القبض عليهم، ومن ثم عفا عنهم السلطان. ورجع معظم قادة الاتحاد والترقي الذين يصفون السلطان قبل ذلك بأبشع الصفات، الآن يصفونه بأحسن الصفات. ولهذا إني أرى أنهم لا يفيدونكم كثيرًا يا سيد هرتزل.

هرتزل: إنهم ليس عندهم منهج واضح. كما أنهم لا يفرقون بين المحافل الماسونية المتفرقة. إن ماسونية بريطانيا التي تحاول إبعاد منتميها عن السياسة كي لا تكرر تجربة الثورة الفرنسية في بريطانيا، مختلفة عن

ماسونية فرنسا الميالة إلى السياسة والثورة. ولهذا، إن لدى اليهود جالية كبيرة في سلانيك، وهم على قدر من الثقافة والوعي، جمعتهم سذاجة السلاطين العثمانيين أيام محنة اليهود في أوروبا. وهناك كراهية الأرمن واليونان والروم للأتراك. فبحنكة هؤلاء وأموالهم، وكراهية هؤلاء وحقدهم، ننشئ قاعدة جماهيرية عريضة في سلانيك لتكون نواة فيما بعد لجيش ماسوني، ويستغل أي حادثة وانفلات أمني للمجيء إلى القصر والقضاء على عدو اللدود لليهود.

هيَّا، ماذا ننتظر لنرجع؟ إني يئست وعليَّ الشروع في خطة الانقلاب.

(بينما هم يخرجون، إذ يلاقيهم عزت بك عند الباب ويقول)

عزت بك: نعتذر يا سادة، إن السلطان ما استطاع أن يقابلكم.

(يجلس عزت، ويأتي البواب ويقول)

البواب: إن سفير بريطانيا يريد مقابلة مولانا السلطان.

(يدخل السفير ويستقبله عزت بحفاوة ويجلسان)

عزت بك: ماذا عن نتائج بحوثكم عن الآثار؟ هل وجدتم شيئًا؟

(يدخل البواب ويقول)

البواب: جاء مولانا السلطان.

(ويقوم عزت والسفير، يدخل السلطان ومعه تحسين باشا رئيس كتاب القصر ويجلس، ويشير إليهم بالجلوس فيجلسون)

السفير البريطاني: قبل مجيئكم يا مولاي، سألني سيد عزت بك عن نتائج البحث عن الآثار. في الحقيقة ما وجدنا شيئًا يذكر غير بعض الجرار المكسورة والقطع المعدنية وقطع من النقود قديمة.

السلطان: وهل كانت الجرار خالية أم مليئة؟

السفير البريطاني: من أي شيء يا مولاي؟

السلطان: مما تبحثون عنه، من الذهب الأسود! هل تظنوننا ساذجين لا ندرك نواياكم؟ أنتم تحفرون آبارًا بحثًا عن البترول أيها السفير. وإننا قد اتفقنا معكم على البحث عن الآثار والحفريات. وعندما عرفنا أنكم تحفرون آبارًا، قلت لسادة الوزراء: دعوهم، لأننا ما اتفقنا معهم إلا على البحث عن الآثار، فإذا وجدوا بترولًا فلا يحملونه في جيوبهم. ولهذا قررنا أن يتوقف البحث، واتركوا الآبار فورًا، وخذوا الجرار والقطع المعدنية، وارجعوا من حيث أتيتم.

(يسكت السفير أمام هذا الموقف المفاجئ، ويبدو على وجهه علامات الغضب)

تحسين باشا: يا مولانا، أرسل الكونت مونتبيللا السفير الفرنسي برقية إليكم، وهذا نصها: "أخبر حضرة السلطان بما ورد في التلغراف الذي تلقيته بخصوص المسرحية المسماة بمحمد ل(ماركي دي بوريز)، التي كانت بدأت عرضها في باريس، بأن الحكومة قد اتخذت قرارًا في اجتماعها هذا الصباح بمنع عرضها. وفيما أرجو إبلاغ حضرة السلطان بنتيجة ما حدث."

(يهلل وجه السلطان عند سماع هذه البرقية ويقول)

السلطان: شكرًا لك يا رب على نعمة العزة والوقار لرسولنا الكريم.

تحسين باشا: ولكن يا سيدي، إن ماركي دي موريز عندما لم ينل هدفه في فرنسا يحاول عرض مسرحيته في بريطانيا، وحسب المعلومات الواردة إلينا بأنه قد بدأت الإعدادات اللازمة لعرض المسرحية في لندن على مسرح ليسوم.

السلطان: إنكم يا سيادة السفير البريطاني سمعتم الخبر. وإنكم تعيشون في إسطنبول منذ أمد. وأسأل المسيحيين الذين يعيشون بيننا منذ آلاف السنين: هل أساء أحد إلى عيسى عليه السلام أو إلى العذراء؟ إن إظهار الاحترام للخلافة داخل وطننا وفي الدول الأخرى، والاستحياء من الاستخفاف بذلك المقام، وتوفير الحب والترابط والعدل والتكافل بين الإخوة، من المباديء الأساسية. وأرجو أن تحذو دولة بريطانيا حذو الدولة الفرنسية وتظهر الإقدام والجرأة في ذلك. وإلا فإن عاقبة هذا الأمر لن تكون بسيطة. يعيش تحت سلطتكم ملايين المسلمين في الهند ومصر وأماكن أخرى، وبوسعهم أن يقطعوا شراييكم. وكما أني لا أستطيع أن أضمن سلامة المسيحيين الساكنين داخل دولتنا من غضب المسلمين على انتهاك حرمة النبي الكريم.

السفير البريطاني: لقد وصلت رسالتكم يا سيدي، ونقوم بالواجب. ويكون إجراءنا أكثر حزمًا من الفرنسيين أيضًا لكل أعمال المشابهة لهذا العمل المشين.

تحسين باشا: وهذا هو المتوقع، لأن مصالحكم مع المسلمين أكثر بكثير من الفرنسيين، وكما أنكم محافظون أكثر منهم.

(يستأذن السفير ويخرج ويقول)

السفير البريطاني: اطمئنوا يا مولانا، سوف أقوم بإجراء الواجب بأقصى سرعة ممكنة.

السلطان: يا تحسين باشا، أريد أن ترسل وفدًا إلى أمريكا كي يقوم بالاتفاق معهم للبحث عن البترول، وبهذا نعرف هل في بلادنا بترول أم لا، ونقيم علاقة مع هذه الدولة الفتية.

تحسين باشا: نعم يا مولاي، خطوة جيدة.

(يدخل عزت بك ويقبل يد السلطان ثم يجلس)

عزت بك: سيدي، إن مشروع خط الحديد إلى العتبات المقدسة يسير بشكل أسرع مما كنا نتوقعه، وهذا مما يفرح الصديق ويحزن العدو.

السلطان: إن الانتهاء من إنشاء الخط الحديدي بين الشام والحجاز في أقرب وقت ممكن أمر يهمنا، فإذا زادت أعمال التخريب والاضطرابات كان من السهل علينا إرسال قوات إلى تلك المناطق بسرعة. والأمر المهم الآخر هو تقوية الأواصر بين المسلمين كي تتحطم على صخرتها كل المؤامرات والألاعيب التي يحيكها الإنجليز. لقد بلغ سوء أدبهم حتى كتبت الصحف الإنجليزية أكثر من مرة عن سياسة إنجلترا في الجزيرة العربية. ولكن ليس من صحيفة قالت ما قالته ستاندارد في صريح العبارة من أن جزيرة العرب يجب أن تكون تحت حماية الإنجليز، وأنه من الطبيعي أن

تكون إنجلترا وهي تحكم 56 مليونًا من المسلمين صاحبة المدن الإسلامية المقدسة. إننا نعترف آسفين بأن لإنجلترا نفوذًا قويًا في الجزيرة العربية، إذ بدأت في أحداث المشاكل في اليمن، وحرضت القبائل العربية على إعلان التمرد. أما عدن فهي المقر العام لأعمال التخريب التي يديرها الإنجليز في الجزيرة العربية، والأسلحة التي يستعملونها كانت مخبأة في مستودعات عدن. إننا في وضع حرج، ليس علينا إلا أن نوزع الهدايا والهبات على رؤساء هذه القبائل، وندرأ عن أنفسنا غوائل ومؤامرات الإنجليز.

وتسيطر عدن على الجزء الشرقي من أفريقية، فهي للجزيرة العربية كمضيق جبل طارق للمغرب. وإنني أفضل أن تكون في البحر الأحمر قواعد للأساطيل الفرنسية والألمانية إلى جانب القواعد الإنجليزية. أما إنجلترا فتعارض هذا المطلب معارضة شديدة. فلو اتفقت فرنسا وألمانيا في هذا السبيل لأرغمتا "جون بول" على الرضوخ لمطالبهما.

تحسين باشا: إني استغربت يا مولاي عندما قرأت في الصحافة الروسية استيائها من إعطاء الامتياز لخط حديد بغداد للمصرف الألماني. إذ أن إنشاء هذا الخط من قبل الألمان هو في صالح الروس، لأن تواجد الألمان في الأناضول وبلاد ما بين النهرين أقل خطرًا من تواجد الإنجليز.
فالألمان بسبب وضعهم الجغرافي لا يستهدفون إلا منافع اقتصادية ومادية بحتة، وليست لهم مآرب أخرى كما هي الحال مع الإنجليز. فإنكلترا ستحاول يومًا الاستيلاء على هذه الخطوط، وسيكون هذا الاستيلاء وبالًا على الروس. ويمكن للروس أن يجدوا سلواهم عن الخسائر التي لحقت بهم في الصراع من أجل خط حديد بغداد، وذلك في المكاسب التي حققوها في إنشائهم خط حديد إيران.

السلطان: ينبغي على الأمم التي يعاديها الإنجليز، وعلى وجه الخصوص أذكر روسيا وفرنسا وألمانيا، أن تولي الصداقة مع الدولة العثمانية اهتمامًا خاصًا. إن كل إنسان يدرك أن كلمة واحدة مني بصفتي خليفة للمسلمين

تجعل حكم الإنجليز في الهند في مهب العواصف. لو أراد الروس والفرنسيون والألمان أثناء حرب البوير هدم صرح الإنجليز في الهند، لاستطاعوا بفضل تأييد منا أن يهدموا هذا الصرح، لكنهم لم يتحركوا في الوقت المناسب فأضاعوا الفرصة الذهبية. وقد يكون لصلة القرابة بين الإمبراطور الألماني وملك إنجلترا دور في عدم لجوء ألمانيا إلى الشدة أمام إنجلترا. لقد كان الوقت مناسبًا لمحاسبة الإنجليز على ما اقترفوه بحق الهنود المساكين. وإننا لنأسف على الفرصة الضائعة، ولكن لا بد من يوم ينتقم فيه الهنود من الإنجليز فيحطمون القيود، ولا بد أن تهزم ملايين الهنود شرذمة الإنجليز الذين نهبوا ثروات بلادهم واستغلوهم واستعبدوهم أبشع استعباد.

عزت بك: يا سيدي، اسمحوا لي بأن أقول لكم إن العرق الجرماني الذي يجمع الألمان والإنجليز هو دافع قوي للألمان بأن لا يكونوا جديين في النيل من بريطانيا. فإنكم تعرفون متانة الترابط بين الأقوام السلافية فيما بينها.

السلطان: ما قاله العزت صحيح. فإن الأسس التي اتبعتها روسيا في سياستها تجاه الشرق خلال قرن من الزمان هي التطبيق العملي للتعليمات التي وضعها إسكندر الأول في 19 نيسان سنة 1812، إذ يطلب هذا الإمبراطور في تعليماته إلى رجال السياسة وموظفي الدولة أن يغرسوا في قلوب الأمم البلقانية حب الروس، وتحريض الناس على تأسيس مملكة صربيا وسلافيا في صربستان والبوسنة والهرسك و دالماسيا ومونتينفرو. وأن أمم البلقان بحاجة إلى التحالف مع الروس في صراعهم مع الدولة العثمانية والنمسا. والحق إن رجال الدولة في روسيا يسعون إلى تطبيق هذه التعليمات إلى يومنا هذا بحذافيرها. وقد أجبرت النمسا بسبب أوضاعها الداخلية على مسالمة الروس، وقد ساعدها التأييد الإنجليزي الألماني في منع تحول ولاياتها المنتشرة على ضفاف نهر طونة إلى إمارة

روسية. ولم تستطع النمسا الحد من الدعاية الروسية في حينها حيث أضاعت فرصة ذهبية، فأحاطتها روسيا ببلغاريا وصربيا ومونتينفرو، وباتت هذه الدول تصر على مطالبها في هذه الدولة المحاطة.

تحسين باشا: لقد لاحظت نوعًا من التناقض يا مولاي في سياسات روسيا. عثر نجيب، مندوبنا السامي في صوفيا، على وثيقة هامة جدًا. إذ يقول زينوفييف، السفير الروسي في إسطنبول، في رسالته إلى فرديناند أمير بلغاريا: "لم يأْنِ الأوان لكي تعلن بلغاريا استقلالها، وسيتعين على سموكم انتظار الفرصة الملائمة، ولن تقدم روسيا في الوقت الحاضر أي وعد بالمساعدة. فيجب قبل كل شيء أن تضمنوا عون النمسا." هذا من جانب. ومن جانب آخر، أبلغنا سفيرنا في بوخارست أن الدبلوماسيين الروس ما برحوا منذ فترة يسعون إلى تحسين العلاقات مع رومانيا، ويعملون على تخريب علاقاتها مع إمبراطورية النمسا والمجر. وتبذل روسيا كل جهد ممكن لتنشيط الروح المعادية للرومانيين، ثم لتأليب رومانيا على المجر.

السلطان: فيما يتعلق ببلغاريا واستقلالها عنا، فإذا أرادت النمسا أن تلعب دور الدولة المؤيدة لبلغاريا، فستكون قد ارتكبت خطأ كبيرًا لِأمنها قبل أمن دولتنا. وفي صراعنا مع البلغار السلافيين، لن نجد لنا عونًا إلا اليونانيين، وسيكفل هذا الاتفاق التخفيف من حدة الدعاية المعادية للهيلينية في مجموعة الجزر وفي ولايات الأناضول. وقد ارتكب الباب العالي خطأ لا يغتفر إذ انصاع للتوصيات الروسية فأبعد بطريرك الروم ووضع مكانه واحدًا من الكنيسة البلغارية. أما ما يخص رومانيا مع النمسا، فإمبراطورية النمسا والمجر هي السند الطبيعي والوفي لرومانيا، فقد ربطهما نهر طونة في مصير مشترك. لقد أدى تدخل رومانيا في الحرب إلى ترجيح كفة روسيا، في حين لم تكافئها روسيا إلا بمزيد من الخداع والتضليل، وزادته باحتلال منطقة بيسارابيا الرومانية. فهل تنسى رومانيا هذه الفعلة؟ إذا

أرادت رومانيا ألا تبتلعها الأمواج السلافية المتعاظمة، فعليها أن تربط مصيرها بمصير النمسا.

عزت بك: يعني أن سبب سياسات روسيا المتضاربة عرقي. إنهم يعرفون أن البلغار السلافيين لا يكونون أبدًا سندًا لنمسا الجرماني. أما الرومان التابعين لبيت اللاتين المتمزق، فيلعب بهم كل من الجرمانيين والسلافيين لمصالحهم.

تحسين باشا: هذا قدر الأحمق.

(ويبتسمان)

(يدخل الدكتور ويقبل يد السلطان ويقول)

الدكتور مورفي: هل يأذن مولاي أن أكلمه؟

السلطان: تفضل، اجلس وكلمني على راحتك.

(يبدأ الدكتور بالكلام وعلامة التوتر والحزن والحسرة واضحة في وجهه)

الدكتور مورفي: بماذا يطمئنني مولاي بأنكم تريدون البقاء لهذا الصرح المبارك؟ لماذا بعد جهود الحراس الساهرين وكشف أوكار الخونة وخدام اليهود ومحاولاتهم لخلع معاليكم والقضاء على الدولة العلية، ولكن عندما تصل الفريسة إليكم تعفو عنهم وتكافئهم بأن تجعل من هذا سفيرًا ومن ذاك واليًا ومن الآخر متصرفًا؟ لقد فقست بيوض الأفاعي تحت جناح رحمتك، وكبرت ونمت وانتشرت في كل جحر، ثم خرجت إلى الميادين والساحات.

(يجهش الدكتور بالبكاء ويجلس على ركبتيه أمام السلطان ويقول)

الدكتور مورفي: إن وسائل الإعلام الماسونية تصفون مولاي السلطان بالسلطان الأحمر والدموي المستبد. ولكن عندما ينكشف أمر الخونة الذين يحاولون إلغاء الخلافة ويصفونها بالرجعية، والذين هم لعوبة بيد الماسونية والإمبريالية الغربية، وقضى على مؤامرتهم، ولكن عقوبتهم عندكم يا مولاي بأن يكافئوا بالمناصب! لقد فتحت المحافل الماسونية والأنظمة الإمبريالية خزائنها للقضاء على الدولة العلية. وإن نقل صحف مملوءة بالأكاذيب من باريس إلى إسطنبول أسهل من تناقل الأشياء بين أحياء إسطنبول. وإن هذه الشفقة الزائدة عن اللزوم لهؤلاء الخونة منافية للشفقة على أمتكم وتاريخها.

(يمسح السلطان رأس الدكتور ويهدئه قائلاً)

السلطان: إنهم يدفعونني لكي أسلك طريق الشدة والعنف، ولكني لا أستطيع ذلك، لأنني لا أملك نفس المزاج الذي يملكه جدي السلطان محمود. يدينني أصدقائي بأنني متساهل، أما أعدائي فيقولون لي ظالم غدار. والجانبان مخطئان. فإن لست مثل السلطان سليم الأول، ولا بلاد السلطان سليم الأول تحت أمري.

الإطاحة فورًا بعدة رءوس كلام من السهل قوله، من الصعب تنفيذه. وكل رأس إنسان تفتح أمام الإنسان هوة. ولو استطعت أن تملأ هذه الهوة فسيخافون منك، وتستطيع عندها أن تهدد، وكل ما تهدد به سينفذ. وفي حالة عدم تغطية هذه الهوة، فليس هناك شيء قط يمكن عمله. وأنا إنسان رحيم منذ ميلادي، ولكني أعلم أن الدولة لا يمكن أن تدار بالرحمة. كل ما استطعت عمله عملته. ولو كان السلطان سليم الأول سلطانًا في عصرنا، لكان يمكن أن يفعل مثلما فعلت أنا. أديت واجبي وسعيت وراء المصالح، وحرصت على ألا أؤذي الأهالي، وعارضت الحرب وسفك الدماء في كل مكان. وليس ما قدمت لأعضاء تركيا الفتاة شفقة. تساهلت معهم ليهاجروا إلى باريس لكي يتنافسوا على مناصب وهمية في السلطة. وقد سمعت بأن قال أحدهم: "إن أخضعنا لشخص واحد، فالأجدر أن نخضع لإرادة أسرة

ترجع إلى سنة مائة عام؟ ومادمنا قد رفضنا حكمهم، فلماذا إذن أن نخضع لإرادة أحمد رضا؟" وبهذا نجحت في هذه الهدنة الأخيرة: إرجاعهم واشتغالهم بالمناصب. ولكن الخطر كل الخطر هو ما يدور في سلانيك التي تحولت إلى وكر خطير. ومن أجل إبقاء هذا الوكر في حالة نصف سبات وترقب، ما أعطيت الجواب النهائي لهرتزل لأول مرة، وتلاعبت به لكسب الوقت لمدة ست سنوات.

الدكتور مورفي: هم علموا فيما مضى بأن دور وجهد بعض الهاربين من الدولة العثمانية لن يكون مجديًا على الإطلاق، وأن الأسلوب المؤثر والفعال هو التسرب إلى الجيش واصطياد الضباط الشباب بكل أنواع الإغراءات. فكون سلانيك بعيدة عن عيون المراقبين للدولة، وفيها مركز ماسوني قوي، والإقليم مشحون بالفتن والحركات السرية، وهناك نوع من التدخل الدولي. بالإضافة إلى أن من أصل 140,000 نسمة التي هي عدد سكان سلانيك، مئة ألف منهم من اليهود المنتمين من أصل إسباني. ولهذا إني أرى أننا فيما بعد نواجه أعداء منظمين مدعومين من وسائل الإعلام. وأطلعكم يا مولاي بأن هذه الماسونية التركية مختلفة عن الماسونية الأمريكية والبريطانية، بل هي ماسونية مصطنعة من قبل اليهود وبمساعدة المحفلين الإيطالي والفرنسي خصيصًا للأتراك. فاليهود يعملون على عدة محاور، ولا يربطون مصيرهم بمحور واحد. فهم عندما رأوا تقارب البريطانيين من عدو اليهود التقليدي، وهو روسيا، رأوا بأن يَكْثِفوا جهودهم على العمل في كسب الأتراك. وهم يريدون أن تسقط الخلافة بيد الأتراك الماسونيين الموالين لهم، فهذا أفضل لهم من احتلال مقاطعات الدولة العثمانية من قبل روسيا وبريطانيا حاليًا. ولا أعرف هل يبقى هذا التوجه إلى بعيد؟ أو يغيره تغير مواقف بريطانيا فيما بعد؟

والمهم أن حركة تركيا الفتاة اليوم موجههم ومنظمهم، وحتى شعاراتهم وألوان علمهم هي نفس الشعارات والألوان التي للماسونية الإيطالية. ويسعون لإحياء إمبراطورية بيزنطة بصهر الترك مع اليونان في ظل سلطان مطيع لهم. وبالطبع يدفعونه إلى تحريف الإسلام باسم الخلافة

العثمانية، كي ينفر منه المسلمون ويكون إلغاؤها سهلاً بل مطلوبًا عند المسلمين قبل غيرهم.

السلطان: وماذا عن خططهم ومؤامراتهم؟

الدكتور مورفي: هم يا مولاي، وبدفع من الماسونية اليهودية، يعملون على إنشاء فكرة شوفينية قومية لدى الأتراك في أول الأمر. ولهذا تراهم لا يعترفون حتى بالماسونيين العرب والأرمن. فإذا سنحت لهم الفرصة - لاسمح الله - في الاستيلاء على الأمر، يبدؤون بهذه الخطة، وبهذا يتخلى القوميات الأخرى عن الأتراك وعن الخلافة. ويرون من هذه الخطوة الحلقة المفقودة التي جعلت السياسة البريطانية ومحفل الماسوني التابع لبريطانيا، الذين يركزون دائمًا على نقل الخلافة من الأتراك إلى العرب، قد فشلت بسبب فقدان هذه الخطوة.

السلطان: وبعد هذه الخطوة، يكون مصيرهم الفشل أمام المشروع البريطاني ويسقطون.

الدكتور مورفي: ربما، وهذا يعود لحنكتهم وكيفية إدارتهم للمستجدات. وتعرفون يا مولاي أن اليهود ليسوا موحدين على خطة واحدة. بعضهم أصحاب الهجرة إلى قبرص أو العراق أو إلى فلسطين مباشرة.

السلطان: بعد تحقيق مآربهم الخبيثة في تركيا، فإن بريطانيا توحدهم بإهدائهم فلسطين وحمايتهم، وجعلهم رأس الحربة لمخططاتها وأطماعها.

عزت بك: وأبعد الله عنا وعن دولتنا العلية وعن مولانا السلطان، ويخيب آمالهم إن شاء الله.

السلطان: لكن الدعاء لا يكفي يا سيد عزت. وإن عقد مؤتمر باسم "مؤتمر الأحرار العثمانيين" في باريس بمشاركة حركات المعارضة لدولتنا وبإيحاء كافة الدول الأوروبية، تبرز لنا بوضوح أن أعداءنا كثيرون. ولا بد من إيجاد طريقة لإرجاع من في نيته خدمة هذا الوطن منهم، واحتواء من يمكن احتواؤه، وإسكاته بتشغيله بالمناصب. وكل ممنوع مرغوب، ليرى دراويش الاتحاد والترقي المتزمتين ما في جعبة شيخهم، وليجرب الاتحاد عصاه السحرية كي يظهر حقيقته للكل. و...

الدكتور مورفي: ولكن يا سيدي، هذه لعبة خطيرة يا مولاي على مصير الدولة.

السلطان: هذا قدري يا دكتور. أريد يا سيد عزت أن تطلب من سيد ولي بك وتحسين باشا بترجمة بعض الدساتير المهمة كالدستور الألماني والفرنسي، وصيغة بعض النماذج للدستور للاطلاع.

(يقوم السلطان)

السلطان: اذهب وأهيئ نفسي للذهاب إلى صلاة الجمعة.

(يخرج السلطان وتحسين باشا معه)

(يأتي السيد أحمد جلال الدين ويسلم على عزت والدكتور ويجلس)

الدكتور مورفي: ماذا عن رصد حركات المعارضة في أوروبا؟

أحمد جلال الدين: لا بد أنه حدث شيء هذه الأيام. أعداؤنا نظموا صفوفهم، وهذه مفاجأة، ولا بد أنه أُضيف عنصر ما إليهم.

الدكتور مورفي: نعم، إنهم اليهود، بعدما يئسهم السلطان من فلسطين. بل أنا أنتظر الأسوأ. أتوقع أن يحاولوا اغتيال بعض كبار رجال الدولة. ولهذا يجب أن نكثف حراسة مولاي السلطان، لأنهم ربما ينفذ صبرهم ولا يستطيعوا أن ينتظروا ثمرة مؤامرات المعارضة، ويقومون بمحاولة اغتيال السلطان مثلما فعلوا في روسيا، لأنه أسرع لنيل مآربهم الخبيثة.

أحمد جلال الدين: أنت تخوفني يا دكتور. عموما، إني وجدت رغبة حقيقية لدى وجوه الاتحاد والترقي باستجابة عفو مولانا واحتوائهم وإشغالهم بالمناصب.

عزت بك: بل يذهب مولانا إلى أبعد من ذلك يا سيد أحمد. إنه أصدر أمرًا بصياغة نماذج للدستور وترجمة الدستور الألماني لدراستها. ما يعني أنه عزم على إعادة الدستور.

أحمد جلال الدين: لا شك أن المخاطر المحدقة بالدولة تقتضي استعمال كل الوسائل التي تساعد على إسراع واتساع حركة الاحتواء لمعارضي الدولة العلية. و...

(يسمع هتاف الناس في الخارج وهم يقولون: "عاش مولانا السلطان!" ويدخل البواب وعلامات الهلع ظاهرة على وجهه ويقول)

البواب: أما سمعتم يا سادة؟

الدكتور مورفي: لم نسمع شيئًا، ما الأمر؟

البواب: حصلت كارثة يا سيدي. حصل انفجار من بعد عدة أمتار من مولانا السلطان في ساحة الجامع، وقتل عشرات من الناس، وتحولت ساحة المسجد إلى ساحة المعركة.

(يخرج أحمد جلال الدين والدكتور بسرعة، ويقول عزت)

عزت بك: لقد أشار الدكتور إلى هذا الاحتمال قبل قليل.

(يدخل السلطان ومعه تحسين باشا رئيس كتاب القصر)

السلطان (في غاية الهدوء): كم عدد الشهداء والمصابين يا تحسين باشا؟

تحسين باشا: 26 شهيدًا و58 من الجرحى يا مولاي. ويُقدر المتفجرات بعشرين كيلو تقريبًا.

(صوت "عاش السلطان" لا يزال يسمع في الخارج. والسلطان يفرش سجادته ويصلي ركعتي السنة)

تحسين باشا (وهو لا يزال واقف): ما رجع السيد جلال الدين ليخبرنا التفاصيل عن المتهم الذي قبض عليه؟

السلطان: اجلس يا تحسين، اجلس. لا داعي للعجلة. وهل تتوقع أحدًا آخر غير الذين أبينا أن نبيع إليهم القدس؟ وأن نقبل الرشوة والدنية في ديننا؟ هم تآمروا بالأمس على قيصر، واليوم علينا. أعرف أنهم الجبناء حرضوا أحد المتشددين الأرمن أو اليونان واستغلوه.

تحسين باشا: ها هو السيد أحمد رجع يا مولاي.

(يسأله تحسين فور دخوله من المدخل قائلاً)

تحسين باشا: أخبرنا التفاصيل عن العملية يا سيد جلال الدين.

(ينظر أحمد إلى السلطان وكأنه يستأذنه، ويقول السلطان مبتسمًا)

السلطان: قل ما عندك، ليس بيننا أحد لا نثق به.

(يقول جلال الدين)

أحمد جلال الدين: قبضنا على المسؤول عن الانفجار وحققنا معه، وهو رجل أرمني يدعى إدوارد جوريس. ووضعت تفاصيل هذه المحاولة في مدينة صوفيا البلغارية على حد قول إدوارد، من قبل منظمة "طاشناق" الأرمنية، وبالاتفاق مع الزعيم الصهيوني المعروف تيودور هرتزل، بعدما خاب ظنه منكم يا مولاي في استجابتكم إلى مطامع الحركة الصهيونية في أرض فلسطين. وصُنعت العربة التي انفجرت في الخارج وأُدخلت أجزاؤها إلى إسطنبول قطعة قطعة ومن أماكن عدة. وإننا ننتظر أمر معاليكم لإعدامه وجعله عبرة لمن يعتبر.

السلطان: إذا أعددناه، فقد أعدمنا العملية وأعدمنا حجة الإثبات القوية على وجود صلة بين الطاشناق واليهود للتاريخ والحاضر. بل نطلق صراحه ونبعده إلى خارج الحدود. وإني متأكد إن لم يقتله طاشناق بأنفسهم، فإن

أصحاب هرتزل يقومون باغتياله. وهذا هو احتواء هذه العملية اليائسة لصالحنا، ومحاولة لزرع الاختلاف بين جبهة أعدائنا.

تحسين باشا: وماذا عن القصاص لعشرات الشهداء والجرحى؟

(السلطان يقوم عن سجادته ويأخذ السجادة بنفسه ويقول)

السلطان: يكفيهم شرفًا وفخرًا أنهم استشهدوا في ساحة المسجد بعد أدائهم لصلاة الجمعة بين يدي خالق السموات والأرض.

(يدخل البواب وبيده ورقة ويقول)

البواب: بعدما غادر سفير بريطانيا، كتب هذا ونسيت أن أسلمه لمولانا.

(يأخذه أحمد منه ويقرأه للسلطان)

أحمد جلال الدين (يقرأ): مذكرة إلى الباب العالي:

إن مجموعة من اليهود يريدون السكنى في برية الشام، وقد قدموا مشروعًا بهذا الخصوص، وتم تشكيل هيئة من قبل دولتنا لدراسة المشروع. فماذا تم بهذا الصدد؟ فإني أريد ردًا قاطعًا في غضون أسبوع، وإن ترك هذا الأمر معلقًا يسبب لي الكثير من الإزعاج، وكلنا نعلم ما يترتب على ذلك.

التوقيع: نائب السفير الإنجليزي في إسطنبول.

تحسين باشا: يا سيدي، إني أرى أننا نضيع كل الإمبراطورية من أجل فلسطين. فها هم أخذوا منا مصر وقبرص واليمن والبصرة والكويت والعقبة، وماذا بقي بعد هذا؟

السلطان (يتكلم غاضبًا): إن هذه المقاطع احتلالها يكون مؤقتًا ويكون مقبرتهم ومقبرة أعوانهم الخونة أبو رغال هذه الأمة إن شاء الله. أما فلسطين، فإنهم يريدونه للأبد. لا نعطيهم، ولو أعطوني ملء الدنيا ذهبًا. أفضل ضياع إسطنبول على ضياع بيت المقدس، مسرى الحبيب وأمانته في ذمة أجدادي، وصل إليّ مصونًا. أتريدون أن أكون أشقى السلاطين؟

تحسين باشا: ها هم العرب، حكام الحرمين والنجد يا سيدي، أعطوا ولاءهم للإنجليز ويحاربوننا. وغدًا ينقلب عرب فلسطين أيضًا؟

السلطان: تنبهت لخيانتهم، ولذا أمرت بإسكان المسلمين من القفقاس والأرناؤوط في قدس الشريف.

(يدخل الدكتور وبيده جريدة، كتب بأسلوب ذلك العصر وفيها نص البرقيات والتهاني للسلطان وصور بعض الشخصيات، ومنهم أمير الشعراء أحمد شوقي، وصورة لساحة الجامع عند حدوث الانفجار. ويمكن للحصول على هذه الوثائق الاستعانة بالوثائق وكتب التاريخ والصحف التي كانت تصدر من ذاك الوقت)

(ويقول الدكتور)

الدكتور مورفي: حتى محاولاتهم اليائسة تصب في تجديد وتقوية الرباط بين عموم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وبين دولتهم العلية. هناك آلاف من البرقيات والعهد بالولاء من الشخصيات البارزة وأصحاب الأقلام الشريفة لدولتنا العلية ولمولانا السلطان. وإني اكتفي بقراءة قصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقي، يقول فيها:

هنيئًا أمير المؤمنين، فإنما نجاتك للدين الحنيف نجاةُ

هنيئًا لِطَهْ والكتاب وأمةٍ بقاؤك إبقاءٌ لها وحياةُ

أخذت على الأقدار عهدًا وموثقًا فلستَ الذي ترقى إليه إفاةُ

ومن يك في برد النبي وثوبه تجزّه إلى أعدائه الرمياتُ

يكاد يسير البيت شكرًا لربه إليك، ويسعى هاتفًا عرفاتُ

وتستوهب الصفح المساجد خشعًا وتبسط راح الجمعة الجمعاتُ

رمتهم بسهم الغدر عند صلاتهم عصابة شر للصلاة عداةُ

تبرَّأ عيسى منهم وأصحابُه أصحاب عيسى ذي الحنان جفاةُ؟

يعادون دينًا لا يعادون دولةً لقد كذبت لهم دعوى وشكاةُ

بأي الفؤاد تلتقي الهول ثابتًا وما لقلوب العالمين ثباتُ

إذا زلزلت من حولك الأرض رادها وقارك حتى تسكن الجنباتُ

السلطان: إن هذا الوعي واليقظة الدينية يسرني كثيرًا. لا تُهزم أمة وأمير شعرائها مثل شاعرنا السيد أحمد شوقي وفقه الله.

يا تحسين باشا، بلغ الصدر الأعظم والسادة الوزراء بأننا نجتمع لمناقشة أحوال البلاد والعباد والاستعداد لإعادة الدستور.

(ويسدل الستار)

الفصل السادس ، عنوان الفصل :

غروب الخلافة: الليلة الأخيرة في يلدز

المكان:قصر يلدز :قاعة المؤتمرات

الزمان:17-كانون الاول 1908م

اشخاص هذه الحلقة:

1-سلطان عبد
الحميد -27
حسني باشا

2- صدر الاعظم سعيد
باشا 28-غالب باشا

3- تحسين
باشا -29
خازندارة زلفت

4- عزت
باشا 3
0- خازندارة كلشن

5- احمد جلال الدين
باشا
خازندارة ملك جان

-31

6- احمد رضا
باشا
خازندارة نورستان

-32

33- جركيس اغا

7- رجب
باشا

34- علي محسن الكاتب

-8
البواب

35- شهرالدين اغا

9- سيد صلا ح
الدين
جوهر اغا

-36

10- جمال
باشا
7- سليم اغا

3

11-
انورباشا
38 -علي افندي قهوجي

12- طلعت
باشا
39- صدقي الخادم

13- جواد
بك
40- حقي الخادم

14- مشفقة
هانم
41- ولي بابا الطباخ

15-سازكار
هانم
42- فاطمة هانم

16- بيوستة هانم

17-صالحة
ناجية هانم
43- مصطفى الطباخ

18- الاميرة
شادية
44-الامير عابد

19- الاميرة رفيقة

20- الاميرة عائشة

21- الامير عبدالرحيم
افندي 45
- جمع من المدنيين المشاكسين

22- خليل بك

23- مرضعة الاميرة
عائشة 46
- بعض الخادمات

24- اسعد الالباني

25- ارام افندي الارمني

26- عما نوئيل قرصو اليهودي

السلطان جالس وبجنبه صدر الاعظم سعيد باشا ورئيس كتاب القصر تحسين باشا وعزت باشا ورئيس الاستخبارات احمد جلال الدين باشا واحمد رضا من كبار قادة الاتحاد والترقي ورجب باشا وزير الحربية كلهم جالسون وامامهم اوراق .

ياسادة الوزراء اجتمعنا اليوم بغية اصلاح الاوضاع المتردية واحتواء الخطر واصلاح مايمكن اصلاحه من احوال البلاد ,واريدكم ياسادة المستشارين والوزراء ان تجيبوني بكل شفافية وصراحة عما اذا كان من الصواب اعلان الدستور ؟ام لا؟

صدر الاعظم:انا لست من مؤيدي هذه الخطوة مطلقا وارى فيه محض الضرر على الدولة ,واذا ترون يا مولاي ان مثل هذه الخطوة ستخدم البلاد والعباد ,فانكم صاحب تجربة غنية وقد هدتكم الاحداث والسنون ,وبما اني اعرف ان الوقف بوجه هذا التيار وعدم الرضوخ لاعلان الدستور معناه اللجؤ الى البطش وسفك الدماء واعرف انكم بعكس ما وصفتم به زورا وبهتانا من قبل اعدائكم ترفضون اللجوء الى هذه الوسيلة مطلقا ولهذا اعرض على مولانا ان تعفوني عن مهامي ,لانني لااريد ان اكون حجر عثرة امام الدستور ,وكذلك لااريد ان اكون لعبة بيد رجال جمعية الاتحاد

والترقي التي ممثلها المدنيون هم كل من طلعت بك الذي كان كاتبا في دائرة البرق ويقبض ثلاث ليرات تركية في الشهر وجاويد بك الذي كان معلما وحسين جاهيد الذي كان يترجم لكم الروايات كل صفحة باربعة بنسات ,فارجو منكم قبول طلبي ,وانني اعرف ان من يستند اليه الصدارة لابد ان يكون معهم او يرضخ لمطالبهم والا سيكون مصيره اما الاغتيال او اعفائه من منصبه على الاقل .

سلطان:وكما قال سعيد باشا انلا خيار لنا الا طريق العنف وهو مرفوض عندي اطلاقا وانني ادرس الدساتير والقوانين الاوروبية لاعلان دستور يتفق والظروف المعقدة للدولة العثمانية ولهذا سادع نفسي للتيار .

تحسين :ويبدو ان الجمعية في حال اعادة الستور قرروا ان يعينوا في مكاني السيد علي جواد ولهذا فانا اطلب منكم ايضا ان تقبلوا طلبي بالاعفاء .

سلطان:لايترك احد مسؤليته الابعد ان يعين مكانه شخص اخر ,ويتوجه الى عزت بك قائلا :لقد كان اعلان الدستور في عهدي انا السلطان الاحمر المستبد كما تصفونني اصحاب السيد احمد رضا بك ,فانا مؤسسه ومعلنه ,وبسبب ضروف معينة فقد جمد هذا الدستور وانا الان امركم ان تقوموا بكتابة البلاغ الرسمي لاعلان الدستور .

ويكتب عزت بك هذا الفرمان-

وارجو منكم الاسراع في الشروع في انتخاب مجلس للمبوعثان وفق ما جاء في الدستور ,وعلى احمد رضا بك متابعة هذا الملف واطلاعنا على سير الامور فيها .

احمد رضا:نعم يا مولانا وفق ما جاء في المادة الثانية والسبعون من الدستور يكون لكل خمسين الف ناخب من الذكور نائب واحد ,وبما اننا في حزب الاتحاد والترقي دافعنا كثيرا عن الحرية والديمقراطية وعن الحياة النيابية ,يجب ان نبرهن اننا كنا صادقين في شعاراتنا .

السلطان:ينبغي ان تنبهوا لعدد نسبة الناخبين بين كل القوميات والاعراق في الدولة العلية ,وارفضوا تدخل الدول الاجنبية في تضخيم عدد بعض القوميات ,وهذا يكون ذات تاثير سلبي على الانتخابات وازدياد نواب بعض الاعراق على حساب بعض القوميات المغدورة الاخرى ,واننا لايقوم احد على انقاض احد ,وكونوا صادقين على شعاراتكم والا فان التاريخ لا يلتفت الى كثرة المصفقين اليوم ,وفق الله الجميع على ما فيه خير البلاد.

الوزراء يخرجون ويدخل احمد جلال الدين ,يقبل يد السلطان ويجلس .

تحسين باشا:يا مولاي يبدو ان رجل الاتحاد عينوا في مكاني علي جواد بك ,ولكن اخر ما عندي بالنسبة لما امرتموني به من الاتفاق مع الامريكيين حول التنقيب البترول ارسلت السيد صلاح الدين بك ,لكنهم رفضوا طلبنا ,ولكن تكلمت مع اليابانيين فوافقوا على طلبكم وهذا هو الاتفاق ,ويضع امامه المحفظة ,وبعد ان ينظر اليه السلطان ويوقعه ويقول :بارك الله فيك يا بني ما قصرت في اداء مهامك واني ان تكون بقربي دائما ,واين السيد صلاح الدين ؟اريد ان اراه.

يقوم تحسين ويامر البواب ان يرسل في طلب صلاح الدين لياتي الى القصر ,ثم يعود الى مجلس السلطان .

ثم ينظر السلطان الى احمد قائلا:كيف تسير الامور هذه الايام؟

جلال الدين :هناك اجتماعات وخطب وحفلات واغلب الناس فرحين بقدوم شيء ربما يجهلون اثاره وكنهه تماما ,وان الاتحاد والترقي اصبحت قوة تامر وتنهي ويفتح فروعها في جميع انحاء البلاد وتجمع حولها الانتهازيون ,عهد جديد ,فمن اراد الوصول الى بغيته فلابد له ان يصفق لهذا العهد ولرجاله .

السلطان:المهم العاقبة وحسن الخاتمة ,ان الداء الاكبر لهذه الامة ,هي الانبهار بالغرب الى حد العبودية ,يريد البعض ان نتبعهم في كل شيء ,كم سنة مضت على الثورة الفرنسية وما قام الانكليز بثورة مشابهة ,وعندنا لابد من الثورة والفلتان الامني .

يدخل عزت وبيده محفظة يضعه بين يدي السلطان قائلا :بعد استقالة سعيد باشا اتفق مجلس الوزراء على تعيين كمال باشا كرئيس للوزراء يامولاي فنرجو موافقتكم .

السلطان ياخذ القلم ويوقع ويقول:سعيد باشا تولى الصدارة في عهدي سبعة مرات ,وطيلة سنوات حكمي تقلب في عدة مناصب في الدولة غير انه عندما تطلب الوضع قرارا قاطعا ,وهو يحيرني دائما بليت ولعل ولم يكن لديه الاقدام باتخاذ قرار قاطع .

عزت:ياسيدي لا اريد ان اعكر فرحكم ولكن منذ الان بدا نوع من التنافر و الانقسام بين ضباط المكتبلي الجدد المؤيدين من قبل رجال الاتحاد وبين ضباط القدامى ,وهناك بعض رجال الصحافة المحسوبين عليكم مثل مراد بك صاحب صحيفة الميزان يعكر الاجواء ايضا.

سلطان :اما مراد فكان من قادة البارزين الاوائل للاتحاد ,هرب الى فرنسا واصدر صحيفة الميزان لفترة ,ولا ينكر انه صحفي قدير ,هو اول من وضف الخبرة الصحفية للاتحاد والترقي ,ولكن قل ما تجد ان يبقى المثقف المدلل العنيد في اطار واحد , وقبله مدحت باشا اول من خالف دستوره الذي سنه بنفسه ولهذا انشق مراد من الاتحاد وهو الان عدوهم اللدود ظاهرا,ولكن ينبغي على الاتحاد ان يحترموا حرية التعبير لانها من شعاراتهم ,واسكات المعارضة مرهون بما ينجزه رجال الاتحاد من الاعمال ,فاذا كانوا كما قالوا فلايبقى مجال الكلام لامثال مراد ,واما ان كانوا بالعكس فتجد ان امثال مراد يكثر عددهم ويستغلون شعار الحرية التي تنادي بها الاتحاد.

يسمع دوي صوت المدافع على المسرح ويسمع اصوات في الخارج يقول :عاش عهد الدستور

يدخل احمد رضا بك ويقول للسلطان ها هو عهد الدستور والتنوير يا مولاي ويريد منكم الناخبون يحيونهم من النافذة , فيقوم السلطان ويذهب نحو النافذة ويرفع يده اليمنى ويقول بصوت جهوري:

قررت عقد المجلس دون انتظار لقرار الوكلاء لاني رايت في الامة رغبة في اعادة تطبيق الدستور واقسم لكم انني لن اعطل العمل بالدستور ابدا

وساحافظ عليه ما دمت في مقام السلطنةواريد ان تبلغوا كل الناس بذلك وان شاء الله سيعمل مجلس النواب من اجل الخير لدولتنا وامتنا وسيحظى وطننا بكل انواع السعادة وفقنا الله تعالى جميعا .

يرتفع صوت الناس بهتاف عاش سلطان الدستور في الخارج .

يعود السلطان الى عرشه ويقول لعزت :لايكمل الفرح الا باعلان عفو عام عن جميع السجناء والمبعدين مع اعادة تطبيق الدستور لذا اكتب هذ الفرمان وارسله الى سادة الوزراء .

قادة الاتحاد واترقي يدخلون القاعة ويستقبلهم السلطان بحفاوة وهم يقبلون يد السلطان وهم كل من :جمال باشا وانورباشا وطلعت باشا ,ويجلسون في مجلس السلطان .

سلطان :اخبروني عن سير الانتخابات ونسب كل الفئات ؟

يقول طلعت :كل الفئات والقوميات ولاعراق والاديان وصلوا الى حقوقهم ياسيدي وان توزيع النسب في المجلس يقرؤه لكم السيد احمد رضا بصفته كرئيس المجلس.

احمد رضا :تشكل مجلسنا من 275 نائب ومنها 142 من الاتراك 60 من العرب و25 نائب من الارناؤوط و23 نائب من الروم و11 نائب من الارمن و4 نواب من اليهود 4نواب من البلغار 3نواب من الصرب ونائب من الاولاخ ونائب ماروني ونائب دورزي , هل ترون ان في مملكتنا بقي من لم ياخذ حقه ؟

سلطان:نعم يا سيد احمد ,انك لو رميت بحجر من عاصمة اجدادك لسقط الحجر بين قوم الاكراد ولماذا ليس لهم أي نائب ؟

طلعت :ما مارسنا أي نوع من الضغوطات يا سيدي ,ربما هذا يعود لضعف مستوى الوعي والثقافة ؟او انهم صوتوا للاتراك او للاخرين ,و... يقاطعه احمد جلال الدين بقوله :او لم يكن لهم اعيان ووجوه بارزة داخل المحافل الماسونية .

ينظر طلعت اليه بازدراء .

يدخل رجب بك وزير الحربية الجديد في عهد الاتحاد لينقل اول برقية الى السراي قائلا:ياسادة اعذروني ان كان اول ما انقله اليكم هو خبر محزن ,لقد اعلن كل من بلغاريا وصربيا وجزيرة كريت والبوسنة والهرسك استقلالهم وانفصالهم عن الدولة العثمانية .

سلطان:عندما اعلننا المشروطية الاولى يا سادة المحترمين ودفعنا انصار مدحت باشا بخوض الحرب مع روسيا عام 1878 خسرنا فيها من الجانب الاوروبي 166 الف كيلومتر مربع كان يعيش فيها خمسة ملاين نسمة وفقدنا من قسم الاناضول 46 الف كيلومتر مربع ويعيش فيها مليون نسمة ,واليوم بعد مرور ثلاثين يوما من اعلان الدستور الناس كانوا ينتظرون من الدستوريين الكثير الكثير ,ماذا حدث عندما اعلنت المشروطية ؟هل قلت ديون الدولة؟هل كثرت الطرق والموانئ والمدارس ؟هل اصبحت القوانين الان اكثر تعقلا ؟هل زاد الرفاهية والامن للاهالي ؟هل تناقصت الوفيات وزادت المواليد ؟وهل ان الراي العام العالمي بجانبنا اكثر من ذي قبل؟

طلعت:يظهر انكم متضايقون كثيرا من الدستور وتريدون ان ترجعوننا الى الوراء مرة اخرى ؟!

سلطان: ان الذي فقد الاف الكيلومترات في ضرف شهر واحد يرجع الدولة الى الوراء ام من حافظ عليها ثلاثا وثلاثين سنة؟انكم شكلتم مجلسا للبلغار والصرب والارناؤط واليونانيين وهاهم ينفصلون عن دولتكم ! ما مغزى هذا ؟ ماذا تقولون للشعب الذي يهتف باسمكم ويتغنى لكم ونسي همومه ومعاناته وهو يطير من الفرح بقدومكم ؟وهم يظنون انكم تحلون كل المشاكل وينتظرون منكم المعجزات ؟وهذه الكوارث التي حلت بالامة والدولة يصيبهم بصدمة ,ولابد ان تعالجوه والا ستقع كارثة يا ابنائي .

يقوم الباشاوات ويخرجون ولايبقى الا احمد جلال الدين وباشكاتب جواد بك

يدخل صلاح الدين بك ويقبل يد السلطان ويقول طلبتموني يا مولاي ,هل من خدمة لجنابكم؟

سلطان :نعم ,اردت ان اسالك عن بعض الاشياء ,في سفرك الى امريكا كيف وجدت هنود الحمر؟وماهو طقوسهم وديانتهم وعاداتهم ولغاتهم واعراقهم؟ويقولون ان فيهم عباد الكواكب ,اما قارنت بينهم وبين الصابئة الذين يعيشون بيننا منذ الاف السنوات؟واخيرا اردت ان اعرف وضعهم الثقافي والسياسي,مثلا عدد صحفهم ونوابهم ومؤسساتهم العلمية و..

صلاح الدين ينظر الى السلطان بتعجب ولا يملك نفسه ويقاطع السلطان قائلا: اسمحو لي بان اقول لكم ان الذي نقل اليكم هذه المعلومات ما يعرف شيئا عن امريكا اطلاقا.

السلطان :كيف لقد اخبرني الثقاة بان الامريكيون بنو دولة حرة وديموقراطية ؟!

صلاح الدين:لكن بعد ان ابادوا هنود الحمر وقضوا على جنسهم واتلفوا ثقافتهم ومحوهم من الوجود ,ولم يبقى لهم أي اثر ,حتى تحفهم الفنية ما بقيت , بل ان السود الذين يخدمون السيد الابيض بكل اخلاص في كل المجالات ينظر اليهم بمهانة .

سلطان :يا صلاح الدين بك لا تمزح معي انني لا اسالك عن حضارة الاندلس التي دمرتها تعصب الصليبيين ايام محاكم التفتيش ,انا اريد سماع اخبار التمدن والتقدم الذي يسود امريكا ,او ربما انك اخطات الطريق ؟وما ذهبت الى امريكا وذهبت الى جزيرة متخلفة ما وصلت اليها الحضارة ؟!

وجواد بك وجلال الدين يبتسمان ,يقول جلال الدين :يبدو ان مولانا لهم القدرة على اقناع الناس بان الاخرين ليس عندهم من القيم والحضارة مثلما عندنا ,

يتاوه السلطان ويقول :ولكن من اين جاء الي ابناء امتي كل هذا الانبهار والافتتان بهم وبقيمهم ؟ يقول ذلك ويضع خده على كفيه .

جلال الدين :ارجوكم يا سيدي لا تفعلوا هذا فانتم جبل شامخ لاتعرفون الياس .

يدخل عزت بك وهو مهموم يقبل يد السلطان ويقول يا سيدي الوضع يسير الى الاسوا ,الضباط الجدد نزعوا كافة الصلاحيات والمناصب منة الضباط القدماء وبسبب الحملة الصحفية على الاتحاديين بسبب انتكاساتهم ,اثيرت راي العام ولكن قتل الاتحاديين رئيس تحرير صحيفة سربستي .

السلطان:سربستي ,معناها الحرية ,ما اجمل هذ الاسم, ولكن ضريبة الحرية ثقيلة ,الذين يهتفون للحرية طيلة عمرهم ,ولكن عندما يجدون الكراسي الحكم المريحة ,يكون اول عملهم اسكات اصوات الحرية وهدم مؤسساتها .

يسمع صراخ الناس من الخارج وهم يهتفون :نريد الشريعة,نريد العدالة ,قولوا للوالد نريد عودة الشريعة والعدالة . كلما اقترب الجمع يسمع اصواتهم بشكل اوضح ويسمع ايضا اصوات الانفجارات والمدافع .

السلطان :اذهب يا جواد بك وقل لهم ان الشريعة بامان ويقول لكم الوالد اذا تريدون اخماد الفتنة وبقاء دولتكم العلية عودوا الى بيوتكم ,وسجل مطالبهم ودوافعهم ,ومن دبر هذه المسيرة في هذا الوقت الحرج.

جواد بك:امركم مولاي ويخرج اليهم .

سلطان :اخاف ان يكون هذا حلقة اخرى من مؤامرات الاتحاد ويلتصقونها بي ليتخذوها ذريعة للتخلص مني .

يا سيد جلال الدين ارجو ان تاخذ اولادي و الحريم فاني ارى في الافق اياما مثل ايام عمي المغدور .

يخرج جلال الدين ويرجع جواد بك ويساله السلطان بلهفة :اخبرني يا جواد بك ما الخبر؟

جواد بك:مجموعة من الضباط الذين احيلوا على التقاعد ومجموعة من طلاب المدارس الدينية وابرز الوجوه فيهم شخص يدعى :البرنس صباح الدين .

السلطان:وماذا يريدون :؟

جواد :يريدون هدم ما تم بناؤه ,قائمة مطالبهم عريضة ,عزل الصدر الاعظم وعزل رئيس مجلس المبوعثان واعادة ضباط المفصولين الى الخدمة وابعاد الاتحاديين وعزل وزير الحربية ,وقتلوا وزير العدل ونائب اللاذقية وكثيرا من ضباط الجدد .

السلطان:واين كان سر العسكر وجنوده من كل هذه الفتن ؟اذا لم يكن هذه مؤامرة ؟كيف سمح لهم بكل هذه الاعمال التخريبية وما منعهم؟ انه امر دبر بالليل ,وما وراءه اخطر واحلك .

في هذا الاثناء يدخل كل من:زوجات السلطان مشفقة هانم وسازكار هانم بيوستة هانم وصالحة ناجية هانم وبناته الثلاث شادية ورفيقة وعائشة وابنه عبدالرحيم افندي ويلتفون حول السلطان

السلطان :واين هم الان؟

جواد بك:من ؟المتمردون ؟اختفوا بعدما سمعوا بتحرك جيش الحركة من السلانيك نحو العاصمة لاعادة الهدوء وحماية سلامتكم .

سلطان:اذن مهد المتمردون لمجيئهم وقاموا بخدمة جليلة لهم ,ولهذا سكت سر العسكر الجديد والضباط وقادة الاتحاد عن هذه التخريبات , يلتفت السلطان الى زوجاته واولاده :ماذا بكم ؟لماذا اخرجتم من حجوركم ولماذا ما ذهبتم مع جلال الدين ؟

مشفقة:يقولون ان جيش الحركة متجه الى هنا ,واننا لن نكرر خطاء فاجعة عمكم يا افندينا ,ارسلت ابنائكم الكبار السيد محمد سليم والسيد برهان الدين والسيد عبدالقادر مع السيد جلال الدين .

يسمع دوي الانفجارات والطلقات والصرخات ويلتفت العائلة حول السلطان .

دخل خليل بك قائد سلاح البنادق في القصر وقبل يد السلطان
وقال:ياسيدي ان الجنود يقتلون كل من يصادفهم من الضباط والمدنيين واختل النظام تماما في العاصمة ,يا سيدي ارجوكم-وهو يبكي-تفضلوا باصدار اذن من جلالتك ,لقد اكلت من خبزكم وتمتعت بنعمتكم سنوات

عديدة لحمي وعظامي واولادي ,-جث على قدمي السلطان وهو يبكي والسلطان مسح راسه وشد كتفيه ويقول له:ليبارك الله في ما قمت به من خدمة ,انا راض عنك ,انت ماقصرت ,لكن لاتلح علي ,لن تطلق رصاصة من اجلي على احد.

وخليل باشا لايزال جالس امام السلطان ويقول:ولكن يا سيدي لو سكتنا على اعتداء عدة مجانين على تاجكم وعرشكم ,لن نخجل فقط امام ضميرنا بل سيلحق العار باسمنا ايضا امام شعبنا وقومنا .

سلطان :قم يا ابني ,انكم قمتم بواجبكم على اتم وجه وسيذكر التاريخ والامة صنيعكم هذه وارجو منك ان تتركني ومصيري .

خليل:لن يحدث هذا ابدا ,بل ساحرس بابكم الى ان التحق بربي على يد هؤلاء ,الست احق من تعلق الكلب بصاحبه بالوفاء ؟

يبكي الحريم والاميرات مع خليل بك . وينطلق خليل بك نحو واجبه .

يدخل علي جواد ويقول :يا مولانا ارسل كل من سفراء فرنسا وبريطانيا والمانيا ونمسا برقيات وعرضوا عليكم أي مساعدة تريدونه ,سواء للذهاب الى اوروبا وترك العرش لاخيكم ,او أي مساعدة اخرى.

ينظر اليه السلطان غاضبا:لم انحط ولا اتدن الى درجة الفرار ولست مثل قادة الاتحاد الذين ربوا في اوكار الاجانب ,ومم اهرب وانت قلت ياتي جيش الحركة لحماية العاصمة ولحمايتي؟والان تعرض علي طريق العار وتشيع بين الناس باني على وشك الهروب,لن يحدث هذا ابدا ,اكتب لهم يا

جواد بك باننني اشكرهم على موقفهم واعلمهم عدم وجود اية نية عندي الى اللجوء الى اية دولة ,مع انني اصبحت متاكدا من خلعي بل وقتلي على غرار عمي المغدور ..-يصرخ الاميرات والحريم هنا وكل منهن تاخذ بيد ابيهن وتلتفن حوله – ويكمل السلطان كلامه:ومع ذلك فلو علمت انهم سيقطعون لحمي قطعة قطعة فلن الجا الى دولة اجنبية ,لان من العار ان اهرب من وطني واعده دناءة وسفالة لامثيل لهما وانا راض بحكم الله وبقدري .

يخرج جواد بك بعدما يلف الورقة التي كتبته .

يدخل خليل بك ثانية ويقول:انهم لم ياتوا الى لقتلنا ,كيف تنتظرون منهم الرحمة يا مولاي ,سيخنقوننا كالدجاج ,فارجوا ان تزودوننا بالعتاد لندافع عن انفسنا على الاقل .

يدخل جواد باشا ويقول :يا سلطاننا ان اكثر من اربعة الاف جندي كسروا باب مخزن العتاد واخذوا ينقلون صناديق الذخيرة ويوزعونها على الجنود الاخرين .

سلطان:يا خليل يا بني ,ارجوكم ,لايحترق الف شخص من اجل شخص واحد ولا يقتل الشقيق شقيقه ,ولا اريد ان ينزف انف احد ,انني خليفة المسلمين ,لذا لن ادع المسلمين يتقاتلون ,واذا كان هناك من يطلق النار ,فلتكن اول رصاصة علي , اكتب يا جواد بك للجنود :ممنوع على الجنود منعا باتا اطلاق اية طلقة ,فان ارادوا اطلاق النار فليطلقوها علي وامركم ان تتجنبوا الاحتكا ك بجيش الحركة واذا حصلت الاحتكاك تسلمونهم اسلحتكم .

يخرجة جواد بك ويقول السلطان لخليل باشا :يا بني اكرر طلبي للحراس بان اتركوا القصر ,وحتى الخدم بامكانهم ترك القصر ,لاننا محصرون ,واعرف انه ما اكلتم الخبز منذ ايام بسببي وارجو من الخد م والحراس ان يسامحوني اذا قصرت في حقهم . يخرج خليل وهو يبكي .

ويتجه السلطان نحو ابنه عبدالرحيم افندي ويقول له:انك يا بني لازلت في سن الطفولة ولا تتحمل مثل هذه المصائب ,هيا ودعني انت الاخر وخذ اخواتك الثلاث .

عبدالرحيم:يبكي ويقول:لا يا ابي لن اتركك ,انني لا اخشى المخاطر وما سيحدث لك سيحدث لي .

السلطان: انظري يا اميرتي عائشة اما عاد علي جواد بك؟

عائشة :امركم يا افندينا , تخرج اميرة عائشة وترجع ومعها الباشكاتب .

جواد بك :امركم يا سلطاننا ؟

السلطان :اكتب الى رئيس مجلس المبعوثان الجديد سعيد باشا – يهز السلطان راسه من التعجب – سعيد باشا هذا امره عجيب سبعة مرات قلدته الصدارة واستقال بسبب رفضه للمشروطية والايكون العوبة بيد رجال الاتحاد ,وهاهو رئيس المجلس الان اليس هذه اضحوكة؟

شفقة هانم:بل ان زوجته كلما تزورني ,تلبس البسة قديمة وبالية ,وكل مرة اهديها الملابس ,وذات مرة اهديتها تاجا لتضعها على راسها في المراسيم ,ولكنها قالت ان زوجها اخذها منها فورا .

سلطان:ليس من شمات اهل الكرم ان يذكروا كرمهم مع الناس ,ولا اريد ان اسمع مثل هذا الكلام من احدكم ابدا .

جواد بك اعد الصفحة والقلم ليكتب ما يقوله السلطان وينتظر السلطان .

يقول السلطان:اكتب:ما دمتم لا تريدونني فانني مستعد للتنازل عن العرش لاخي ,ولكن يجب تاليف لجنة تقوم بالتحقيق عما اذا كانت لي ادنى علاقة بحادثة التمرد في 31 مارت 1909م وانا انتظر الجواب.

مشفقة هانم تقراء القران ,والاخرون لا يبتعدون من السلطان قيد انملة .

تاتي مرضعة الاميرة عائشة وبيدها القفص وبداخلها ببغاة للاميرة وتقول للسيدة عائشة : اميرتى الحبيبة ,انكي تعرفين اننا محاصرون ,وليس لدينا طعام للانسان ,فلو اخلينا سبيل هذا الطير ؟

تقول الببغاة :اميرة عائشة حياتي ,اميرة عائشة حياتي.

الاميرة :نعم يا مرضعتي الحنونة ,كما تشائين ولكن اخاف ان لا تستطيع ان تعيش بوحدها دون رعاية الناس.

سلطان بيده السبحة التي اعطاه احد المشايخ منذ ان كان اميرا ,يقترب من الاميرة وياخذ منها القفص ,يقول:يا اميرتي ,دعني انا اطلق صراحها والى الابد ,انا السلطان الاحمر –تقول عائشة :حاشا كم يا افندينا-,عدو الحرية –وهي تقول :حاشا جنابكم يا افندينا .

- كم مرة اطلقت صراح اعدائي ,فما كانوا اوفياء مثل هذا الطير وما قالوا لي كلمة لطيفة مثلما هي تقول .

يفتح السلطان القفص ويطير الببغاة وهي تقول: اميرة عائشة حياتي, اميرة عائشة حياتي,والاميرة تهزلها يدها مودعا لطيرها المحبوب المدلل ,ثم تجهش بالبكاء وتعانق اباها .

مشفقة هانم :بعدما تقبل المصحف وتدخله في حقيبته ,تضم الحقيبة الى صدرها وتقول:اللهم اشفق بسيدنا وافندينا ,ان التاج والسلطنة اشياء زائلة لايبقى لاحد الا لجلالك ,اللهم لاتحرمنا منه ولاتريني اجله في الدنيا .

عاد جواد بك وقال يا سلطاني انني بلغت رساتكم الى الصدر الاعظم وهو عرض على سعيد باشا مسالة التحقيق لحادث التمرد ولكن رفض سعيد باشا العرض.

سلطان:ولم رفض هذا الناكر للجميل؟

جواد:لانه قال بصراحة يا مولاي ,ماذا ستكون حالنا ان ظهرت برائته ؟

صوت المدافع والطلقات تسمع من حين لاخر مع صوت صراخ الناس .

والسلطان يلتفت الى بناته وابائه ويقول :احبائي وانتم حرمتم من الطعام والشراب والامان والراحة بسببي ,كيف حال الخادمات والخازندارات؟هل عندهن ما تسدد به الرمق ؟

مشفقة :عندنا كل شيء يا افندينا ,مادمت حيا سالما بيننا ,لاتشغل بالك بنا ,ان كل همنا سلامتكم .

سلطان:أي ضمير يسمح بان يترك كل هؤلاء الابرياء والنساء اللاتي لاذنب لهن في السراي جوعى بدون امان ياجواد بك ,منذ اسبوع الاولاد والنساء يعيشون بدون طعام ,الا يلزمهم قليل من الخبز ؟

جواد :ذهب الطباخون,ماذا عساي ان افعل ؟لياكلوا ما يجدون.

سلطان : بصوت اكثر مرتفعا:هل حكم عليهم بالجوع؟هل انعدمت الانسانية ؟في هذه اللحضة جلس القط باموق امام السلطان وهو جائع ايضا وصوته ترق لها القلوب :مياو ,مياو

وتا خذه الاميرة عائشة وتمسح على ظهره ,ويقول السلطان:كم من الناس تمنوا ان يكونوا بقرب السلطان مثلكي ايها القط ,ما ادري ماذا حملك من وان الى استنول ؟ومن استنبول الى قصر يلدز؟وان تكون اثير عند الاميرة عائشة ؟وما اقتنعت برعايتها ,ايها الجشع وتعلقت بي حتي عرفك الخدم والحشم بانك يا باموق قط السلطان ,لاادري هل انها التعاسة حملتك ام الحظ؟

عائشة:بل الحظ يا افندينا الحظ ,انه اسعد واشهر قط في العالم وسيظل كذلك في التاريخ –تقول وهي تبكي-ستذكره الايام والتاريخ اكثر من قادة الحركة يا ابي ,انا اعدكم يا والدي العزيز .

يمسح السلطان راسها ويقول :طبعا انني واثق تمام الثقة ,انك رسامة شاطرة ,احتفظت بكل لوحاتك التي رسمتين لوالدك بمناسبا ت الاعيا د والميلاد ,كما انك ملحنة ماهرة يا سلطانة الموسيقا والفن ,يقولون ان عبدالحميد ضد الادب ,واذا كان قولهم صحيح ,كيف سمحت للاميرات والامراء با ن يكونوا على مستوى عال من الفن والادب .

جواد:ينظر الى السلطان وابنته بتعجب ويقول: وكأن ما حدث شيئا وانتم بهذه الحالة من الجوع وعدم الراحة تتكلمون عن الفن! ليتك فكرت من قبل فيما حدث لك وما سيحدث!

سلطان:الله في عون المستضعف ,وسياتي يوما يخرج فيه قلبي آهاته – واغرورقت عيناه بالدموع .

جواد :الان ياتي وفد من مجلس الاعيان ليبلغكم قرار الامة بشانكم.

سلطان:اذهب لاتواضاء لاني ما امضيت ورقة ولا كتبة كلمة طيلة حكمي الا وكنت متوصيء ,وفي هذه الايام العصيبة يجب ان اكون متوضئا دائما للاستعداد لكل مكروه .

يذهب معه المشفقة وعبدالرحيم افندي .

يرجع السلطان وتعطيه الاميرة رفيقة المنشفة ,ويقول السلطان بارك الله فيك يا اميرتي.

يفتح الباب ويدخل الوفد والسلطان واقف يمسح ايديه ووجهه, ما قبلوا يديه وقال احدهم بعد الدخول:

لقد اتينا من قبل مجلس المبعوثان ,ان الامة قد عزلتك ولكن حياتك في امان

سلطان:ذلك تقدير العزيز العليم ,الم يجدوا سوى يهوديا وارمنيا والبانيا جاحدا ليبلغوا السلطان التركي خليفة الاسلام الذي خدم في موقعه ذلك ثلاثة وثلاثين عاما بقرار خلعه ؟!

انني انحني للشريعة ولقرار مجلس المبعوثان الذي اقيم من جديد,ان ما يحزنني ليس الابعاد عن السلطة واني مستريح الضمير من اداء مهامي ,واريد ان يكون معلوما لديكم انه لم يكن لي ادنى علاقة بالاحداث الاخيرة التي انفجرت وعلى امتي ان تبحث عن المسبب.وما التهمة الملتصقة بي ياترى ؟

اسعد الالباني: وهذا فتوى شرعية شريفة –يفتح الورقة ويقراء:

إذا اعتاد زيد الذي هو امام المسلمين ان يرفع من الكتب الشرعية بعض المسائل المهمة الشرعية وان يمنع بعض هذه الكتب ويمزق بعضها ويحرق بعضها وان يبذر ويسرف في بيت المال ويتصرف فيه بغير مسوغ شرعي وان يقتل الرعية ويحبسهم وينفيهم ويغربهم بغير سبب شرعي وسائر انواع المظالم ثم ادعى انه تاب وعاهد الله وحلف انه يصلح حاله ثم حنث واحدث فتنة عظيمة جعلت امور المسلمين كلها مختلة واصر على المقاتلة وتمكن منعة المسلمين من ازالة تغلب زيد المذكور ووردت اخبار متوالية من جوانب بلاد المسلمين انهم يعتبرونه مخلوعا واصبح بقاؤه حقق الضرر وزواله محتمل الصلاح فهل يجب احد الامرين خلعه او تكليفه بالتنازل عن الامامة والسلطنة على حسب ما يختاره اهل الحل والعقد واولي الامر من هذين الوجهين الجواب يجب كتبه الفقير السيد محمد ضياء الدين عفى عنه فلما قرئت هذه الفتوى الجليلة على الاعيان والمبعوثين سألهم سعيد باشا رئيس الاعيان الذي كان يرأس الجلسة اتختارون خلعه ام تكليفه بالتنازل فاجابوا بصوت واحد الخلع الخلع .

السلطان :لعنة الله على اعدائي.

البنات: اللهم امين .

سلطان: حتى هذه اللحظة لم اخالف القانون قيد شعرة لعنة الله على من فعلوا ذلك ,لم يكن لي أي دخل في تلك الامور ,لقد عملت عملت سنوات طويلة من اجل سعادة دولتي وامتي ,الا ان اعدائي يعدون لي دوما المصائب –يمد يده الى الاعلى ويقول:اقسم بالله لم ارتكب جرما ,والله لم ارتكب ذنبا ,بالله تعالى اقسم ما قصرت في عملي,ولكن ما حيلتي,ذلك قدري,رد الله كيد المفسدين عليهم – البنات:امين يارب-

سلطان:ان صدقاتي ظاهرة للعيان وليس علي ان اقولها فالتاريخ سيسجلها الغيت عقوبة الاعدام بعد جلوسي على العرش وها انذا اقابل الاحتقار مقابل رحمتي ,لقد بذلت جهدي ماذا علي ان افعل بعد ذلك؟فليحفظ الله امتي ووطني ولعن الله من كان سببا في تلك المصائب .

انني اسلم لكم البلاد بمثل ما وجدتنا عليه ولم افرط ابدا في شبر من اراضيها لاحد واترك للمولى عزوجل تقدير خدماتي ,ولكني ارجو ان اقيم مع عائلتي في قصر جراغان الذي كان يسكنه اخي,وانا اقسم بالله بانني لا ارغب بالسلطة .

ارام افندي الارمني:هذا ليس في صلاحيتنا حتى نمنحك ,وانت لاترغب في السلطة ,ولم كل هذا التاسف والولولة اذن؟وكما انك لاتسلم المنصب للارمن والالبان ,هاهو اخوك بعد قليل تطلق المدافع بمناسبة جلوسه ,فلو كان قرار اقامتك من صلاحياتي لفعلت بك مثلما فعلت بمدحت باشا ,ارسلته الى مدينة في وسط الصحراء ,فلم ما ارسلته الى قصر جراغان ؟

بعد هذا يخرج الوفد ويقول اسعد اثناء خروجه :كونوا على استعداد,ستخرجون من هنا في أي لحظة.

البنات والحريم كلهم واقفون ينظرون الى السلطان ,والمدافع تطلق بمناسبة جلوس السلطان الجديد, مشفقة تاخذ بذراع السلطان وتقول :هيا يا افندينا,اجلس وارتاح ,قبل ان نغادر ,لقد اتعبوك اليوم .

يجلس السلطان ويقول:هيا يا اولاد ,كفاكم حزنا ,اذهبوا الى حجراتكم ,استريحوا بعض الشيء ,ربما يخرجوننا من هنا ,ان عيونكم ذابلة ,توقفوا عن البكاء .

كلهم يقبلون يد السلطان ويتركونه الا مشفقة تبقى معه ومعهما القطة باموق تجلس مقابلهما وكانها ايضا تعرف ما يجري .

مشفقة:تنظر الى السلطان وهي تقول :كم ان تعيسة ,استشهد والدي وانا صغيرة ,وتناقلتني الايدي ورمتني القدر حت وصلت الى ان وجدت نفسي الى قصر يلدز ,فياترى الى أي جهة يرميني القدر هذه المرة,من تصدق ان يتيمة اباضية حملته القدر الى ان اصبحت سلطانة ,وها انا محاصرة من كل جانب,حاصروا زوجي وكانهم يريدون اقتلاع قلبي من صدري ,فارجوك ان لاتهتم يا افندينا ,آه لو تعرفون انتم كل شيء بالنسبة لي ,انتم قلعتي الحصينة.

اثناء هذا الكلام يقبل السلطان راحة السلطانة ويدها ويمسح على راسها ويقول لها :كونكم بجنبي في مثل هذا الضرف قوة لي وانسة ,فانا حتى الان ما فكرت في هذا ؟كيف استطاعت اليتيمة الاباضية الغريبة عن المجتمع التركي وعن حياة البذخ والرفاه ان تحتل الصدارة بين زوجاتي وتكون باش اقبالا لي ؟وكيف استطاعت ان تثير انتباه حتى الامبراطورة المانيا عندما زارنا ؟في حين كنت اخجل من تصرفات اخواتي وهن بنات سلطان عبدالمجيد وفي عائلتهن تصدر الامر والنهي ؟! الان عندما ذكرتني بحياتك تعجبت .كيف ما قارنت طول هذه الفترة ؟ان من السلطنة مشغلة كبيرة للانسان ,فانا لا اتاسف على المنصب ,لكن اعرف ان هذا التخت لايبقى بعدي كثيرا ,اليس كذلك يا اغا افندي ؟(يقول مخاطبا للقطةباموق)

لماذا يقال ان القطة غير وفي ؟ها هي تتفهم الوضع .

مشفقة :هي ايضا مثلي ,جاءت من وان وتتفهم الوضع اكثر من قطط اسطنبول .

يبتسم السلطان :مقارنة صحيحة يا عزيزتي .

يدخل جواد بك ومعه حسني باشا. ويقول حسني :يا سيدي ارجو المعذرة ان ازعجكم ,ولكن قرر الجيش ان ابلغكم ان مكان اقامتكم في سلانيك ويجب ان تغادروا هذه الليلة والا لاسامح الله ان حياتكم تكون مهددا .

سلطان:اريد الموت هنا ولا اخرج من اسطنبول ,هنا قبر اجدادي .

حسني:سيدي ,سلطاني ,انهم يحبون ان تكون عنيدا وتتخذونه ذريعة ,الاتذكرون مصير عمكم المسكين ,ارجوك هذا مسدسي وان شئت اجلس في العربة بجنبك ,كن هادئا كما كنت طوال عمرك يا سيدي .

سلطان:الاولاد ما ناموا منذ اسبوع بسببي ,الا يمكنكم ان تمنحونهم ان تناموا هادئا هذه الليلة تعرف ان الوقت قد تجاوز منتصف الليل .

مشفقة :لاباس يا عزيزي ,ها ان الاولاد استيقضوا ,تلتفت الى الاولاد :هيا يا اولاد , اميرتي استيقضي الكل فلياتوا الان نرحل .

مربية اميرة عائشة تاتي ةبيدها غطائين وتقول :خذهن يا اميرتي ,تحتاجون اليها ,الايمكننا يا سيدي ان نجمع الملابس والحاجات للاميرات والامراء والحريم ؟

غالب باشا:لا يا عجوزة ,في مكان اقامتهم كل شيء متوفر ,لا حاجة لنا لهذه الشفقة الزائدة ,فكثيرمن الناس ينامون في العراء .

وفجئة وبهذا الوقت المتاخر يملاء فناء القصر بالمدنيين ويسمع اصواتهم ,احدهم يقول:التحف الثمينة التي قدمها العظماء الى البخيل وجمعه بعناية كلها لنا يضحك بقهقهة ,والاخر يقول :وهدايا الاميرات الجميلات لنا والاخر يصرخ :لي ولربعي ممتلكات الحريم ..

سلطان:ما هذه التمثيلية يا غالب باشا ,لماذا تريدون ان تنهب قصر يلدز ,ماذا فعلتم باخي ؟

غالب:اتتوقع ان تفتح الكعبة وتبقى حولها التماثيل والاصنام ؟لقد انتهى عصر الفاتحين وبدا عصر التنوير والرشاد, ويكفي ان حياتك لا تنهب يا اخر من بقيت من عصابة المتحجرين الرجعيين ,اسرعوا في الخروج وخلوا الطريق لهؤلاء المساكين في الخارج كي ياخذوا فريستهم ,الليل متاخر وهم في العراء .

يهز السلطان راسه ويقول :الذي لايدخل في محفل سلانيك يجب ان يسجن في سلانيك ,فارجو من الله ان يحفظ دولتي , ولكن لو استطعتم ادارة هذه الدولة يا غالب باشا لمدة عشر سنوات ,عليكم ان تفرحوا وتقولوا ادرنا

البلاد قرنا من الزمان ,هيا يا اولاد هل انتم مستعدون ؟لنخرج بسم الله وعلى الله الاتكال .

يريد السلطان ان يخرج في المقدمة ولكن ترمي مشفقة هانم بنفسها وتقول لا يا افندينا ان اخرج اول وهلة اذا كان هنا ك مكروه فليصبني ,يا اولاد التفوا حول الوالد وكونوا له كالدرع الواقي حماه الله لنا ,تعال يا بني يا عبدالرحيم افندي من ورائي .

هكذا خرجت العائلة وكانت عددهم خمسة من الحريم هن:

1-مشفقة هانم

2-سازكارهانم

3-فاطمةهانم

4-بيوسة هانم

5-صالحة ناجية هانم

وثلاثة اميرات وهن:عائشة وشادية ورفيقة

واميرين :وهما عبدالرحيم وعابد

واربعة خزيندارات وهن :زلفت وكلشن وملك جان ونورستان

وعشرة من الخدم والمصاحبين .وهم كل من:جركيس اخو زوجة السلطان المرحومة بيدار وعلي محسن ,كاتب والمصاحبين شهرالدين وجوهر وسليم اغا وعلي افندي قهوجي وصدقي وحقي من الخدم وولي بابا ومصطفى من الطباخين

وبعد خروجهم يملاء القاعة باناس المدنيين ويكسرون الاشياء عن عمد وياخذون ويتكلمون ويقهقهون ويتصرفون تصرفات طائشة ويعبثون بالقط المسكين باموق قائلين له :مرحبا بمولانا السلطان ويؤذونه كثيرا و يصرخ باموق كالاطفال ,احد الطائشين يصرخ:انظروا ماذا وجدت ,البخيل الجبان نسي حتى عصاه ,اهكذا يغزو اوروبا؟! صوت الضحك .يضرب صاحب العصا بعصاه القط ويقول:اخرج ايها السلطان المشؤم ,واحد الخادمات تحتضن القط ولاتبالي بضربت العصى ,بل تمسك العصى وتقبله ,ويضحك الضارب بصوت مرتفع ويضحك معه غالب باشا .

والاخرون يجرون الخادمات من الغرف ويرمونهن على خشبة المسرح ومربية اميرة عائشة تصرخ :لا لاتاخذوا اشيا ء اميرتي ,لاتعبثوا بهذه الاشياء انها لاميرتي .

ويسدل الستار .

الفصل السابع :عنوان الفصل الوحش المقيد، شموخ خلف القضبان

السابعة

المكان:قصرالاتيني في سلانيك مكان اعتقال السلطان وعائلته

الزمان :1909-1912

اشخاص هذه الحلقة:

1- الظابط بواب السجن

2- سلطان عبد الحميد

3- مشفقة
هانم
20- ولي بابا الطباخ

3-سازكار
هانم
21- فاطمة هانم

4- بيوستة هانم

5-صالحة
ناجية هانم
22- مصطفى الطباخ

6- الاميرة
شادية
23-الامير عابد

7- الاميرة
رفيقة
24- مرضعة الامير عابد ماه انوار

8- الاميرة
عائشة
25- خزينةدار دلبستة

9-الامير عبدالرحيم
افندي
26- القلفة سرجمال

10-
كلشن
27- قلفة نوبربند

-11
زلفت

28-قلفة جنان يار

-12
نورستان

29- خزينةدارجوهريز

13- سليم
اغا

30- السيد نوري اغا

31- راسم بك

14-شهرالدين
اغا

32- القنصل
الالماني

15- جركيس
اغا

33- هادي باشا قائد الجيش الثالث

16- علي محسن
الكاتب

34- علي رضا
باشا

17- الامير عابد
الصغير

35-مدير بنك دويتش

36- خطباء الاميرات الثلاث

18- جوهر
اغا

37- زنون دبرلي

19- فتحي بك قائد
الحرس

يرفع الستار:

قاعة كبييرة بجنب المدخل الخارجي باب المطبخ وغرفة اخرى وفي الجانب الثاني غرفتين صغيرتين ,اما الخلف فيه درج الى الطابق الثاني.

يدخل احد الضباط وبيده شمعة ,يضع الشمعة على احد الرفوف ويصرخ هيا ادخلوا بسرعة ,المكان ليس مظلمة بما فيه الكفاية ,فالقبر اظلم منه .يدخل سليم اغا ومعه اخرين من خدم السلطان وبعدهما يدخل عبدالرحيم افندي والمشفقة هانم ثم يدخل السلطان والاميرات عائشة ورفيقة على جنبيه ,وهو يقول :لقد نسيت رفيقا مهما لهذا المكان وهو عصاي ,تجيبه رفيقة كلنا نكون عصاك ,بامكانك ان تعتمد علينا .

سلطان :اللهم ابقيهم لي يارب .

يخرج الضابط , ويغلق الباب عليهم .

مشفقة يبحث عن مكان ليريح فيه السلطان وهي تقول :ما فيه مكان ليريح فيه افندينا ,تعالي كلشن وساعديني لنضع هذا المقعد لسيدنا في المكان المناسب ,اخذا المقعد ووضعنه في وسط القاعة واخرج كلشن قميصا من الكيس الذي كان معه ومزقه وقالت:نجعل هذا منشفة ,ومسح بقطعة من القميص المقعد ,بينما مشفقة واميرة شادية كانتا تبحثان عما اذا كان في المقعد مكروه يؤذي السلطان , كانت اميرة عائشة التي كانت امسكت بذراع والدها اجلسته على المقعد ,ينظر عبدالرحيم افندي وسليم اغا الى المنافذ والشبابيك ,عبدالرحيم :حتى المنافذ مرصدة بمصاريع خشبية ضخمة ,لقد قطعت علاقتنا بالخارج تماما .

التف الاميرات والامراء والحريم والخادمات حول مقعد السلطان الذي غاص في تفكير عميق حزين ,وجلس الرجال في احد زوايا القاعة .

قالت كلشن لزلفى :لماذا لا نتفقد الطابق العلوي ,لعلنا نجد هناك مقاعد اخرى ؟

زلفى :ولكن الدرج مظلم ,فهل هناك شمعة اخرى؟

مشفقة: نعم خذي الشمعة,فكرة جيدة ,سيد سليم اذهب مع كلشن وزلفى الى الفوق لعلكم تجدون بعض الاشياء ,يا نورستان خذي عابد افندي من ناجية هانم ,هذا المسكين كان طوال الطريق نائما وارهق والدته .

تفرش الاميرة عائشة بعض الملابس الزائدة وتقول ضعيه هنا ,مسكين ما يعرف من اخبار الدنيا شيئا .

عاد سليم والسيدتين ومعهن مقعد اخر وضعته مشفقة للسلطان لكي يمدد على المقعدين وقالت :لعلكم ترتاحون بعض الشيء .

سلطان:نعم ارتاح من ثقل اثقل كاهلي منذ ان توليت امر المسلمين ,بل منذ ان ولدت ,الان يا ابنائي دخلنا عالما جديدا ,عالم لم نره ولم نفكر فيه ,اننا محبوسين بعد ما امضيناه من ايام خطرة ومفجعة ومرهقة وهذه حقيقة مؤلمة ,عندما نفيت مدحت باشا ومحمود باشا ,بعد اعترافهم في جريمة قتل السلطان حرصت ان اوفر لهم كل ما يحتاجونه في منفاهم ,وها انا نفيت بدون تهمة ,وبدون توفير ادنى خدمة لي ولعائلتي ,هل اعطوكوم ماتاكلونه ؟

مشفقة:لا تشغل بالك سياتون يا افندينا.

سلطان:هل يوجد ماء للوضوء ,الوضوء يضيء هذ الضلام يا اولادي ,فاننا بحاجة اليه اكثر من قبل .

يقوم السلطان ويذهب معه كل من حركيس وجوهر الى مكان الوضوء وعبدالرحيم امامهم وبيده الشمعة

تستغل مشفقة غياب السلطان وهي تقول:

اقول لكم يا اخواتي والاميرات وانتم يا اخوان ,لا يشكو احد منا من نقص الطعام او عدم توفرالاشياء والراحة ,فيحزن بذلك سيدنا ,ليكن حاجة كل منا حبيسة في صدره ,كلنا جائعين ,ما اكلنا شيئا منذ اسبوع ,ولايوجد ملعقة وشوكة وكوب وصابون ومنشفة وحمام مجهز وسرير مرتب ,بل لا يوجد حتى السجاد نصلي عليه ,التفوا حولكم جميعا الالحفة وتمددوا على هذه الاخشاب ,,تمالكوا انفسكم,واطرحوا كل ماسيكم خلف ظهوركم من اجل سلامة افندينا ,ضحيتم بحريتكم من اجله ,كان بامكانكم ان تتركوه ,والان ضحوا بكل شيء في سبيل حبه – من هنا تبكي المشفقة وتبكي الاخرين- كان بالامس سلطانا وكنا انذاك نقبل يديه وذيل ثوبه اما اليوم فكل شيء رحل عن يديه الا نحن ,فعلينا نرتبط به اكثر من ذي قبل ,جففوا دموعكم وكونوا مهذبين وكانما يعيشون مع سلطاننا في قصر يلدز ,كلما استيقضتم تقبلون يديه ,وكلما ذهبتم الى النوم كذلك.

يعود السلطان وتفرش مشفقة عبائتها ليصلي عليها السلطان.

سلطان:هذه هي عباية التي اشتريتها لكي عندما ذهبت الى الحج متخفيا , ويبدا السلطان صلاته .

جوهر:وهل ذهب سيدنا الى الحج متخفيا يا سيدتي ؟

مشفقة :نعم ,زاره مرشده في الحج مرة وحكا لنا قصته العجيبة مع السلطان .

شادية :ارجو ان تخبرنا القصة ؟

مشفقة:رغم انني ما سمعته من مولانا ,ولكن بعدما حكاه لي المرشد بحضرته وقرات في وجهه انه ما احب ان تذكر هذه القصة ,ولكنني لا اخيب ظنكي وارجو ان تكتبينها عندما تكتبين مذكراتكي.

قال الرجل المكي:كان موسم الحج قد بدا فذهبت لالقي الحجاج الذين يفدون من كل انحاء العالم الى الحج بصفتي مرشدا للحجاج ولانني تاخرت بعض الشيء لم يبقى لي احد ارشده وفيما كنت اقف هناك يائسا سالني احد الاتراك ظننته فقيرا من لباسه :ايمكنك ان تعمل لدي مرشدا في الحج ؟وفي ظل حاجتي قبلت اقتراحه مع ظني باانني لن احصل الاعلى شيء يسير,فاصبحت دليلا لذلك الشخص طوال مدة الحج.

وبعد نهاية موسم الحج قال لي الشخص التركي الذي لايتكلم كثيرا طوال فترة الحج :خذ هذا المظروف ولا تفتحه ثم اذهب به فورا الى والي مكة

,فقال المكي :ذهبت فورا الى والي مكة واعطيته المظروف وما ان فتحته حتى نهض على قدميه وقال: ختم السلطان عبدالحميد خان ! يقول المكي:تحجرت في مكاني من الدهشة !فاذا بالذي كنت دليله طوال فترة الحج كان السلطان العثماني؟وفي الرسالة كان قد امر الوالي بان يعطيني دارا ويخصص لي ولابنائي معاشا .

شادية:ما اجمل هذه القصة !

عندما كمل المشفقة قصتها ,انتهى السلطان من اوراد الصلاة وادعيته وقام وجلس على مكانه وقامت شادية وقبلت يده وقالت له لقد كانت اجمل قصة سمعتها يا والدي.

مسح السلطان راسها وضمها الى صدره وقال:أي قصة يا اميرتي؟

شادية:قصة ذهابكم الى الحج؟اما سمعتم؟لقد حكاها لنا الوالدة ؟

سلطان :رغم انني ما تنبهت لاشتغالي بصلاتي بين يدي الله,لكن المكي زارنا وحكى قصته معي يا اميرتي .

تمدد السلطان واشار السيدة مشفقة الى شادية بان تترك الوالد لينام ,ولكنه اصابه الارق وقال: لاادري ماذا سافعل؟و انتم ماذا ستفعلون ؟

عائشة:لا تحزن يا ابي سنجد حلا غدا,ولكن الان تجاوز منتصف الليل ,وعليكم ان ترتاحوا قليلا .

جركيس :ان مولانا منذ انني عرفت من ايامي اختي المرحومة زوجة مولانا بيدار هانم انني كنت اقراء له كل ليلة وراء الستر بعض الكتب حتى ينام ,ووانتم تعرفون ذلك يا سيبدتي .

سلطان:بل منذ صباي يا سيد جركيس ,انا متعود كان مربيتي تنشد لي اناشيد الننة وتحكي لي قصصا جميلة حتى انام ,وبعدما كبرت بدلت تلك العادة بقراءة الكتب وسابدله الان بالهواجس والهموم .

عائشة :وانا من حقي ان لا اسمح بان يملاء احب الاشخاص الي بعض حياته بالهواجس والهموم ولذا ان سمحت لي سانشد لك حتى تنام يا احب الناس الي .

السلطان يضمها الى صدره ,ويقول :ان علامة نجاحي في الادارة والمداراة ان الاولاد والخدم والحريم متعلقون بي ,لقد تجلت لي حقيقة ربما خافية علي بعض الشيء ,انكم اهم الناس بالنسبة الي ,بل قطعة مني,ذهب الوكلاء والوزراء والسفراء والباشاوات والقادة ,وحتى الاخوان ,كلهم في بيته ,وسجنتم انتم معي باختياركم ويبكي السلطان.

مشفقة :يا سيدي ارجوكم كونوا قلعة حصينة كما عرفناكم ,من اجل صحتكم ياسيدي .

سلطان :احاول يا عزيزتي ,هيا يا اميرتي ,اسمعيني ما في قلبك البريء وانسيني بعض الامي .

يتمدد السلطان ويغمض عينيها و تاخذ الاميرة عائشة بيد والديها وتبدا و بصوت رومانسي هاديء مناسب مع هدوء الليل وكابة المشهد:

نم بسلام ايها السلطان الكريم وبسعادة ايها الوالد الرحيم

لا تلتفت قط لحماقة اللئيم لن ينالوا من قدرك العظيم

ولاتحزن اذا انساك الاشقياء وسبوا انفسهم بعض الاغبياء

ستحمل اسمك الطرق والجسور ثلاثون الف مدرسةتنشرالنور

والمطبوعات شاهدكم للعصور بالجديد المفيد اضاتم الديجور

انتصرتم في ملحمةالسكةوالبريد والتلغراف والغواصةيا سديد

قصركم الذي يعد تحفة الزمن فيه الدرويش مع المسرح والفن

يامصلح بعيدا عن الحروب كافحتم للسلام بجهد دؤب

كنتم قليل الكلام ,كثير العمل بنيتم المشافي لتداوي العلل

كنتم اشجع الناس في العلوم و كنتم اشفق الناس ياخدوم

كرهت الشنق والقتل والاعدام وخطيت بشعبك الى الامام

نم ياسلطان الاسطول والدستور ثبتت الشورى والمشروطية والنور

ما اشقاه الشعب الذي ينساك تعيسة الامة التي لاتهواك

ثلاثة عقود يا مجاهد الجسور جنبت الامة من ويلات الشرور

انت بنيت السلام وكرهت القتال وفي بناء الانسان نلت المنال

كم كنت تكره الحقد والنفاق ياموحد الامة ومانع الشقاق

مثل عثمان منعتهم يا حنون من الاقتتال لذا القوك في السجون

جئت الى راس دولة ممدودة كقصعةفيها اياد عديدة

مديونةمصدومةبصدمة يامحنك داويتهم بحكمة

اديت ديونهم الكثيرة وعالجت قضاياهم المثيرة

موزع المصاحف ومدرسةالعشائر موحدالاقوام والعقول والضمائر

ارجو ان يريك الله احلاما سعيدة ويدرك الشعب حكمتك السديدة

تمسكت بميزان العدالة نم بسلام يا صاحب الجلالة

نم بسلام يا صاحب الجلالة

نم بسلام يا صاحب الجلالة

تنخفض صوتها شيئا فشيئا في البيوت الاخيرة وتغلب عليها النوم وهي جالسة مستندة ظهرها الى مقعد الذي نام عليه والدها وهي امسكت بيد ابيها ووضعت خدها على كفه.

واثناء هذه الانشودة تذهب مشفقة هانم وتتوضاء وترجع وتصلي وعندما تنتهي الانشودة تلف اللحيف حول بنتها وهي تقول متخافتا: القاعة باردة يا اميرتنا الفنانة,ما كنت اعرف انكي تعرفين كل هذه الحقائق عن اباك ,لماذا خزنت كل هذه الحقائق المحزنة ياحمامتي وانت في بداية الرحلة ؟

علي محسن :خلقت لتكون بجنب اكابر الباشاوات الذين يديرون شؤون البلاد ويصلحون احوال العباد ,ولكن فجئة وجدت نفسها مطرودة من كل احلامها و...

مشفقة :ارجوك يا سيد جركيس ,لاتكمل ,فانني ما وصلت الى الياس ,وارجو من الله ان يرجع الرشد الى راس القوم وما ذلك عليه بعزيز .

سليم: يا سيدتي ,الان موعد اذان الصبح ,وطبعا هنا لانسمع الاذان ,وان متيقن بان مولانا يفرح كثيرا لو اذنت .

جركيس:لكن مولانا مرهق جدا ,دعه ينام قليلا ,واعرض عليه الفكرة فيما بعد.

وفي هذا الاثناء يستيقظ السلطان ويسحب يده تحت راس الاميرة بهدوء ويقبل راسها وهو يقول :الحمدلله الذي احيانا بعد ما اماتنا واليه النشور, اما نمتي يا عزيزتي ؟وانتم يا اغوات؟اظن ان تبديل المكان ازعجكم .

علي محسن:لا يا سيدي ,ولكن استيقظنا مبكرا ,ارجو ان يكون مولانا بخير .

يقوم السلطان ويذهب معه كل من شهرالدين وجركيس معه ليستعد نفسه للصلاة وهو يقول لسليم :الا تسمعنا الاذان يا سليم اغا؟

يبدا السليم بلاذان وتستيقظ مشفقة هانم الاميرات والخازندارات بهدوء ,وتفرش العباية للصلاة ويعود السلطان ويبداء صلاته واثناء صلاته يدخل فتحي رئيس الحراس ومعه الفطور-الزبادي والصمون - وهو يقول:نعتذر

اذا كان المكان غير مرتب ,ولكن فيما بعد اطلبوا ما تحتاجون ونحن ننفذها قدر صلا حياتنا .

يضع الطعام ويخرج .

السلطان يتم صلاته وتقبل الاميرات والخادمات والسادة يده ويطلبون منه ان يدعو لهم ,ويفرح السلطان بهذا المشهد ياخذ ابنه عابد من امه ناجية هانم وهو لم يكمل سنة الاولى ويقول للمشفقة :وزع الفطور يا عزيزتي ,اعرف انكم جائعون ,اليوم نطلب من فتحي ان يهيء غرفة من الطابق الاعلى للصلاة ومادام هناك مؤذن,يجب ان نصلي جماعة ,كما اطلب ان ياتوا بادوات الطبخ وناكل الوجبات الشهية النظيفة لسيدولي باباومصطفى .

ولي بابا:انني اشعر بالسعادة يا سيدي ان اخدمكم دائما .

سلطان:وسامحوني يا احبابي ,اذ لقيتم الاذاء بسببي .

عائشة :لاياسيدي ابدا ,اصلا اننا سبب متاعبكم؟

سلطان:كيف؟

عائشة:اننا كنا مجموعة من السجناء الدراويش ,وطلبنا من دولتكم العلية اننا نريد ان يعين الدولة لنا اماما يؤمنا في الصلاة ,ولكن سادات الائمة رفضوا ان يؤموا السجنا ووصل الامر الى حضرة السلطان ,وكان قد سئم

من الحكم ولذا ترك الدنيا وهمومها لاخيه واراد ان يكون متفرغا للعبادة واختار ان يعتكف معنا ,ليكون اماما لنا في الصلاة والارشاد.

يبتسم السلطان ويهز راسه ويقول :اما بالنسبة لاني اريد ان اتفرغ للعبادة ,صدقتي يا حبيبتي .وانني اسعد كثيرا اذا قبلتموني يا سادة الدراويش .

الكل:بكل فخر واعتزاز يامولانا.

علي محسن :يا سيدي ان ما قالت الاميرة صحيح ,انتم قبل ان تقودوا السفينة الكبيرة ,كنتم تديرون مجتمعكم الصغير الذي كان عبارة عن عائلتكم ومزرعتكم وحياتكم الخاصة وكنتم موفقين في ذلك .

توزع مشفقة هانم الفطور بين الحاضرين رجالا ونساء

سلطان:نعم يا سيد الكاتب كان مجتمعي اصغر من هذا المجتمع ,ولانني ما كنت وليا للعهد ,لذا ما كنت اتوقع المهام الكبيرة على الاقل بهذه السرعة ,واني لا اقول اني كنت ناجحا في مهامي الصغيرة منها والكبيرة ,بل اتركها للتاريخ وهو يقول كلمته الحاسمة وحكم التاريخ اعدل واحكم على الاشخاص والازمان والدول.

ينظر السلطان الى اميرة عائشة وهي تاكل قطعة الصمون ويقول:

ابنتي اراك ذابلة الوجه ,هل انت مريضة؟

عائشة:لا يا افندينا انني بخير ولاتشغلوا بالكم بنا

يتاوه السلطان ويقول:اولادي المساكين انكم في ضيق ,يسكت برهة ثم يقول:انك تعشقين الموسيقى ,اوصي فتحي ان ياتي ببندول وبيانو وتحبين الرسم كذلك ؟ عائشة تهز راسها

سلطان:اوصيه باحضار طاقم من الالوان الزيتية فترسمين لنا المناظر الطبيعية الجميلة .

عبدالرحيم:واوصيهم ان تاتوا الينا بخريطة للعالم نعلقها .

سلطان:ان شاء الله يا ابني .

قبل البنات وعبدالرحيم يد الوالد وفرحوا كثيرا .

يدخل فتحي ويقول :ارجو المعذرة يا سيدي ,من اليوم احاول ان اوفر لكم ما تطلبونه وان الدولة قد خصص لكم 800 ليرة شهريا .

كلشن تاخذ عابد من السلطان ويقول السلطان لفتحي:توفرون ادوات المطبح لان معنا طباخ ,وتوفر المفروشات النظيفة للمصلى ,وطبعا لايحتاج ان اقول ان ادوات الغسل والنظافة ضرورية ,كما اننا نريد احضار بيانو ومندولين وطاقم زيتي للرسم للاميرات ,وخريطةكبيرة نعلقها على الجدار,وان زودتنا بالجرائد سيسعدنا كثيرا.

فتحي:اما الجرائد لا استطيع ,وانها لاتسعدكم كثيرا,و..

سلطان:لماذا لاتسعدنا؟

فتحي:ارجو المعذرة ياسيدي ,لا استطع ان اخبركم .

واما بالنسبة لخريطة العالم ربما لا يوافق قادة الجيش ايضا.

سلطان:وهل ان اخي ليس له أي صلاحية وكل الامورييد قادة الجيش ؟وهل تخافون ان نغزو العالم انطلاقا من هذا المعتقل؟

عبدالرحيم:يا سيدي ارجوكم لانريدها لاترهقوا اعصابكم .

يقول فتحي اثناء خروجه :وبالمناسبة ياسيدي ان لديكم ضيوفاجديدة .

يفتح الباب ويدخل كل من:مرضعة عابد ماه انوار وخزينةدار دلبستة ومعها القطة باموق والقلفة سرجمال وقلفة نوبربند وقلفة جنان ياروخزينةدارجوهريز والسيد نوري اغا ,كلهن تقبلن يد السلطان وهن تبكون وتعانقن مع السيدات .

ماه انوارتحتضن عابد وتقول :لقد حولوا قصر يلدز الى العدم ونهبوا كل شيء وان هذه الاسابيع الثلاث الذي قضينا بعيدا عنكم نسينا كل نعم حياتنا

السعيدة ,لقد اهانونا وجردوامن كل الاشياء ,حتى مجوهراتنا الشخصية وحقيبة عابد افندي .

سرجمال:كم اذوا مرضعتكم ياسيدة عائشة اذ كانت تمانع ان تسلمهم اشياء اميرتها؟!

سلطان:اظن ان هؤلاء يريدون الفناء لهذه الدولة ,ان اهانة النخبة الحاكمة بقصر يلدز اهانةلهم انفسهم وسيصغرهم في عيون اقرانهم ,فان الثوار الفرنسيون ما فعلوا بفرساي عندما اطاحوا بملكهم ,وهؤلاء لم يعلنوا الجمهورية بل مجرد تبديل سلطان بسلطان اخر ,ان هذه الافعال فيها معاني كثيرة ,لايهمني يلدز بقدر مايهمني فلسطين ,ماذا قرروا بشانها ؟

نوري:لقد الغوا مرسومكم بتحويلكم اراضي فلسطين الى ملكيتكم الخاصة كي لا يبيعها احد ,واباحوا بيعها لليهود بسعر ارخص من الاخرين,وان اليهود فرحوا بهذا الوضع كثيرا ,اذ ان كبار الوزراء والباشاوات منهم ,وسيطروا على امور الدولة في اسطنبول وفتحوا فيها محافل كثيرة ,كما انهم في فلسطين وضعوا لهم اعلاما خاصا بهم وصكوا نقودا خاصا وطوابع بريدية خاصة بهم وكانهم دولة داخل دولة .

مشفقة:يكفي يا سيد نوري لا تنقل لسيدنا كل ما سمعت في شوارع استنبول من أي مغفل لا دراية له بالامور ؟واني ارجو الخير في الامة .

سلطان:افهم قصدكي يا عزيزتي ,تريدين ان تواسيني ,اشكركي على ذلك ,لكننا نضيع فلسطين اذا فتح لليهود بيع الاراضي ,لان اليهود لديهم البلايين ,وان العرب الساكنين فيها جشعين ولايهمهم الا الحصول على

النقود ولهذا اردت ان اسكن فيها القفقاسيين والارناؤوط لان عزيمتهم اقوى من السكان الاصليين ,واذا ضيعنا فلسطين فان تحريرها يتطلب صلاح الدينا اخر ولا ارى في الافق من يكون مثله.

يقبل عبدالرحيم كتف السلطان ويقول ارجوك يا سيدي لاتياس ولاتحزن .

سلطان :يمسح راسه ويقول:على القطان اذا واجه العاصفة ان يحاول انقاذ مايمكن انقاذه ,وبعد انتها العاصفة اذا جلس حزينا على فقده وياس وما فكر بالذي انقذه الله له سيضع هو الاخر ويبقى هو وحده ويكون فريسة دسمة لنوائب الدهر في العراء .

يدخل فتحي ومعه البندولين والبيانو وطاقم الزيت وهو يقول :لقد استغرب قادة جيش الحركة مطالبكم وقالوا ان السلطان بعدما حارب الفن والادب طيلة حكمه ,والان يريد تحويل معتقله الى معهد للفنون الجميلة وهو يكون عميد المعهد.

سلطان:انا كنت عدوا لسوء الادب يا ابني ,من اجل قلم ضياء باشا وليته على الوزارة ,وكذلك نامق كمال باشا ,فحتى عندما التحق بالمعارضة وذهب الى اوروبا ما قطعت منه راتبه الذي ادفعه من جيبي الخاص ,وعينت ابنه ككاتب همايوني في قصري واحتفظت برسائله التي يملائها بالشكر والثناء لمقامي ,وما استحيا بعض الادباء ان يكتبوا لي بان اقضي حاجاتهم الشخصية ,فامثال عبدالحق حامد وابوضياء توفيق وعبدالله جودت الذين يثرثرون كثيرا بعد اعلان الدستور,لو كشفت ماعندي من شكاواهم وطلباتهم غير المعقولة لافتضح امرهم ,وارجو ان تسال قادتك من فتح اقسام اكاديمية الفنون الجميلةوكلية الاداب والفلسفة في الجامعة الشاهانية ؟ومن وضع المسرح في يلدز وطلب من كبار

المخرجين والمسرحيين الغربيين ان يقوموا بتدريب الفانين لعرض المسرحيات العالمية في المناسبات ؟ وانا سمحت للحريم ان تشاهدن المسرحيات وان تكن لهن فرق للاناشيد والاستعراضات والتمثيليات في حين ان هذا الحق منعت منهن في كثير من الدول الاوروبية ,لوكنت عدوا للادب يابني ماجمعت خمسين الف كتب في مكتبة يلدز وما طبع في عهدي عشرات الالاف من الكتب, وهل كان السلاطين قبلي اهتموا مثل اهتمامي بالصحافة ؟,ولكن طبعا لايسموننني سلطان الفن والصحافة والدستور ,بل انا البخيل والجبان والمسرف والمجنون .

عائشة:حاشاكم يا افندينا ,انتم لاول مرة ادخلتم السينما المتحركة الى القصر ووفرتم للامراء والاميرات الالات الموسيقية والكتب المفيدة والمعلمين الماهرين ,حتى استطاع اخي برهان الدين ان يقطع اشواطا كبيرا في التلحين ,بل لايزال المارش الحميدي يرن في مسامعنا وانتم وضعتم هذا اللحن يا افندينا ,لاتحزنوا على ثرثرتهم سوف اكتشف كل الحقائق .

فتحي: ارجو المعذرة يا سلطاني انني لم اقصد الاساءة فانما انا كالالة وانتم فوق كل الشبه عندي ,يقبل يد السلطان ويخرج ويقول السلطان:اعرف انهم مستبدون الى اقصى حد يا بني ,واني لا ازعل منك .

مشفقة :تبتسم : لقد زادت الاميرة عائشة صفة اخرى الاوهي محامية السلطان .

يبتسم السلطان ويضمها الى صدره وهي تقبل يده .

جلس العائلة حول السلطان يشربون الشاي ,وذهب كل من الامير عبد الرحيم و الاميرات الثلاث والخازندارات والخادمات الى الطابق الاعلى وانزل جرجيس وسليم سريرا من الاعلى لينام عليه السلطان ووضعوه في احد زوايا المسرح وهيئوا السرير وقال جرجيس :بامكانكم ان تستريحوا هنا يا مولاي ,وجا ء شهر الدين اغا بمقعدين ووضعهما بجنب السرير وقال :ويجلسون على المقعد احيانا ,وهناك منضدة قديمة ولو لاتليق بمقامكم ,هل ناتي بها ؟سلطان:نعم احيانا اكتب بعض الاشياء .

يذهب الثلاثة وينزلون المنضدة القديمة والسلطان يداعب مع عابد ,ويسال اين الاولاد ,تقول ماه انوارالتي حبسها عابد من الالتحاق بهن :انهم يعزفون البيانو ويرسمون يا سيدي.

مشفقة :بامكانك ان تذهبي اليهم ياماه انوار وتاخذ معكي عابد افندي.

تذهب هي الاخرى ,ويفتح الباب واحد العسكريين-راسم بك-ينادي جرجيس ويدخل بعض المقاعد ويقول هذه المقاعد لمن يزور السلطان من الضيوف.

سلطان:هذه مقدمة يا سادة لمجيء الضيوف ,وبامكانكن ان تذهبن للطابق الاعلى .

تذهب الحريم الى الطابق الاعلى والخدم الى جهة المطبخ ,ويبقى السلطان والمشفقة وجرجيس اغا فقط.

يدخل فتحي ويقول :اريد ان تمنحوني بعضا من وقتكم .

سلطان:تفضل ,ويذهب السلطان الى السرير ويجلس على احد المقاعد ويجلس فتحي بجنبه, يبدو ان عند فتحي حاجة ولكن يفكر في مدخل مناسب للدخول في الحديث ,بعد برهة سكوت يقول:

ان موقف الخزانة اصبح لا يساعد حتى على دفع مرتبات الموظفين الشهرية وان الجيش في حاجة ماسة الى مساعدتكم.

سلطان:كيف يمكن لسلطان مخلوع مثلي ان اساعد الجيش لقد حبست مع اولادي منذ سنة هنا ومنعنا حتى من الاطلاع على الصحف ومرتب الذي حددها الحكومةلنا لا تكفينا ,اذن كيف اساعدهم؟

- بان تمنحوا نقودكم وسنداتكم الموجودة في البنوك للجيش .

- اولا ماوضعته في البنوك لايساوي ربع ما املكه قبل ان اتولي السلطنة ,وصرفت الكثير مما كنت املكه من مالي الخاص في امور الدولة ولم افكر قط باسترجاعها ,ويعلم الله اني لم افكر في نفسي حتى الان ,فكرت فقط في ديني وامتي ووطني ولهذا السبب كسبت الكثير من الاعداء ولو كنت افكر في نفسي لكنت قضيت وقتي في هناء ورغد ولالقيت شيئا امام الاجانب الذين كانوا على اهبة الاستعداد لفتح كنوزهم لي ,لقد مرت علي ايام بعت فيها زرار كمي انني الان اعيش بخمسمائة قرش,ولكن ماذا سيحدث لاولادي وهذه الثروة التي تتحدث عنها لايسد حاجة كتيبة واحدة من الجيش ,فانا لم تعدبي حاجة الى الدنيا ومتاعها ,ولكن اريد بهذه الدريهمات ان اترك شيئا يسيرا لاولادي الذين سجنتموهم بسببي ,واولادي هم ايضا اولاد الدولة وان اعدادهم اعدادا جيدا يعود فائدته للدولة وليس لي , اهذا امر من اخي؟

- هذا رجاء من الحكومة والجيش مقدم اليكم.

- حسنا,وماذا يحدث لاولادي؟

- ان حياة ونفقات اولادكم تكفلها الدولة والجيش.

- من سيعطيني الضمانات؟من باسم الدولة ؟ومن باسم الجيش؟

- قال فتحي مضطربا:معلوم لديكم ان الجيش تكفل حياتكم منذ خروجكم من استانبول .

- ومن باسم الجيش ومن باسم الدولة امركم بتبليغ هذا؟

- اجاب بطريقة خشنة:ليس مسموح لي بالافصاح عن هذا,واجبي ان ابلغكم بشيء واعرف رايكم فيه وايا كان ردكم فساكتبه الى الجهة التي كلفتني به .

- طيب, وهم يعرفون ان بناتي قد كبرن ,ووصلن الى سن الزواج ولي اولاد وصلوا الى سن الذهاب الى المدرسة ,وعلى تلك الجهة التي ارسلتك ان تسمح لبناتي بالخروج من هنا وتسمح لهن بالتزوج وكذلك تامين تحصيل و تربية لاولادي وفيما عدا ذلك فسهل.

- يعني انكم تتبرعون ايداعاتكم للجيش؟

- ذلك امر سهل ,اكتب اولا بما رجوته واتني بخبر مفرح في وقت سريع .

خرج فتحي ولم يكن مسرورا لانه لم يستطع الحصول على الاجابة واثنا خروجه اعطى رسالة لجركيس وقال :اظن انها من الشيخ ابو شامات شيخ الطريقة الشاذلية في الشام .

اما السلطان يبدو عليه الاسى والحزن .

مشفقة:هل فهمت من مغزى كلامه أي اسرار؟

سلطان:طبعا يا عزيزتي,لقد وقعت هوة كبيرة في دولتنا بين الجانب المدني التي هي الدولة وتمثلها الاتحاد والترقي ومجلس المبعوثان وجانب الاخر هو الجانب العسكري ويمثله الجيش ,والعالة السلطانية ليس لهم الاالاسم وهم خارجون عن كلا الجانبين ,وكذلك فهمت مدى ضعفهم ,اذ انهم يخافون مني وانا في هذه الحالة , من فضلك يا سيد علي محسن اقرا لي رسالة شيخنا ابي شامات .

علي محسن:نعم يا مولانا ,لكنهم محوا كثيرا من نص الرسالة .

سلطان :طبعنا يمسحون ,بل لو كان بمقدورهم لمسحوا اكبر الحقائق ,كما رفض كبيرهم احمد رضا ان يؤدي اليمين بلفظ الله عندما تولى رئاسة مجلس المبعوثان.

علي محسن: يقول الشيخ في رسالته: بسم الله الرحمن الرحيم

يبدو يا سيدي انه كتب الى سلطان الامة فشطبوها وكتبو عبارة المستبد والفاظا بذيئا اخرى ,وانه يسلم عليكم ويشتاق ان يعرف خبر سلامتكم ويبدو انه كتب احوال الشام بشيء من التفصيل وهم شطبوها وفي الاخير انه كتبه في تاريخ في الثاني من شهر مايو من هذه السنة .

سلطان :احضر ورقة وقلم واكتب الجواب لشيخنا :

يحضر علي محسن الورقة والقلم وينتظر ,يقول السلطان:اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم

تلك هي عريضتي ارفعها الىالشيخ محمود افندي ابي الشامات ,شيخ طريقة الشاذلية العليا,اعرض عليكم بعد تقديم سلامي وتبجيلي لكم راجيا منكم الدعوات,اني قد تلقيت رسالتكم واحمد الله تعالى على انكم في صحةوسلامة .

بعد هذه المقدمة اعرض عليكم وعلى امثالكم من اصحابالسماحة و العقول السليمة هذه المسالة الهامةعلى سبيل الامانة التاريخية :

انني لم اتخل عن الخلافة الاسلامية لسبب ماسوى انني اجبرت على تركها تحت مضايقات وتهديدات زعماء جمعية الاتحاد والترقي ,لقد اصر هؤلاء الاتحاديون على ان اصدق على تاسيس وطن قومي لليهود في اراضي فلسطين المقدسة وقد رفضت رفضا باتا ذلك الاقتراح رغم اصرارهم وتهديداتهم وقد وعدوا ان يعطوني بدل ذلك مائة وخمسين مليون ليرة ذهبية انجليزية ,ورددت عليهم قائلالهم:

لا اقبل اقتراحكم وان اعطيتموني ملاء الارض ذهبا,لقد خدمت الامة الاسلامية اكثر من ثلاثين عاما,وانا لاالطخ صفحات ابائي واجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين وبناء عليه فاني لا اقبل اقتراحكم ذلك .

وبعد هذا الرد القاطع اتفقوا فيما بينهم على خلعي وارسلوني الى سلانيك,وقبلت واخترت السجن وكان احب الي مما يدعونني اليه واحمد الله على انني لم اوافق على اقتراحهم لتاسيس دولة يهودية في فلسطين المقدسة التي توصم الدولة العثمانية وكل العالم الاسلامي بالعار ,وبعد هذا حدث ماحدث ,وما قدمته في هذه المسالة الهامة يكفي , الثم يديكم المباركتين,وارجوا ان تفضلوا بقبول سلامي واحتراماتي لكم.

سلامي الى جميع الاخوان والاصدقاء,يا استاذي العظيم لقد اطلت عليكم ولكن اردت ان احيط سماحتكم والاخوة من جماعتكم علما .

والسلام عليكم ورحمة الله

وبركاته

خادم

المسلمين:عبدالحميد بن عبد المجيد

-22

ايلول\1329.

ومن فضلك اكتب لي نسخة ثانية من الرسالة وارسل الاول الى الشيخ ,لانهم يشطبون منها كثيرا من الفقرات.

علي محسن : امركم يا مولانا.

مشفقة :ارجو منكم ان تحدثوني عن هذا العرض يا افندينا.

سلطان:عزيزتي..

يفتح الباب ويعود فتحي ويقول السلطان :انظر ماذا عنده ثم نتكلم عن هذا الامر يا عزيزتي .

مشفقة :تفضلوا يا افندينا.

يجلس فتحي ويقول :ياسيدي تلقيت برقية من سيادة الفريق هادي باشا ,قررجلب رصيدكم الى سلانيك وهذا توكيل اعد لهذا الامر فارجو منكم التفضل بالتوقيع .

سلطان:وماذا عن طلبي؟

- الجيش مستعد لتنفيذ طلباتكم .

- تعرف ان هذا النقود حق الاولاد ومن حقهم ,ولا اجد في نفسي حق اتخاذ القرار ,فلابد ان اجتمع بهم ثم اخبرك بما استقر عليه الراي.

- ان الجيش ينتظر الرد على عجل ياسيدي واترك لكم التوكيل . وضع المظروف على المنضدة.

- غالبا فان الرد لن يتاخر طويلا.

حياه تحية عسكرية وخرج

مشفقة :هل ادع الاخرين؟

- من فضلك يا عزيزتي .

تذهب مشفقة وتدع الحريم والاميرات وعبدالرحيم افندي وكلهم يلتفتون حول السلطان والخازندارات تقفن على الدرج .

سلطان:يا اولادي ,تعرفون بانني تنازلت على السلطنة والملك وكل ما في الدنيا ,ورماني القدر الى زاوية من زوايا امبراطوريتي الشاسعة التي كنت الامر والناهي فيها لثلاثة عقود, وهاهم لايتركونني حتى في هذه الحالة ,انني جمعت لكم بعض الدريهمات ووضعتها في احد البنوك وان الجيش يريد سحبه وان يترككم بلا سند في حياتكم ,وان لم نعطيهم فان ارواحنا في ايدهم ويكفي ان يقصفوا القصر ببعض المدافع وينشرون بين الناس بان بعض العصابات قتلوا السلطان ومن معه .

مشفقة:نعتمد على الله يا افندينا ولا نريد شيئا ,اعطيهم ما يريدون .

عبدالرحيم:نعم اريدكم بسلامة ,ولا نريد شيئا اخر .

سلطان :وماذا عنكن.

ناجية :كلنا على هذا ياسيدي لا يهمنا من هذه الدنيا الاسلامتكم .

الكل تهزن راسهن تصديقا لها

سلطان:بارك الله فيكم يا اولادي ,انتم فهمتم الدنيا الزائلة على حقيقتها ,’وانا فخور بكم ,والان يمكنكم ان تعودوا الى ماكنتم عليه.

تقوم الاميرات والحريم وتقبلن يد الوالد وتذهبن الى الطابق الاعلى وتقول الاميرة عائشة :يا افندينا ان عندنا مفاجئة لكم سنعدها ونعرضها عليكم.

سلطان :وانا مشتاق لمفاجئاتكم يا اميرتي واحب الي مما في بنوك الدنيا كلها .

مشفقة :قاطعكم فتحي يا افندينا وارجو ان اسمع كلامكم .

سلطان يستمع الى الاميرات وهن تعزفن اللحن الحميدي :الله ,يذكرني هذا بايام العزة في يلدز عندما كنا نخرج لمراسم سلاملك ايام الجمعة,نعم يا عزيزتي ,ان كان لهذه الخلوة ميزة فهي تفرغنا من مشغلة السلم والحرب ونستطيع ان نكلم لساعات ونستمع الى عزف الاميرات على الماندولين واغانيهن ونشرب الشاي معا بعيدا عن روتينات الحكم, ربما تتذكرين ان البريطانيين والروس بدءوا يقتربون من بعضهما بعدما انتصرنا في حربنا مع اليونان شيئا فشيئا ,وهذه التقارب جاءت بعدما عرف البريطانيون انه لايمكنهم ان ينفردوا بابتلاعنا ,وهذا التقارب كان معناها الانتحار لولا ظهور خصم قوي لهما وهو المانيا ,فظهور المانيا كقوة كفيل بوقوع حرب عمومي في اوروبا اجلا ام عاجلا ,وانني كنت اتعامل مع الكل دون ان اتحالف مع احد الاطراف واترك الباقي ,ولكن كنت مطلع على النشاطات الماسونية ايضا ان الايطاليين بنوا محفل سلانيك ,اما البريطانيون بدؤا من مصر في اول الامر ,ثم حصل تحول في محفل سلانيك نحو الالمان ولهذا اهملتهم بعض الشيء وربما هذا كان احدى اخطائي ,سيطر الالمان على اعضاء تركيا الفتاة في سلانيك وسيطر البريطانيون على اعضاء الاتحاد العاملين في مانستر ,كنت لنشاطهم بالمرصاد وما كنت اخاف من نشاط اتحادي سلانيك لان نجاحهم كان سيزيد من خوف بريطانيا, دبر الانكليز عن طريق ابي هدى الصيادي الذي كنت اثق به ومما عرضوه علي من اجل التعامل معهم ,هذا العرض الذي كتبته للشيخ ابي شامات ,وبعدما سمعوا مني هذا الرد القاطع توقفت المحادثات السرية ,وبعد ذلك اتفق اتحاديو سلانيك مع الانكليز واسقطوني عن العرش ولم يكن امامي غير منع اراقة دماء الاخوة .

مشفقة :احسنتم لاشك يا افندينا .

يعود فتحي بوجه عابس واصفر وقال:تلقيت شفرة من سيادة محمود شوكت باشا ,هاهي ذي و.اعطى الشفرة للسلطان وجلس حزينا واعطى السلطان الشفرة للسيد علي محسن ليقراءه,واعطى لفتحي رسالة الجوابية للشيخ ابي الشامات .

علي محسن : يقول : عندما يتعهد الجيش بالمحافظة على حياة الخاقان فان طلبه ضمانات اخرى من مؤسسات اخرى من شانه ان يمس شرف الجيش وان التاثير الذي يمكن ان يخلقه هذا الحال فيما سمع ضباط الجيش بهذا .

وفي حال وفاته فان الموجودات البنوك ستؤول ملكيتها الى الحكومة تلقائيا ,وان موظف البنك الذين تم احضارهم من المانيا لن يستطعوا الانتظارفترة اطول ,ليكن معلوما قطعاما اذا كان سيوقع ام لا وعليه ان يترك طبيعته المترددة التي اوصلته الى هذه الحالة وان يسمع لنصيحة الرجال الشرفاء ويتصرف برجولة واني في انتظار الرد.

سلطان محير ويقول اعطيني التوكيل ,وفتحي يضع التوكيل امامه ويوقعه السلطان .

بينما يضع فتحي الورقة في جيبه وينكفيء على قدمي السلطان باكيا وهويقول:

سلطاني لجنابكم ان تثقوا بي انني لست انسانا في طبيعته ان يقوم بهذه الامور.

امسكته السلطان وانهضته وربت على ظهره, قبل يد السلطان وقال:يا سيدي انني اودعكم ,يبدو انهم عينوا ضابطا اخر من مكاني وهو راسم بك .

سلطان:ما سرني ذلك الخبر ,لقد اصبحت انظر اليك مثل اولادي ,لقد اديت واجبك يابني ومهما كنت كن مخلصا لدينك ووطنك ,عندما كنت في الحكم كنت اهتم بما يحث في عدن والجزائر والمناطق البعيدة من دولتنا ,ولكن الان اصبح عالمي صغيرا,لذا تجدني اهتم بتغير قائد الحرس لمعتقلي او أي بواب اخر يا بني ,هكذا الدنيا ,رافقتك السلامة .

يخرج فتحي والدموع في عينيه

قام السلطان :وفرشت السجادة وهو يقول:ليت الله قد توفاني قبل ان يريني هذه الايام .

علي محسن :ارجوك يا سيدي لا تقول هذا .

الدموع يسيل كالسيل منهمرا في عيني السلطان اثناء الصلاة , ومشفقة وعلي محسن ينظران اليه بحزن واصوات الموسيقى الحزينة التي تسمع من الطابق الاعلى تجعل المشهد اكثر محزنا .

ينزل الاميرات وعبد الرحيم وتكاد تطرن من الفرح مما انجزن وتلصقن الخريطة الكبيرة للعالم بالجدار وينزل عبدالرحيم ومعه الة البندولين وتنزل كولشن بالبيانو ,واما سر جمال ودلبستة تنزلان باللوحتين التين رسمتهما الاميرة عائشة لوالدها ووالدتها مشفقة هانم .

يتم السلطان صلاته ويرفع يديه قائلا:يا رب احفظ دولتي من شر المجرمين ليس غيرك اثق به ,يا ربي لا تريني كوارث اخرى انت وحدك الذي تستطيع انقاذ دين الاسلام المبين من ان يقهر على يد الكفرة .

يستقبل السلطان الاولاد بوجه بشوش لئلا يكدر صفاء فرحهم ولا يعرف لماذا هم مسرورين ولكن عندما يرى الخريطة يقوم ويتجه نحوها : الله اكبر خريطة العالم وفيها حددتم كل مراحل دولة اجدادنا منذ ان اسس على مساحة صغيرة الى ان اصبح اكبر دولة في العالم ؟احسنتم يا اولاد انا جدا مسرور بعملكم ,كلهم يقبلون يد السلطان ,ويقول السلطان :من منكم رسم الخريطة ؟

عائشة:طبعا الذي طلب الخريطة وتشير الى عبدالرحيم افندي الذي ادخل القطن في انفه .

سلطان:احسنت يا ابني البطل ,لابد لمن ينجز هذا العمل ان يرهق حتى يصيب بالرعاف ,لاباس عليك انشاء الله .

ياتي كل العائلة وينظرون الى الخريطة- وفي هذا الاثناء يفتح الباب ويدخل كل من القنصل الالماني ومدير بنك دويتش وورائه هادي باشا قائد الجيش الثالث وعلي رضا باشا وراسم بك قائد الحرس ولكن وقفوا

وراء العائلة المنشغلين بهدوء - وتفتح الاميرة عائشة لوحتها التي رسمتها لابيها فاذا هو قصر يلدز وامامه عربة السلطان والفرقة الموسيقية ,يلصقها السلطان بالجدار :اننا اليوم نفتتح معرضا تشكيليا للفانين والفنانات ,ما اجمل اللوحة ,بارك الله في اولادي وبناتي . وتفتح الاميرة اللوحة الثانية فاذا هي مرآة فوقها زهور وتعطيها لوالدتها وهي تلصقها بالجدار ويقول السلطان :كيف قرات نفسية والدتكي انها تناسبها تماما,احسنت يا اميرتي .

عائشة:ولكن بقي المفاجئة الاهم ,اننا قمنا باعداد مسرحية ,نريد ان نعرضها امامكم ,ان رضيتم بذلك؟

سلطان:بل اشكركم ايضا واستمع الى عرضكم بكل فخر ,ولكن ما المناسبة لكل هذا .

عائشة :انه يوم ميلادكم يا سيدي .

سلطان :لقد انساني الايام حتى مناسبة ميلادي يا اميرتي .

وتنبه معظم العائلة بوجود الباشوات ,ولذا انسحبن الى الوراء وعندما راهم السلطان,قال لهم معذرة يا سادة ,كنت مشغولا بافتتاح معرض للفن التشكيلي والان عندنا عرض مسرحي ,هل تشاركوننا في مشاهدتها ؟

العسكريون متحيرون مما يجري واما القنصل الالماني معجب بما يراه ويقول: من من سلاطين الدنيا بعد سجنه استطاع ان يجعل من معتقله مسرحا ومعرضا ,لن تستطعوا تشويه سمعة هذا الرجل ابدا يا ايها

الاتحاديون ,فانا اريد ان استمع الى عرض المسرحية ,وبامكانكم الجلوس ,او تنتظروننا خارج القاعة ؟

هادي:بل نحن نستمع ايضا.

سلطان :اذن تفضلوا , السلطان والباشاوات يجلسون على المقاعد ,والحريم على سرير السلطان وراء مقاعد الباشاوات والسادة يجلسون عل الارض امام الباشاوات والخازندارات تشاهدن على الدرج .

ا

.

الاميرة عائشة :اعزائي مرحبا بكم,موضوع هذه المسرحية التي جلستم من اجلها هي انين عدة قرون لهذة الامة .

الاميرة شادية:هي حديقة سقيت بالدماء والدموع ,وثمرة الجهود والسهر لألاف المخلصين من ابناء هذه الأمة .

الاميرة عائشة :اسمحوا لنا ان نعرفكم بعض الشيء بالموضوع ,فمسرحيتنا تدور حول الخلافة العثمانية ,التي اسسها السلطان الغازي عثمان بن ارتغرل في سنة 1299م على مساحة (3000 كم)-يشير عبدالرحيم افندي اليه على الخريطة- وبالطبع تعرفون انه اسس قبل هذه

الدويلة وبعدها دويلات كثيرة وعلى مساحة اوسع منها ,ولكن كتب الله لهذه الدولة شأنا عظيما .

الاميرة شادية: وطوال تاريخها المبارك شنت عليها ستة حملات صليبية :

الاميرة عائشة :الاول منها كانت في سنة 1364 وكانت الحملة تحت قيادة ملك مجر وبجيش قوامه مائة الف مقاتل .

والحملة الثانية كانت في سنة 1371م وهي ماتسمى بمعركة جيرمن .- يشير عبدالرحيم افندي اليه على الخريطة-

والحملة الثالثة كانت في سنة 1389 م والتفى الجيشان في صحراء قوصوه, واستشهد السلطان مراد الاول في هذة المعركة بعد الحاق الهزيمة بالصليبيين . .- يشير عبدالرحيم افندي اليه على الخريطة-

والحملة الرابعة المشهورة بمعركة نيغيولي وكانت في سنة 1396 وانتصر فيها المسلمون بقيادة سلطان بايزيد .

والحملة الخامسة والسادسة كانتا في زمن والد السلطان فاتح السلطان مراد الثاني والانتصار كان في نصيب المسلمين .

الاميرة شادية:ولكن رغم كل هذه الحملات والتحالفات كانت النتيجة ليست خسارتهم في المعركة فقط بل استمر الجيش العثماني في فتوحاته في الجانب الاوروبي وفتحوا تراقيا و وبلغاريا وفيليبا واجكودرا وبوصنة

والقسطنطينية واليونان والبانيا وبوسنة والهرسك وبلغراد وجزيرة رودس والمجر وترانسلفانيا وبوغدان وودقت ابواب فيننا وبلغت مساحتها 20 مليون كم في سنة 1575. .- يشير عبدالرحيم افندي اليه على الخريطة-

الاميرة عائشة :يعني خلال 275 سنة وصلت من مساحة 3000 كم الى 20 مليون كم فتأملوا .

الاميرة شادية :ومع هذه الفتوحات فقد استمرت التوسع في اسيا وافريقيا استولت على جميع الوطن العربي واسيا الصغرى وجزء كبير من اسيا الوسطى والشرق الاوسط ماعدا جزء من ايران .

.- يشير عبدالرحيم افندي اليه على الخريطة-

الاميرة عائشة :وطوال حكم 33 سلطانا سجلت مئات الملاحم وستغرقت ايام حكمها اكثرمن ستة قرون .

الاميرة شادية :احبائي, لكي تعرفوا الحالة التي تمر بها الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر يقرأ لكم زميلي جزءا من الرسالة التي ارسلها السفير الفرنسي الجنرال سباستياني الى نابليون بونابارت .

عبد الرحيم افندي :-ياخذ الرسالة على المنضدة ويفتحها – يقول السفير :ياصاحب الجلالة يعيش في استانبول (40)الف نسمة من الارمن وفي الاناضول يوجد نصف مليون منهم وهم جميعا راضون عن اوضاعهم وفيهم اغنياء كثيرون ,ومعظم العائلات التركية الاصيلة قد تركت ثرواتها

في ايدي هؤلاء لاستثمارها ومنهم اصحاب بنوك يقدمون القروض للدولة بالربا ,ومن المؤكد انهم سوف لن يشتركوا في أي حركة ضد الدولة العثمانية ,وكذلك الروم الساكنين في الاناضول فوضعهم يشبه وضع الارمن ,اما روم الساكنين في الجزر واليونان القديم مع ان الادارة العثمانية لم تسيء الى هؤلاء ابدا بل اعطتهم شبه استقلال وفي كثير من الجزر لايكاد يوجد موظف تركي واحد ,ومع ذلك انهم لديهم كراهة شديدة للعثمانيين ,لذا فمن المحقق انهم لن يضيعوا أي فرصة تسنح لهم للثورة ,وان الطريقة الوحيدة لكسب الروم في جميع الممالك العثمانية هي كسب رجال الدين والتقرب اليهم ,

ولا يوجد في الدولة العثمانية جيش منظم ولكن جماهير المسلم لن يستسلم بسهولة وانهم متعصبين غاية التعصب واسمح لي صاحب الجلالة ان اقول بأنهم شجعان بدرجة لايمكن تصورها ولا يترددون لحضة واحدة في التضحية بأنفسهم فداء للدين .

وهل نستطيع ادخال التفرقة المذهبية بين المسلمين ؟فلا ادري هل هو ممكن ؟ام لا؟

ولكن مع امكانه ,فإن الإستلاء على الاراضي التي يسكنها الاتراك في اوروبا يكون سهلا , ولكن لروسيا اسهل منا ...)

توقيع:جنرال سباستياني

14-تموز 1808 م-استنبول

الاميرة شادية:اذن اتضح من الرسالة بأن الدول الاوروبية تريد التهام الدولة العثمانية ,وبخلاف الشائعات المنتشرة فان الرعايا المسيحيين كانوا بأمان ويلقون معاملة عادلة , واتضح ايضا بأن اهم عامل مساند حتى في اضعف ادوارها كان الدافع الديني ولهذا حاول الاعداء نشر الروح التفرقة الطائفية بين المسلمين ,وان استغلال القساوسة للتأثير على المسيحيين مناقض لفصل الدين عن الدولة التي تنادي بها الثورة الفرنسية .

الاميرة عائشة :ان هذا الاتساع الهائل المتضمن لنصف العالم القديم تقريبا ومجاورتها لدول قوية عسكريا ومتقدمة تكنلوجيا دفع السلطان عبدالعزيز الى الوقوع في شراك البنوك الاوروبية الربوية بغية تحديث الجيش وبناء اسطول بحري وسكك الحديد حتى. بلغ ديون دولة العثمانية الى (138969630)ليرة ذهبية

الاميرة شادية:فهذه الديون مهدت للدول الاوروبية الطريق للتدخل في الشؤون الداخلية .

الاميرة عائشة : ووجود التنوع والتخاصم بين الاعراق والاجناس والاديان في داخلها وارتباط هذه الاقليات بالدول الاجنبية كرعايا هذه العوامل كلها اظيف الى عدم وجود جيش نظامي يحرس هذه الجبهة المتسعة وعدم وجودجهاز استخبارات على مستوى المطلوب يرصد تحركات المتآمرين عليها لتجتمع عليها العاهات وعوامل الضعف وتلقب بالرجل المريض .

الاميرة شادية:وهذا السلطان الذي نحتفل بيوم ميلاده جاء اعتلى على عرش امبراطورية متعددة الاديان والاعراق المتضاد فيما بينهم وان

الثورات الداخلية من هنا وهناك توآكلها وتمزقها والديون والفقر وتدخل الدول الكبرى اثقل كاهلها ,فلنرى كيف يواجه بطلنا كل هذه التحديات .

الاميرة عائشة :والتحدى الاخطر هو وجود نخبة على راس الامور ,وبيدهم مقالد كل شيء في الدولة ,وهم عندما قاموا بذبح السلطان عبدالعزيز رحمه الله ,كانوا يعتقدون بانهم يذبحون الدولة العثمانية ,ولكن مجيء سيدنا القطان المناسب وقائد المرحلة خيب ظنونهم وامد من عمر السفينة العريقة ثلاثة عقود بكل جدارة,خفض الديون من ثلاثمائة مليون ليرة الى ثلاثين مليون ليرة ,أي الى العشر وذلك بعد ان خاض حربين كبيرين وعشرات التمردات الداخلية ,واسس الدستور وامد خط من التلغراف,وربط بين العالم الاسلامي والعتبات المقدسة بسكة الحديد وطبع في عهده عشون الفا من الكتب وزاد عدد المدارس اضعافا ووصلت الى ثلاثين الف مدرسة وتقدمت البلاد من النواحي العمرانية والمواصلات والصناعات والتعليم ,وفتح لكم يا سادة الباشاوات الاف المؤسسات والمصانع والمشافي وازداد عدد السفن من 39 سفينة في عهد عمه المرحوم الى 85 سفينة واهتم بالجيش واسس البريد والمواصلات وترك بلادا شاسعا في ذمتكم

وبهذه المناسبة ارجو ان تقبلوا منا في يوم ميلاد هذا السلطان العظيم بان نعزف لكم بالالات المتواضعة عندنا الانشودة الحميدية وبعدها مارش الوزارة البحرية ,اما اللحن الاول لسيدنا السلطان واما اللحن الثاني لاخي برهان الدين .

شادية وعائشة ومعهن عبدالرحيم يقومون بعزف اللحنين بمهارة ,والحاضرون وبما فيهم السلطان يغلب عليهم التحير ويقول السلطان للباشوات :طبعا اعدوا كل هذا ورسموا الخريطة وانا ما عرفت شيئا ,فانني مثلكم متحير ومندهش .

القنصل :مادام عندك هؤلاء الاولاد فانك تكون سلطانا ,حتى ولو كنت جلست وحدك على حجر صماء .

ينتهي العزف ويصفق الحاضرون من الباشاوات والعائلة لهم وهم يقبلون يد السلطان وتذهب افراد العائلة الى الطابق الاعلى ,تاركين المجال للباشاوات ليتحدثوا براحتهم ,ولكن يطلب القنصل ومدير البنك ان يخرج الباشاوات وقال مدير البنك :نحن مضطرون ان نكون مع فخامته على انفراد,ولذا نرجوا ان تتركونا معا ,نظر الباشاوات الى بعضهما البعض قال القنصل: ان هذا عرف واصول .

خرج الكل وبقي السلطان مع مدير البنك,قال مدير البنك اريدكم ان تقولوا صراحة هل ترغبون باستيراد هذه الوديعة وانتم في هذا الوضع ؟ام هناك اجبار؟

سلطان:لا ليس هناك أي اجبار ,انني اسحب مودوعاتي بارادتي الحرة .

قدم الاوراق الى السلطان ,ووقع عليها السلطان وخرج المدير وهو حزين .

يقول علي محسن:يا مولانا يبدو هناك مناسبة ,الضباط جدا مسرورين وزينوا القصر.

يدخل راسم بك ويقول له السلطان هاهي دي خذوها من فضلكم , ياخذ رسم بك الحقائب , يقول له السلطان :هل هنك مناسبة اخرى اليوم سوى مناسبة حصولكم على العائدات؟ الاولاد لاحظوا انكم مسرورين اليوم.

راسم:نعم ,سياتي صاندانسكي ,وسناكل سويا.

سلطان:صاندانسكي,رئيس حزب سنترالست الذي اراد فصل مقدونيا عن دولتكم,هل اصبح عدو الامس صديق اليوم؟

رسم الارناؤوطي:نحن اصدقاء.

سلطان:لا تنخدعوا فانه ومن في شاكلته لم يكونوا يوما ما اصدقائكم,انتم في غفلة,ضعوا عقلكم في راسكم,لقد امتصت عصاباته دماء الاف الاتراك ,اتمنى الا تندموا ,هذه الضيافة مؤلمة لكم اكثرمني ,انا في غاية التاسف.
يخرج راسم.

مشفقة: الاترتاح يا افندينا ,كانت اليوم مليئة بالاحداث المحزنة الى قلبكم .

سلط

سلطان:الا ان الاولاد جعلوني مسرورا ,بامكانك ان تستريحي ,انا بخير .

فقط يبقى السلطان مع علي محسن الذي لا يفارقه سجله ويكتب كل ما يقوله السلطان ,يقول للسلطان: انني اريد ان اكتب كل ما يتلفظ به مولانا منذ جئنا الى هنا ,اانتم تمانعون في عمل كهذا؟

سلطان :بالعكس,يفرحني هذا يا بني ,اذهب وابدل ملابسي ثم اعود اليك واحدثك باحداث مهمة .

علي:هذا فخر كبير يا مولاي .

يقول السلطان اثنا ء صعود الدرج :قل لصاحب القهوة ان يجدد لنا القهوة .

علي محسن: نعم يا مولانا لقد سمعع مطلبكم .

يفتح الباب ويدخل راسم بك وينظر الى علي بغضب ويقول: تعال يا هذا انت وليكون سجلك معك .

علي:الان يرجع سبيدي.

راسم:وانت كذلك تعود سريعا ,وربما تعود قبله .

يتبعه علي محسن , بعد برهة ينزل السلطان ويضع صاحب القهوة فنجانين على المنضدة ويجلس السلطان وينتظر كاتبه وهو يشرب القهوة ,ولكن دون جدوى ,ويسال صاحب القهوة:اين الكاتب ؟

- ناداه راسم بك .

- يا جرجيس ,ادع لي احد الضباط.

جرجيس ,نعم يا مولانا هاهو .

- اين كاتبي ؟هل ارتكب جرما ؟

راسم:لا ابدا انه مريض ويقوم الطبيب بمعالجته ,وهو بخير لا تنشغلوا بالكم, وهاهو الباشاوات حضروا لاخذ خطيباتهم الاميرات .

سلطان اهلا بهم ليتفضلوا ,جرجيس ادع لي الاولاد من فضلك .

جرجيس يصعد وينزل الاميرات بسرعة وتقبلن يد والدهن ويضمهن الى صدره ويجلسن بجنبه ويقول:يا اميراتي , بعد قليل ياتي خطيب كل واحدة منكن وياخذونكن وانا ارجو من اخي ان يكون معكن كما كنت مع بنات عمي السلطان عبدالعزيز واخي السلطان مراد رحمهما الله ,حيث اجهزت لهن جهازا مثل بناتي تماما ,لانهم جردوني من كل صلاحيتي وممتلكاتي .

عائشة:افندينا ما كنت اريد ان اترككم لولا هذه المذلة والعار وسط وحوش كاسرة .

سلطان:لا يابناتي ,اريح لي ان با تبعدن عني ,فسد الزمان يا بناتي وقلت الاحترام لعائلتنا وكثرت النوائب ولهذا اريد ان تتزوجوا قبل مماتي ,بقاء اخي على الحكم ,لاني ارى في الافق اياما تعيسة لدولتنا وعائلتنا .

يدخل الباشوات الثلاث ويقبلون يد السلطان ويعانقون مع السادة الموجودين ويجلسهم السلطان بجنبه ويقول لهم : يا ابنائي اضع عندكم كنوزا ثمينة وامانة عظيمة وهن لؤلؤاتي واميراتي ,فارجو الا تكسروا خاطرهن اذا ما اصابت هذه العائلة التي تمنى كل شريف ان يقترب منها ويحظي بالمصاهرة معها بنوائب الدهر ,وان تواسوهن . كلهم يهزون راسهم ويقبلون يد السلطان ثانية ,يقول السلطان وانت يا ابني الحبيب عبد الرحيم ,اذهب واجتهد واكمل تحصيلك على اتم وجه ولا تحزن علي ابدا , الاميرات وبعض الخازندارات التي تردن مصاحبة الاميرات تقبلن يد السلطان ويقبل السلطان راسهن قائلا لهن :ارجوكم تسامحوني ,فقد سببت لكم الازعاج ,ثم تعانقن مع الحريم ويودع السلطان ابنه وجرجيس والكل يبكي , هكذا يخرجون من الباب ويغلق راسم بك الباب مرة اخرى ,ويخيب مشاهد الخزن على القاعة ,القط باموق جالس بجنب السلطان ,يقول السلطان اعرف انك فقدت صاحبتك ايضا ,لاباس نعيش معا ونتقاسم اللقمة ما دمنا احياء .

السلطان يقراء البخاري ومشفقة تقراء القران ,وناجية هانم يداعب مع عابد وكلشن تاتي بالشاي .

يفتح الباب ويدخل زنون دبرلي –احد الضباط ويساله السلطان بلهفة عن حال علي محسن :كيف حال كاتبي ,اهو سجن ام هو مريض ,فان كان

مسجونا بسبب كتابته لخاطراتي ,فالمفروض ان تحاسبوني انا وليس هو ,قل لراسم بك ان يطلق سراحه ويرسله مع الاميرات الى استانبول .

زنون:حاضر يا سيدي .

سلطان :وبعد ذلك بامكانك ان تعود .

يخرج زنون برهة من الوقت والجالسين ساكتون , الا انهم قلقين بسبب سماعهم لاصوات المدافع والانفجارات و اصوات حركة السفن في البحر.

يرجع زنون ويساله السلطان :ما هذه الاصوات ؟هل البلاد في حالة الحرب؟

زنون: لاادري هناك مفاجئات ام لا,ونحن مثلكم لا نعرف الاما يخبرنا القادة , ولكن تتفكك الدولة بعدكم بسرعة كبيرة ,فقد اعلن بلغاريا استقلالها والتحقت البوسنةوالهرسك بالنمسا واعلنت الثورة في البانيا واحتلت ايطاليا كلا من ليبيا والجزر الاثنتي عشرة ,والقادة يخافون من اتفاقيات التي تمت بين بلغاريا والصرب واليونان ووالجبل الاسود.

سلطان:وهل هناك حرب اكبر من هذا –صوت الانفجارات تزداد –يا زنون بك ان الانفجارات قريبة جدا .

يخرج زنون بسرعة .

سلطان:كان وجه زنون يقراء فيه اننا في حالة الحرب ,فارجو من الله الفلاح ,ان مستعمراتنا الاوروبية ما اكتفت بان انفصلت عنا فحسب,بل تهددنا ايضا .

يدخل راسم معذورا:لقد اقلقتكم ,ينبغي ان اقول لكم اننا نحارب اربعة دول .

سلطان: قام وقال :مع اربعة دول؟من هم يا راسم بك؟نصر الله الجيش الهمايوني ,فالنصر لنا ان شاء الله .

فاطرق راسم راسه نحو الارض واستطرد باكيا: اليونان وبلغاريا والجبل الاسود وصربيا يا سلطاني ونحن على وشك الانهزام مع الاسف.

سلطان:هل تحاربون مع اربعة دول متحدة يا راسم بك ؟يا لها من جهالة !

راسم:اصدرت الكنائس قانونها وحل مجلس النواب والاعيان وحصل الاختلاف,فمن كان يدري ان ذلك الامر سيحل بنا؟!سلانيك على وشك السقوط ,اليوم او غدا,وسينقلونكم الى استانبول ,وقد تلقيت امرا باخباركم ذلك.

ويرد السلطان بغضب بالغ :سلانيك تعني مفتاح استانبول ,اين جنودنا؟اين جيشنا ؟الن يبصق على وجوهنا التاريخ والاجداد اذا تركناها؟هل رضي اخي بذلك النكوص ,اعطني بندقية وسادافع مع ابنائي الجنود عنها حتى اخر نفس لي .

مشفقة :يا سيدي ارجوك اهداء .

راسم:لكن اخوكم السلطان سلم عليكم ورجا منكم ان تنقلوا الى استانبول.

سلطان:هناك سفراء وملحقون عسكريون في السفارات,فهل كانوا نائمين؟اتتفق اربع دول فيما بينهاولا يعلم احد شيئا؟,

ثم جلس وقال:ادعو الله باسمه القهار ان يقهر الذين كانوا السبب في ذلك,ويحهم ,الى أي درك القوا بالدولة ؟

استعدوا يا اولاد .

الحريم والخازندارات والخدم والمصاحبين يجتمعون حول السلطان ,مشفقة بيدها حقيبة القران ,كلشن تحتضن القط ,شهرالدين ونوري يحملان سجلات السلطان وكتاب بخاري الشريف ويفتح راسم بك الباب ويطلب السلطان من نوري :يا سيد نوري لا تنسى لوحات ابنائي ,يسرع نوري باخذ الالواح .

يخرج السلطان حزينا ومن ورائه العائلة .

ويسدل الستار.

_____

الفصل الثامن والاخير ، عنوان الفصل :
خريف الإمبراطورية

المكان :قصر بكلر بكي في استانبول.

الزمان: سنة 1912-1918م

اشخاص هذه الحلقة:

1- السلطان

2- الامير عابدافندي

3- مشفقة هانم

4- صالحة ناجية هانم

5- السيد نوري

6- انور باشا

7- راسم بك

8- اسحاق باشا

9-الدكتور علطف

10-ثلاثة من الاطباء

11-طلعت باشا مع اثنين من الباشاوات

12-شهر الدين اغا

13-الوصيفة

14-كلشن

15-الضباط الذين يحملون الجثمان

16-امير الاي مصطفى كمال وامعه احد الضباط

يرفع الستار:

مسرح الحدث –قصر بكلر بكي المشرف على مضيق البوسفور اكثر انارة من المعتقل السابق وخلفية المسرح كانها نافذة باتجاه البحر وفي كلا الجانبين غرفتين بالاضافة الى المدخل الخارجي الذي كان مغلقا .

السلطان جالس ويبدو على وجهه انه حزين ,تاتي مشفقة وتجلس بجنبه وتقول:ماذا بكم يا افندينا ؟هل تشعرون بالم ؟

وياتي عابد افندي -5-سنوات ويقبل يد والده ,ويمسح السلطان ظهره ويقول:

منذ اربعين عاما وانا انتظر ان تشتبك الدول الكبرى مع بعضها البعض ,كان هذا كل املي ,وكنت ارى ان سعادة دولتنا مرتبطة بهذا ,وها قد اقترب ذلك اليوم ,ولكن هيهات فقد ابعدوني عن العرش وابتعد الذين حكموا بعدي عن العقل والبصيرة ,من المؤكد لقد فاتت فرصتنا التي انتظرتها اربعين سنة,ولت افلتت عن الدولة العثمانية ,جاهدت ثلاثين عاما كي ابقى في الحكم من اجل هذه الفرصة,حبست الاصطول في الخليج من اجل هذه الفرصة ,تجاهلت الحرب اليونانية لوضع حد لاطماع الانكلز من اجل هذه الفرصة ,وحفظت هذا السر في نفسي اربعين عاما ,ولكنهم خلال سنوات قليلة لم يعد لدى امتنا شيئا نتمسك به ,اخرجونا من اوروبا وافريقيا , انا كنت خفضت الديون الى عشره خلال ثلاثين سنة مع تاسيس عدة مشاريع عمرانية,وهم ضاعفوها عشر مرات مع تقلصهم لرقعة الدولة الى اقل من نصف ما كانت في زمني .

السلطان صحته ليس جيدا ,صوته ليس جهوريا مثل السابق ,وياخذه السعال بين الحين والاخر .

ياتي نوري ويقول :لقد جاء السيد انور باشا وزير الحربية .

سلطان:ليتفضل يابني .

مشفقة :وقدم له التهنئة لانه تزوج ابنة اخوكم السلطان السيدة ناجية سلطان .

يخلع انور سيفه عند المدخل ويدخل ويستقبله السلطان ويجلسه بجنبه وهو شخص مؤدب لايرفع راسه ويقول:

انني احمل سلام كل من صاحب الجلالة اخوكم السلطان وصاحب الجلالة امبراطور الالماني وهما يسئلان عن صحتكم .

سلطان:اشكرهم على لطفهم ووفائهم واهنئكم يا بني بمناسبة زواجكم من ابنة اخي

انور :اشكركم يا سيدي.

سلطان :يا بني ,لقد حكمت -33- سنة ومع اني كنت مع حرية الفرد وكرامته ولكني لم استسغ قط الحرية التي لاضابط لها ,وفي الصحافة لم

اسمح بنشر الصور العارية والكتابات غير الاخلاقية والافكار المسمومة ,وانا اقدر المدنية الاوروبية ولكني لم ارى في المسيحية جانبا متميزا على الاسلام ولم استحسن تقليد الاخرين بشكل اعمى ,فالمهارة هي في تكييف المدنية حسب بنيتنا وتقاليدنا,لذا فانني لم امانع في ادخال الجوانب الايجابية لهذه المدنية الى قصري ,فكانت ترتب المسرحيات والحفلات الموسيقية في قصر يلدز يومي الجمعة والاحد ,وقد رايت كثيرا من فناني الغرب واستمعت الى موسيقاهم ,وكنت ادعو لهذه الحفلات الموسيقية الحريم والامراء والاميرات والاصهار وحتى الخدم في القصر .

انور:نعم يا سيدي انتم فوق الشبهة في ذلك ولا ينكر دوركم .

سلطان:اما بالنسبة لانقلابكم ,فلا تنسوا بانني منعت قواتي من اطلاق النار عليكم ,والحمد لله نجحت في عدم الحاق الاذى باي فرد,ولكن رفاقكم لم يقدروا ذلك ورموني كحزمة بالية الى الشارع واتهموني بتدبير حادثة 31 مارت ,ولقد ظهر للقاصي والداني ان الذين كانوا وراء الحادث وهم فرقة الاحرار اللا مركزية كانوا عملاء اليونان وايطاليا واخذوا النقود والمساعدات منهم وانتم ركضتم وراء شبهاتهم حتى اخرجوكم من اوروبا .

الغيتم الفرق الحميدية والمدرسة العشائرية وهاتين المؤسستين لهما اهميتهما لربط وجهاء العرب والاكراد والارناؤط بالدولة العثمانية ,فابناء تلك الاقوام من اخواننا المسلمين لهم دور مشكور في تاريخ دولتنا ,وفي مقابل تقلصكم لهاتين المؤسستين فتحتم زهاء خمسين محفلا ماسونيا واعطيتم المجال لليهود باسكان فلسطين ,وما شفع لكم كل هذه المداهنات باسم الاصلاح ونفذ الاوروبيون تهديد غلادستون يوم جلوسي على العرش في عهدكم المنير حيث قال بان الاتراك قوم همجيون ولا بد من طردهم الى خارج اوروبا .

اعد لك كل هذه الاخطاء والامراض لانك صرت مثل ابنائي وانت في موقع تستطيع ان تعالج او على الاقل تقلل من هذه الاخطاء .

انور:نعم يا سيدي اني اسمع نصائحكم ,وفي الحقيقة ما تمتعت بان اكون بخدمتكم ولهذا لي عذر ان لم اكن ملما بمواهبكم الكبيرة ,وكما ارجو منكم ان تعبروا عن رايكم عن الامة الالمانية لننا نتقارب اليوم اليهم اكثر فاكثر وانتم صاحب الحنكة ولا شك عندكم انطباعاتكم حول نفسيتهم.

سلطان: يقال عن بسمارك انه لا يخفي أفكاره خلف الكلمات التي يتفوه بها كما هي حال كل سياسي بل تكون كلماته تعبيرا عما يجول في نفسه من أفكار فان صح ما قيل فإن قوله ان الجيش البروسي أسمى وأغلى من أن يضحى به في سبيل الشرق لا يمكن أن يعبر عن فكره الصحيح والا فيعتبر رجل دولة قصير النظر وضيق الأفق ويحتمل أنه قاله في وقت كان فيه الأنشغال بأمور الشرق سابقا لاوانه لو فهم الألمان أن بقاء الدولة العثمانية قوية أمر حيوي لألمانيا لكان خيرا لنا ولهم أما عدم رغبة بسمارك في قبولنا طرفا في الحلف الثلاثي فأمر يستدعي التأسف وليس للامبراطور الروماني أي عذر عندما تردد في قبولنا عضوا في ذلك الحلف على ألمانيا أن تعدل عن فكرة انشاء مستعمرات في بقاع شتى من الأرض وتكتفي بمد نفوذها الى خليج ايران فذلك خير لها ولنا جميعا,و يقال عن اليونانيين بسبب حيويتهم انهم الفرنسيون الشرقيون ويقال عن الاتراك أحيانا أنهم الألمان الشرقيون والحقيقة ان بيننا وبين الألمان شبها في الصفات وقد يكون هذا التشابه سببا في ميلنا نحوهم فالهدوء والحيطة والصبر على المشاق هي الصفات المميزة لهذين الشعبين وشعبنا بطيء رزين يسبق حلمه غضبه فيحتمل الأذى طويلا ولكنه اذا غضب كان شديدا وقد ظهرت فينا هذه الصفة جليا في الحرب الاخيرة مع اليونان والجرأة والاستقامة واللطف والكرم

هي صفات الألمان مثلما هي صفاتنا حتى ان هناك تشابها في تاريخ هذين الشعبين فالاباطرة الألمان القدماء استهدفوا السيطرة على ما وراء جبال الألب وتأسيس امبراطورية رومانية في الأراضي المستولى عليها مثلما سعى أسلافنا لتأسيس امبراطورية عالمية تمتد من فيينا الى الهند وقد صرف الألمان أكبر جهودهم من غير فائدة كما صرف العثمانيون جل امكانياتهم لامور لم تجلب لهم نفعا, هناك أسباب مختلفة جعلتني أميل نحو الألمان وان لم ترض فرنسا بهذا الميل ولو لم يكن شيء لتبرير عطفنا تجاه الألمان إلا شخص قيصر لكفى انه رجل تحبه النفس وتثق به فهو جدير بالإعجاب لقد رفع من شأن بلاده كثيرا ومن حيث الاساس فإن الألمان أقرب الى النفس من الفرنسيين وهم الى العثمانيين أقرب من غيرهم من الامم فهم كالعثمانيين بطيئو الحركة والانفعال لكنهم قوم شرفاء صادقون نشيطون ومخلصون في عملهم والفرنسيون قوم يحبون أن يعملوا لكنهم لا يثبتون على عملهم ثبات الالمان يضيعون جل أوقاتهم في سياسات غير مستقرة على قرار وثبات الالمان يقابله شوق الفرنسيين لكنه شوق كلهب القش لا يلبث أن ينطفيء والالمان اذا بدؤوا بأمر بحثوا فيه وسبروا أعماقه وعرفوا مداخله ومخارجه أما الفرنسيون فلا يملكون هذه الصفة قط وجملة القول ان الفرنسيين يبدون الآن أبعد عن قلوبنا مما كانوا سابقا وقد يكون لاستيلائهم على تونس نصيب في هذا التباعد كما أن لنظامهم الجمهوري أثرا في هذا الجفاء وفي رأينا لن نجد في بلد نظاما مستقرا الا اذا كان الحاكم فيه حاكما فعليا

انور:لقد افدتني كثيرا يا سيدي وانا اشكركم على هذه المعلومات القيمة.

سلطان:ان ما المني كثيرا قيامكم بارسال شخص مطرود من مجلسي من اجل قضية مصيرية ضمن الوفد الذي بلغني قرار خلعي وهو عمانوئيل قرصو اليهودي ,لقد كان هذا تحقيرا منكم لمقام الخلافة , وانتم الان في الحكم ولذا اسمعوا مني هذه النصيحة:

ان الذين يصفقون الان لشخص,باستطاعتهم ان يمزقوه
ويفترسوه غدا,ولذلك انتبه جيدا ,وادعو الله ان يحفظ دولتنا وامتنا .

بعد ان تم السلطان كلامه قام انور باشا وادى التحية العسكرية له وصافحه باحترام وقام السلطان بتوديعه الى المدخل

يتوجه السلطان الى النافذة وينظر الى موجات البحر وهو يقول :هذا الضابط المؤدب لو كان قائدا لاحد الالوية ويوجهه وزير حربي محنك لكان بالامكان ان ينفذ اعمالا مفيدة ,اما ان يكون شخص عسكري بحت ناظرا للحربية فليس بجيد ,لا شك انه ستندلع حرب عمومية يوما من الايام الا ان وجودنا بها جهل عظيم وتهور بالغ ,ان سلامتنا في البقاء على الحياد,اللهم عليك بمن جعلوا الدولة في هذا الحال بحق اسمك القهار .

ناجية:يا افندينا لقد ارسلت ابنتكم عائشة رسالة من سويسرا تسلم عليكم وتقبل ايدكم وتزف اليكم بشرى ولادة حفيد لكم سماها عمر .

سلطان:الحمد لله ,اكتبوا لها ان ترسل لنا صورة لها ولابنها ,اللهم احفظهم من كل مكروه يا رب .

مشفقة :وكتبت بان علي محسن ,استقصي منكم بعد ان كتب شيئا من مذكراتكم ,وانه رجع مع الاميرات الى استانبول ولكن العسكر منعوه ان يخالط معهن ويحكي لهن قصته .

سلطان:ظاهر انهم كلقوه بعمل مشين ,ولكنه رفض طلبهم ولهذا منعوه من الاحتكاك بالاخرين ,الله يكون في عونه وعون المخلصين .

ياتي راسم بك ولاول مرة يحمل رزمة من الجرائد ويعطه للسلطان ,قائلا له :العالم باسره يتوجه الى اتون الحرب يا سيدي بسرعة , ويضع الجرائد.

سلطان :كنت اعرف هذا يا بني من زمان ,ولكن هل تستطيعون ان تستغلوه لصالحكم ؟ام انتم مثل الاخرين تجرون اذيالكم وتذيقون الدولة مزيدا من التمزق والدمار وتسودون سجل الخزي والعار .

راسم:كانك بعدما جئت الى استانبول طال لسانك .ويخرج

ياخذ السلطان الجرائد ويتوجه الى المقعد ويجلس وياتي علي القهوجي بالقهوة : يهز السلطان راسه وهو يتصفح الجرائد ويقول:انهم دخلوفيها مستعجلين مثل غيرهم ,وسيزيدون معاناتنا ان لم يقضوا على اصل الدولة برمتها .

صالحةناجية :طبعا انهم لا ياتونكم بالجرائد ,الا هناك حاجة منهم الى رايكم ,وسوف يزوركم احدهم .

نوري:يا سيدي ان هناك سوء تفاهم بين صدر الاعظم طلعت باشا وبين انور باشا ناضر الحربية .

سلطان:هناك بعد شاسع بين هذين المعدنين,فطلعت باشا الذي يقال انه لايستقر على محور واحد لمدة طويلة وبين انورباشا الذي اذا اخلص لاحد لاتنفك عنه الا بهلاكه ومن ورائه هلاك المؤسسة العسكرية ,ولهذا ان الالمانيين متمسكون بهذا العسكري بشدة .

يدخل راسم ويقول ياتي انور باشا لمقابلتكم .

سلطان: اهلا وسهلا به يا بني .

يدخل انور ويؤدي التحية باحترام ويجلس.

انور:سيدي ارجو منكم ان تنيروننا بارائكم وارشادكم ,فاننا دخلنا معركة عمومية ولا يشبه المعارك السابقة .

سلطان:انتم يا بني دخلتم الحرب بدون روية وانقيادا للعوواطف فدفعتم البلد الى الخطر وادعوا الله ان يجعل نهايتها خيرا لدولتنا وشعبنا ولكن ماذا ستكون النتيجة ان انتهت هذه الحرب بفاجعة ؟الانخسر حتى الاناضول ؟ماذا سيبقى عندنا انذاك ؟لقد سرت مع جيش الحركة واستوليتم على المدينة ,وما مرت عليكم عشر سنين وانتم في حالة لا يحسدون ,ربما الان اتضح لكم؟ ان الاستيلاء على استانبول ليس بمهم بقدر المحافظة على هذه المسؤوليات الكبيرة على عاتقكم ,لقد بعنا انفسنا من اجل سفينتين ,ومنذ ذاك الليلة التي تسربت السفينتان الالمانيتان عرفت مدى خطورة هذه المغامرة ,دخولكم الحرب ضد ثلاث دول كبرى ليس من العقل في شيء ,وهو الجنون بعينه , لقد قلت لكثير من القادة يا بني ان العدو يهزم خلف الجبهة اكثر منه في الجبهة ,اننا خسرنا كل الحروب الذي خضنا ها مع

روسيا ,والان انتم اظفتم اليه كلا من فرنسا وبريطانيا ,وانتم فيما بينكم بعضكم يريد ان ينال من الاخر .

انور: ان ما يقلقنا كثيرا حركات الارمن وتمردهم ,وهم يستنزفون معظم طاقاتنا العسكرية ,وامرهم اعظم من امر الاعدء الرئيسيين.

سلطان :وكانك الان تعرف هذا؟ في يوم الذي شكلت جيش الحركة منهم ومن الارناؤوط والروم ما كنت تعرف ذلك ؟وعندما تقلصدت الفرق الحميدية ما تجلى لك تلك الحقيقة ؟اما عرفت ان الارمن يؤيدون الروس ؟ اما علمت ان العرب يميلون الى الانكليز ؟ كيف تدخل الحرب معهما معا ؟ولكنكم صفقتم للارمن وقمتم بنشر تلفيقاتهم واكاذيبهم في اوروبا وداخل الدولة ,ووصفتموني بابشع الاوصاف ,وحملتم راية التنوير والحرية والرشاد وازالة كل التميزات الدينية والقومية ,انتم ابناء الماسون وبنائون الاحرار ونقشتم اسمكم في التاريخ واستوليتم على قصر يلدز وارسلتم الي يهوديا وارمنيا والبانيا ليبلغوني قرار خلعي ,ما قمت بعشر ما تقومون به من القمع والوحشية ضدهم ,فاين شعاراتكم ؟افضحتم انفسكم .

انور:الان ماذا عسانا ان نفعل لانقاذ الدولة ؟!

سلطان:ان القطان يدير سفينة واحدة ويكتشف من ستاتيها العواصف والاخطارويدير سفينته كمايرى هو ,فكيف سيدرك من هم خارجها ادارتها؟وانا في هذا الوضع ,ليس لدي راي في ادارة البلاد ولا تدبير اقترحه عليكم ,فالسياسة في حاجة لتتبعها بانتظام ,ولكنني ارى انه من الخير للدولة البحث عن صلح منفرد .

هنا يجفل انور وكانه ضغط احد على جرحه , ادى التحية العسكرية وخرج.

هز السلطان راسه وقال :فهمت ان الخلاف بين الانور وطلعت في هذا ,ويبدو ان طلعت اقل من صهرنا ,او هو مثل مدحت باشا رجل بريطانيا ,وزج الدولة في هذا الحرب وتحالف مع اعداء بريطانيا لتجعلها فريسة لاسياده .

دخل راسم وبيده جريدة, ويقول :اقراء يا سيدنا عن مراسلات ومكاتبات ومؤامرات بين عائلة الاشراف في مكة وبين والحلفاء البريطانيين والفرنسيين .

يعطيه الجريدة ويخرج ,وبما ان السلطان يتوقع الاسواء يمد يده الى الجريدة بفتور ويقول لنوري :اقراء لي يا بني .

نوري: يبدو ان هناك حركات للانكليز للاستيلاء على الحجاز والبصرة يا سيدي, نورى يقلب صفحة الجريدة ,ويقول : لا اصدق يا سيدي ,ولا تطلبوا مني ان اقراء ؟!!

سلطان: ماذا حصل ؟اعطيني الجريدة, احوو احوو احوو

الا ان مشفقة تاخذ الجريدة وتقول:ماذا بك يا سيد نوري؟لماذا تهول الاخبار ؟هذا حرب كل شيء فيه جاهز .

سلطان: يمسح دفنه ويقول:اقرئي يا عزيزتي ,لم يبقى شيء نتحسر عليه , لا تخافي.

مشفقة:تنظر الى الجريدة وتقول :انها مجرد وعد يا سيدي ,وعد من بلفور وزير الخارجية البريطانية يقول لليهود اذا استولينا على فلسطين نقيم فيها مستوطنة لكم .

استند السلطان على عكازه وهو جالس وبكا بكاء حارا وقال:اشعر بان الدولة التي اقامها اجدادي تعيش حتى اليوم –مثلي تماما – ايامها الاخيرة .

مسح وجهه ونظر الى الاعلى وقال :ليس لنا ايمان باحد غيرك يا ربي ,جنودنا ممزقون ومبعثرون على طول حدود دولتنا وهم يعيشون حالة من الياس والانكسار والهزيمة ولا يستطع خلاصنا الا انت,اللهم لا ترينا اياما اسوا من هذا الموت وهذا اخر توسلاتي .

يدخل راسم بك ويقول :ان طلعت باشا ارسل اسحاق باشا للمشاورة معكم في مصير الدولة .

لايجيبه السلطان بشيء ويخرج ويدخل اسحاق باشا ولكن السلطان قبل ان يقول اجلس او يساله عن الحالة يقول له:لم تبق لدي أي فكرة يمكن اقولها لكم,ولا أي تدبير يمكن ان اوصي به في هذا الوضع ,ان هذه الدولة المسكينة قد تهدمت منذ اليوم الذي زجت فيه الى الحرب العالمية ,كان يجب على من ارسلوك الى ان يرسلونك قبل ارتكاب ذلك التهور ,ان دخول النيران مع دولتين داخل حدود البرية مثل المانيا ونمسا ضد الدول

التي تسيطر على بحار العالم لهو اكبر حماقة سيسجلها التاريخ , احوو احوو احوو

يكاد ان يخرج اسحاق بع سماع هذا وتدهور صحة السلطان, الا ان السلطان يقول :ماذا في جعبة البطل الكبير طلعت باشا ؟ماذا ينوي ان يفعل ؟

هل يقول ما قاله الخونة لي ايام الحرب الروسية العثمانية لناخذ كل زوجاتنا وابنائنا ولنمضي الى الجزر ونترك استانبول للاعداء؟لماذا لم ياتي بنفسه مادام يهمه مشاورتي ؟ احوو احوو .

خرج اسحاق ولم يقل شيئا .

مشفقة :انادي لكم الطبيب يا سيدي ؟ دون ان تنتظر الجواب تقول :يا سيد نوري اين الدكتور عاطف الطبيب الخاص لمولانا ؟هذه الايام اننا باشد حاجة الى وجوده ؟

نوري:اخذ الاذن من مولانا وذهب في اجازة .

مشفقة:اذن اخبر راسم ابك ان يستدعي أي طبيب موجود في المنطقة .

نوري يدق المدخل ,وراسم يفتح الباب ويقول :ماذا بك؟

نوري:ان صحة مولانا سيئة ونريد ان تستدعي الطبيب حالا .

يخرج راسم بك لاستدعاء الطبيب.

ويقول السلطان :

ان من يملك حقلا لا يبذل جهدا في عملية الزراعة والتعمير قبل توفر خفير لحقله وكلبا ,لانه لو لم يكن له خفير فان حيوانا متوحشا سيضر بحقله ,او ياتي شخص اخر فيظن ان ذلك الموقع لا صاحب له ويحمل كل ما يلقاه هناك ,ومن ثم ,فان يجب توفير الخفير اولا حتى يقبل من الحقل على العمل في راحة تامة واذا ماتاجر مع المحيطين به اخذوا منه بضاعته ووفوه قدرها ,ولكن اذا لم يكن لديهم قوة يزودون بها عن انفسهم فانهم سيكونون مجبرين على قبول ما يمليه عليه جيرانهم من عروض مجحفة ولا يتحقق الاستقرار في الحقول .

يدخل راسم والطبيب ,راسم ونوري يمددان السلطان للطبيب ,يقول الطبيب هل طراء عليكم أي حالة او الم ما كنتم تحسون به سابقا؟

سلطان:نعم يا ايها الطبيب ,احس بالم في صدري يسري من الجانب الايسر الى الايمن.

بعد ان انهى الدكتور فحوصاته قال خيرا انشاء الله ويرجع نحو المدخل ةيساعد نوري السلطان للبس ملابسه بينما يخبر الدكتور راسم بك ويقول متخافتا:ان مرض الخاقان كبير العلة وبداية للسل .

راسم :يا للهول ,علي اذن ان اخبر السلطان رشاد بسرعة .

يخرجان .

عابد يبكي ويقول له السلطان :لاتبكي يا بني انني بخير.

يفتح الباب ويدخل كل من طلعت باشا مع اثنين من الباشاوات وتنسحب الحريم الى الغرفة المجاورة لتفسحن المجال للضيوف ,ورغم مرض السلطان الا انه يستقبلهم قائما , وهم يؤدون التحية ويجلسون :

طلعت :ياسيدي جئنا اليكم بطلب من اخيكم السلطان لنبلغ سلامه اليكم .

سلطان: ارجو له التوفيق في اموره , وما اخبار الحرب؟

طلعت:رغم عدم وجود خطر سريع ,فالامر جاد فالعدو يضيق على جاناق قلعة برا وبحرا ورغم الاستحكامات والدفاع المستميت الاانه لاقدر الله لو سقط المضيق في ايديهم لوقع السلطان والحكومة والسلطنة في الاسر ولاضطر السلطان الى الهرب ,وحتى لانضطر الى مصالحة مؤلمة ,فقد قرر السلطان والمجلس والحكومة الانتقال الى الاناضول ومواصلة الحرب من هناك واخلي مقر جلبي للذات السلطانية ,وحتى لايقع ما قدر الله ما يخشى منه فنحن مكلفون باخباركم ان الذات الهمايونية اخوكم السلطان رشاد يرغب في تفضلكم بالاقامة في أي مدينة اخرى ونحن في انتظار

اوامركم,وربما تكون محل اقامتكم الاجبارية قصر خونكار في مدينة بورصة .

سلطان الذي يهز راسه اثنا ء كلام طلعت اجابه: يا طلعت الا قرات با ن قسطنطين كان بيده السيف وحارب دفاعا عن استانبول بين ابراجها وقدم روحه محاربا تحتها ,ونحن سنغادرها بالسفن والقطارات ,هكذا تقترحون علي يا باشا وانتم جالسون امامي وتبتسمون ,وما ادري سبب ابتسامتكم مادام سنضيع استانبول ؟ام انكم ما قدتم جيش الحركة الا للتمهيد لهذ اليوم؟ فان قلق السلطان لامحل له ومن طبيعة هذا المضيق انه ليس من الممكن ان يمر أي اسطول هنا –يشير بيده من الشباك –ولو حصل ما تخشونه ساصيطر انا على جاناق قلعة في حينه ,ولكن لنفرض انه حدثت مثل هذه الكارثة فليس واجب السلطان ان يهرب,تاركا تاجه وعرشه واتباعه ,يجب ان يسلم روحه تحت العرش والسلطنة ,وعندما فتح جدنا الكبير السلطان الفاتح هذه البلدة ,لم يهرب قسطنطين امبراطور بيزنطية ولم يفكر في الهرب بل اظهر شجاعته في الحرب ,فنحن احفاد الفاتح افلانكونمثل امبراطور بيزنطة على الاقل,اعرضوا ذلك على السلطان ,وليستريحوا وليرضوا بقضاء الله ولايقلقوا ,وبالنسبة لي فلن اذهب الى أي مكان بعد ذلك ولن اتحرك من مكاني قيد انملة ورجائي الكبير ان اموت هنا واني استرحم اخي والحكومة الا يمنعوني من رغبتي هذه .

نظر الوفد بعضهم الى بعض وقاموا وادوا التحية للسلطان وقال طلعت :نعرض رسالتكم على السلطان ,ويلتفت الى رفاقه قائلا لهم :لقد اخذنا نصيبنا. ويخرجون .

يسمع اصوات الانفجارات والسفن واطلاق المدافع ويهز القصر :ويقول السلطان لمصاحبيه :يا احبائي بامكانكم ان تذهبوا الى أي مكان وتتركوني

,يبدو انني اصبحت جيفة ودولة اجدادي كذلك .يقول هذا وينزل الدموع من عينيه .

صالحة هانم:نعيش معا ونموت معا ولا نتركك ابدا .

مشفقة :لقد جاء الدكتور عاطف ومعه اشهر الاطباء في البلد ارسلهم صاحب الجلالة اخوكم لمعاينتكم.

سلطان:كلا انا لا اريد طبيبا ,عالجوا حال الدولة ,عالجوا الجنود المصابين .

مشفقة:ولكن ان اخاكم سيغضب من هذا .

يدخل الاطباء مع راسم بك ,نوري وراسم يمددان السلطان ويجري الاطباء الفحوصات اللا زمة , والحريم والخازندارات واقفات وتذرف من عينهن الدموع .

ينتهي الفحوصات ويخرج راسم مع الاطباء , ونورى وشهر الدين يجلسان السلطان , ويلبسانه اللباس وهو يقول :ماذا عن الحرب لقد هدات الاصوات قليلا ,هل ضيعنا استانبول ؟

نوري :لا يا سيدي ,يقولون ان احد الضباط باسم مصطفى كمال استطاع ان يرجع الاسطولين البريطاني والفرنسي خائبين ,وانقذ المدينة من هذا الكابوس .

يدخل راسم ويقبل يد السلطان والدموع تفيض من عينيه ويقول:يا سلطاني اصفح عني ان كنت قد قصرت تجاهك او اذنبت في حقك,

ينظر السلطان اليه باستغراب ويقول:الظاهر انك قطعت الامل من شفائي, ماذا عن بطولة جنان قلعة اخبرني؟

راسم: ان اميرالاي السيد مصطفى كمال اوقف تقدم الاسطولين واجبرهما على الانسحاب يا سيدي .

سلطان: انني اشكر الله ثم اشكر هذا الضابط على بطولته ان كان صحيحا , ولكن لا اصدق انهم سكتوا ورجعوا بهذه السهولة ؟! فهل هناك صفقة ما ؟ام انه صناعة لبطل يستغلونه فيما بعد ؟كل هذا الله اعلم ويحتاج الى الحنكة والفطنة وهما راقدتين عند المتخلفين , قولوا لقادة قومي بان وضعهم جدا خطير نتيجة تهورهم ,كان سابقا نعد الروس عدوا تقليديا والان اضيف كل من اليونان والارمن والرومانين وكل السلافيين, واصبح العرب والارناؤط والاكراد اعداء بسبب الدافع القومي, وها اننا في الحرب ضد البريطانيين والفرنسيين , وان الالمان لن يدخلوا في تحالف معنا ابدا بعد ان منوا بهذه الهزيمة ,وان الايران من الد اعدائنا , واما الاتراك في عمق اسيا لا يستطعون تقديم أي عون لهذه الجزيرة البعيدة عنهم ,ولهذا لا تفكروا ابدا في خوض الحروب ,عالجوا كل القضايا بالتفاوض ,فهذا اخر ما اوصي به .

عابد: يا سيدي ان هذا الضابط صديق حميم لي وزارني في هذا القصر مرتين واهداني غزالين صغيرين.

سلطان:اذا جاء صديقك مرة اخرى فاخبرني لاراه يابني.

راسم: انه شخص هاديء , ولكن فيما يبدو لي ان طلعت باشا يسانده ,اما انور باشا يتفاداه.

سلطان : الان عرفت الحقيقة يا بني ,انه بطل مصنوع لما بعد عائلتنا ,وان صداقتك معه لا يفيدك كثيرا .

يخرج راسم متعجبا مما يقوله السلطان وتجلس كل من صالحة ناجية ام عابد افندي ومشفقة هانم بجانبي السلطان .

سلطان: اه لقد اسدلوا ستارا اسود على جميع خدماتي .

مشفقة: لقد ارسل اخوكم الى السادة الامراء والاميرات ان يزوروكم وبعد قليل سيصلون ,لقد شفيت من قبل من امراض اخطر من هذا المرض يا سيدي ,وان شاء الله ستشفى ايضا ,اما حقك فان الله سبحانه سياخذه دون شك.

سلطان:ما احببت ان يزوروني ابنائي وبناتي واستانبول تحت القصف والخطر ,ارجو ان تخبيروهم بانني بخير .

نوري :لا ياسيدي ,ان هذه الحضات التي يقضونها معكم لايقدر بثمن ,واقحام المخاطر هين دونه .

سلطان: يا سيد نوري مات خصمي اللدود هرتزل وهو ينتظر قيام دولته في فلسطين ,اما انا على حافة القبر واخر امنيتي هو وصول ابنائي لزيارة معتقلي ,قارن بين الحالتين ,وتعرف الركود والصعود بينهما.

جاء شهر الدين اغا بالقهوة وقال السلطان لمشفقة:ناويلني القهوة لاشربها , ثم بدا وكانه يودع الموجودين في الغرفة ,قبل راحة مشفقة هانم وقال :ليرض الله عنك . واخذ بيد صالحة ناجية هانم وقال لها:ارجو عفوك ان كنت قصرت تجاهك . ثم خاطب كولشان الواقفة بقربه:يا بنيتي ليرض الله عنك ايضا.

واراد ان يرتشف القهوة ,ولكن قبل ان يرتشف انسكبت القهوة على راحة مشفقة هانم وسقط راسه على ذراع مشفقة : وصرخت مشفقة :لقد اغمي على سيدي,ليحضر الدكتور حالا

جاء الدكتور عاطف وهو يعرف ان قد مات ولكن لم يظهرها للموجودين ,ولا تزال مشفقة ممسكة به بين ذراعيها لا تريد ان تتخلى عنه ,لكن الدكتور يخرجها هي وعابد افندي قائلا لها:دعوه لي ,انه مغمي عليه وساعمل الاسعاف اللازم ,اخرجوا حالا ثم يلتفت الى الوصيفة :لم تقفين هكذا ,اسرعي واتني بالقماش لنربط فكيه .

عندها يصرخ شهر الدين اغا : اه ,لقد فقدنا سيدنا ,واغمي عليه.

ثم يرتفع اصوات البكاء ,عابد يبكي ويقول:كلا لا اصدق لقد كان الان جالسا في فراشه .

وتقول كلشن :يا والدنا الى اين تذهب ولمن تتركنا ؟

ويدخل الضباط ومعهم انور وراسم ويقول انور: ما هذا لا نريد هنا أي ازعاج .

يؤدون التحية العسكرية وياخذون جثمان السلطان الى الخارج والعائلة يخرجون ورائهم ولا يبقى احد على المسرح .

يدخل امير الاي مصطفى كمال ومعه ضابط اخر بزي عسكري وهو يقول لمرافقه :هل قمتم باخراج كل عائلة الخاقان السابقين بشكل كامل؟
يقول الضابط :نعم يا سيدي.

مصطفى: وتم مصادرة جميع اراضيهم وممتلكاتهم حسب ما امرنا في الداخل والخارج ؟

الظابط:نعم ,وطبعا معلوم لدى معاليكم ان قادة الاتحاد بعد توقيعهم على اتفاق وقف الحرب بيوم واحد وفي منتصف الليل كلهم هربوا وتركوا الوطن تحت اقدام العدو , وكل ما نعرفه عنهم يقال ان طلعت قتل في برلين ومات انور في تركستان ومات جمال في تفليس .

مصطفى:خابوا وخسروا ما ينتظر منهم الا الهرب ,ويمسك
مصطفى بجانبي الستار ويقول : الان نسدل الستار على الخلافة الدينية ونقيم مكانها جمهورية علمانية .

يسدل الستار وتنتهي المسرحية .

مشهد الختام: رحيل الحصن

(المكان: غرفة مظلمة في قصر بكلر بكي. الزمان: 10 فبراير 1918)

[الإضاءة]:

تتركز إضاءة شاحبة (Spotlight) على كرسي خشبي فارغ في منتصف المسرح، فوقه "فأس" السلطان التي كان يمارس بها النجارة، وعباءته الرسمية ملقاة بإهمال كأنها جسد فارغ.

[الحركة الدرامية]:

تدخل الأميرة **عائشة** بخطوات وئيدة، تتوقف أمام الكرسي، تلمس العباءة وتسقط دمعة واحدة من عينها. خلفها في عمق المسرح، تظهر ظلال سوداء تمثل "الاتحاديين" وهم يمزقون خريطة كبيرة للدولة العثمانية إلى قطع صغيرة، بينما يتصاعد صوت ريح صرصر في الخلفية.

[صوت مسجل (Voice Over) بصوت السلطان - عميق ومهيب]:

"لقد فعلتُ ما بوسعي.. كنتُ الحارس الذي لم ينم، والقلعة التي لم تسلم مفاتيحها للأغراب. سيقول التاريخ عني ما يشاء، لكنني أرحل وقلبي مطمئن.. أنني لم أبع 'القدس' بكنوز الأرض، ولم أترك أمتي إلا بعد أن استنفدتُ نبضي الأخير."

[النهاية]:

تبدأ الخريطة الممزقة بالتساقط من الأعلى كأوراق شجر خريفية يابسة فوق الكرسي والعباءة. فجأة، يرتفع صوت **"أذان"** بعيد وحزين جداً من مآذن إسطنبول.

تنطفئ الأنوار تدريجياً، باستثناء إضاءة خافتة جداً على "الخريطة الممزقة" الملقاة على الأرض، ثم...

[ستار]

كلمة المؤلف (تظهر على شاشة العرض أو في الصفحة الأخيرة):

"سقطت القلعة.. لكن الحكاية لم تنتهِ بعد. فكلُّ ذرة ترابٍ في هذا الشرق لا تزال تحمل بصمة ذلك الرجل الذي قال 'لا' في زمن الانصياع."

— محمد عزيز الوتري